تصدير

للدكتور مهدي علام

الأرتقيات

تمهيـــد :

فى بعض العصور الأدبية التى تخلفت فيها الحركة الثقافية : كان بعض الكتاب والشعراء يلجئون إلى الزخرف اللفظى وإظهار البراعة فيه : وقد شاع من ذلك عدة فنون ؛ منها كتابة ما يقرأ طرْداً وعكساً ، كقولهم : ساكِب كاسٍ : لُمْ أخاً مَلّ ، كبر رجاء أجر ربك .

مَوَدَّتُه تدومُ لِكلِّ هَـوْل   وهَلْ كُلٌّ مَودتُه تَدُوم ؟

وكذلك التزام حرف أو عدة أحرف فى مقالة ؛ أو تجنب حرف فى الكلام أو الكتابة ، وفى هذا الميدان نصوص وقصص مسلية . فمن ذلك ما هو معروف عن واصل بن عطاء الذى كان ألثغ بالراء . وكان الناس يعابثونه فى ذلك . ذهب إليه فى طريقه غلام بورقة وطلب منه أن يقرأ له ما فيها ، فنظر واصل بن عطاء فى الورقة ووجد أن فيها :

« أمر أمير الأمراء بحفر بئر فى الصحراء ؛ ليشرب منها الشارد والوارد » .

فأجابه قائلا :

« حكم حاكم الحكام بوضع عين فى البادية ليستقى منها الحادى والبادى »

وظهرت رسائل تلتزم حرفاً لحكمة بلاغية ، أو تحية لممدوح . وأروع ما أخرجته الأقلام فى هذا الباب ديوان شعر كامل من تسع وعشرين قصيدة ، وكل قصيدة تتألف من تسعة وعشرين بيتاً ، على حرف من حروف المعجم ، وكل قصيدة تبدأ بواحد من الحروف التسعة والعشرين ، وتنتهى قافيتها به .

وتعرف هذه القصائد بالأرتقيات ، وقد اقتصرت فى كل قصيدة على بيتين من مطلعها ، وبيتين فى ختامها (عدا مطلع القصيدة الأولى ، فقد اخترت منه سبعة أبيات) .

* * *

الأُرتُقيّات

من ديوان صفى الدين الحلى

(صفحات ٧٠٥ ـ ٧٦٢)

أو كتاب « درر النحور فى امتداح الملك المنصور »

لصفى الدين الحلى

(٦٧٧ ـ ٧٥٢ هـ) ١٢٧٧ ـ ١٣٣٩ م

الديوان طبعة بيروت سنة ١٩٦٢

بعد الحروب التى قامت فى الحلة ، وانتشار الفتن ، ارتحل صفى الدين إلى آل أرتق ، ملوك ديار بكر بن وائل ، فمدح الملك المنصور نجم الدين أبا الفتح غازى ، بتسع وعشرين قصـيدة ، كل منها تسعة وعشرون بيتاً على حرف من حروف المعجم ، بدأ كل بيت منها به ، وبه ختمه ، وسماها : درر النحور فى مدائح الملك المنصور ، وسميت أيضاً بالروضة ، وهى المعروفة بالأُرتقيات . وهذه القصائد ، وإن تكن تدل على مقدرته اللغوية ، وخصب شاعريته ، يشوبها كثير من التكلف والمغالاة ، بَلْهَ تكرار القوافى وتقلقل بعضها فى أماكنها . (مقدمة الديوان بقلم كرم البستانى).

الأُرْتق : راتقو فَتْق الدين ، جابرو كسر الإسلام والمسلمين .

(أ)

أبت الوصال مخافة الرقباء   وأتتك تحت مدارع الظلماء
أصفتك من بعد الصدود مودة   وكذا الدواء يكون بعد الداء

* * *

أعجبتِ مما قد رأيتِ ، وفى الحشا أضعاف ما عينت فى الأعضاء
أمسِى ولست بسالم من طعنة نجلاء ، أو من مقلة كحلاء
إن الصوارم واللحاظ تعاهدا أن لا أزال مزملا بدمائى .

* * *

أقبلتُ نحوك فى سواد مطالبى حتى أتتنى باليد البيضـاء
أرْقَى إلى عرش الرجا رَبَّ الندى فكأن يومى ليـلة الإسراء .

(ب)

بدتْ لنا الراحُ فى تاج من الحَبَبِ فمزّقتْ حالة الظلماء باللهبِ
بِكْر إذا زُوّجت بالماء أولدها أطفالَ در على مهد من الذهب .

* * *

بدائع من قريض لو أتيتُ بها فى غيركم كان منسوباً إلى الكذب
بقيتَ ما دارت الأفلاك فى نعم محروسة من صروف الدهر والنوب .

(ت)

تاب الزمان من الذنوب فَوَاتِ واغنم لذيذ العيش قبل فَوَات
تم السرور بنا ، فقم يا صاحبى نستدرك الماضى بنهب الآتى :

* * *

تحلو صفاتك فى القلوب ، كأنها جاءت لمعنى عارض فى الذات
تِهْ فى الأنام ، فلا برحتَ مؤمّلا تَجْلو الجفونَ وتمـلأ الجفنات :

(ث)

ثقتى بغير هواكمو لاتحدثُ ويدى بحبل وصالكم تتَشَبّثُ
ثُبِّتتْ مغارس حبكم فى خاطرى فهو القديم وكل حب محدث :

* * *

ثِقةً بأن يد الردى ، إن غادرتْ مَيْتا : فعندك بالمكارم يُبْعث
ثُبِّتَتْ ، ولو حلفت بأنك ناعشٌ بنوالِكَ الأرواحَ لم تك تَحْنَثُ .

(ج)

جاءتْ لتنظر ما أبقتْ من المُهَجِ فعَطَّرتْ سائر الأرجاء بالأَرَجِ
جَلتْ علينا مُحيًّا لو جَلَتْه لنا فى ظلمة الليل أغنتنا عن السرُجِ .

* * *

جُزْنا البلادَ ، ولم نقصد سواك فتًى من يَحْظَ بالدُّرِّ يَسْتَغْنِ عن السَّبَجِ
جمعتَ فضلا ، فلا فرّقته أبدا أنت الفريد وكل الناس كالهمج .

(ح)

حَيِّ الرفاق ، وطُفْ بكأس الراح واطرزْ بكأس حُـلَّة الأفراح
حُثَّ الكئوس إلى جسوم أصبحت فيها المُدامُ شريكة الأَرواح .

* * *

حرَمٌ ، إذا حل الوفودُ برَبْعِه قُرِنَتْ عواقبُ سعيهم بنجاح
حَمِدوكَ جُهْد المستطيع ، وأثبتوا لعُلاكَ شكرا ماله من ماح .

(خ)

خيالٌ سَرى والنجمُ فى القرْبِ راسخ أَلَمَّ ، ومن دون الحبيب فراسخ
خطاهُ كماءِ البيد يجرى ، وبيننا هِضابُ الفيافى ، والجبال الشَّوامخ .

* * *

خذِ المدْحَ منى ، وابق للحمد سالما هنيئاً لذِكْرِ عَـرْفُه بك فائخ
خَلِىٌّ ، يصوغ المدح فيك قلائدا ويُنْشِده راو ، ويكتب ناسخ .

(د)

دَمعٌ مَزائِدُ قطْرِهِ لا تَجْمَدُ ، أنّى ، ونار صبابتى لا تخمد
دام البُعادُ ؛ فلا أزال مكابدا دَمْعا يذوب ، وزَفْرةً تتوقد .

* * *

دانَبْتُ رَبْعَكَ ، والأعادى شمَّتٌ فرجعتُ عنه والورى لى حُسَّدُ
دسْ هامَةَ العلياءِ وابْقَ محلّكا أبدًا يَحلُّ بك الزمان ويَعْقِد .

(ذ)

ذكَر العهودَ فأسْهرَ الطرْفَ القَذِى صبٌّ بغير حديثكم لايغتذى
ذاق الهوى صِرفاً ، فأعْقبَ قلبَه فِكَرُ الصُّحاةِ ، وسكرة المتنبذ .

* * *

ذُرْتَ الزمانَ على الطُّغاةِ وقد طغى وَجَذَوْتَ طرْفَ المكرمات وقد قذِى
ذَوِيَتْ عِداكَ ولا يَرحتَ مُنعَّما عن رِفْدِ طُلاب الندى لم تَجْذَذِ .

(ر)

رَقَّتْ لناحين همَّ الصبح بالسَّفر وأقبلتْ فى الدُّجى تسْعَى على حذَر
راضَ الهوَى قلبها القاسى ، فجادلنا وكان أبخل من تَمُّوزَ بالمطرِ .

* * *

راحتْ إلى جَنَّةٍ حَلَّ العُفاةُ بها فى الخُلْد ، واتّكئُوا فيها على سُرُر
رجعت أعتِبُ نفسى فى تأخرها عنها ؛ وطورا أُهَنّئُ النفس بالظفر

(ز)

زار والليل مؤذن بالبراز وهو من أعين العِدَى فى احتراز
زائر جاء تحت جلباب ليل شفق الصبح فوقه كالطراز

* * *

زهرات المديح باسمك تزهو   ليس يزهو ثوب بغير طراز
زدتُ في حب مدحك ، فارتح   لعَبيط المديح والإرجاز .

(س)

سفح المزاج على حُمَيَّا الكاس   وسعى يطوف بها على الجُلاس
ساقٍ ، فلو طرح المُدامَ لأسكرت   صهباءَ فاترِ طَرْفه النَّعَّاس .

* * *

سَمحُ الأكفِّ ، تروم نائلك الوَرى   وتخافك الآساد فى الأخياس
سعدٌ أتاك من الإله مؤيَّد   فاخلُدْ ، ودم فى نعمة وغراس .

(ش)

شَمُولٌ إلى نيرانها أبدًا نَعْشو   نَتَنْعِشُنا من بعد ما ضمَّنا نَعْشُ
شُغِفْنَا بها ، والعِزّ قد مدَّ ظِلَّه   علينا ، ووجه الأرض هَشٌّ لنا بَشٌّ .

* * *

شَكَكْتَ كُلاها فى رماح كأنها   أفاعٍ لها فى كل جارحة نَهْشُ
شَرَّفتُ مدحى فيك يا مُغْرِقَ الوَرَى   بجُودٍ هَتُونِ المُزْنِ فى ضِمنه طشُّ .

(ص)

صَرْف المُدام به السرور مُخَصَّصُ   وبه الهموم عن القلوب تُمحَّصُ
صَرِّفْ بها عنك الهموم لتغتدى   فِرَقاً ، إذا تُملَا الكئوسُ النُّقَّصُ .

* * *

صَوَّبت نحوكمو عِنانَ مدائحى   فمُدقِّقٌ من نَظْمها ومُلَخَّصُ
صحَّت معانيها ، وشُرِّف لفظُها   بِكمو ، وطاب خِتامها والمَخْلَصُ .

(ض)

ضَحِكَتْ ثغورُ جدائق الأرضِ   فَسَهَتْ عيون النرجس الغَضِّ
ضَرَبَ الربيــع بها مَضَارِبَه   وجَرَتْ جيادُ السُّحْبِ فى الرَّكْضِ .

* * *

ضَجرَ الذى جاراه حين رأى   سهمَ القضاء بأمره يَمْضِى
ضَلَّيتُ إن لم أُصْفِهِ مِــدَحى   وإليــه نِضْوُ قريحتى أُنْضِى .

(ط)

طاف يَسْعَى بسرعة ونشاطِ   ويعاطى المدامَ أَحْلَى تَعاطِ
طَيِّبُ النَّشْرِ ، يَجرح اللحظُ ...خَــدَّيْهِ... ويُدْمِى أَعْضاهُ مَسّ القَباطى .

* *

طيِّبُ اللفظ ، لو حوَتْه اللآلى   جعلتْه الحســان كالأقراطِ
طُرَفٌ كالعقود ، فالدر منها   ذِكْرُه والبُيُــوتُ كالأسماط .

(ظ)

ظفِرَت سهامُ فَواتِرِ الألحاظ   فرَمَتْ صميم قلوبنا بشواظ
ظلّتْ تقاتلُ للمقاتل أسهُما   أغْنَتْ عن الأفــواق والأرعاظ .

* * *

ظفِروا بظلك ، يا مليك ، فإنهم   بِوَلاك قد فازوا بخَيْرِ حِفاظ
ظُرَّانُ أرضِك للسماء قد اغتدت   بك فى مفاخرة وفرط غِياظ .

(ع)

عذلَ العواذل فى هواك مُضَيَّعُ   هبْ أنهم عذلوا ، فمن ذا يسمع ؟
عذلوا ، ولو عدلوا بأرباب الهوى   ما حركوا ما ليس فيه مطمع .

* * *

علمًا بأن الجود فيك صنيعه   طبع ، وذلك فى سواك تطبع
عِشْ فى نعيم لا يُنْتَقَلْ ظِلّه   وَعُلاً يذل بها الزّمان ويخضع .

(غ)

غير مُجْدٍ مع صحة وفراغ   طول مُكْثى . والمجد سهلٌ لباغى
غَمَلتْ همتى عن السعى حتى   بلغتنى الأيامُ شرَّ بلاغ .

* * *

غاض منه ماءُ الحياة فبادَتْ   حذرًا من سِنانِكَ اللّدّاغ
غَمّ أعداء لا بَرِحْتَ بملك   آمنا من شوائب الارتياغ .

(ف)

فتَنْك اللواحظ والقدود الهيف   أغْرَى السُّهاد بطَرْفِىَ المطروف
فجهلت تضعيف الجفون ؛ وإنما   ضُعّف القلوبِ بذلك التضعيف .

* * *

فُهْنَا بنظم حديثه مع أننا   ما إن نرومُ به سوى التشريف
فزنا به الفوز العظيم من الردى   وأمِنَّا فى مَغْنَاهُ كل مخوفٍ .

(ق)

قِفِى وَدّعينا قبل وَشْك التفرق   فما أنا مَن يَحْيا إلى حين نلتقى
قضيتُ وما أودَى الحِمامُ بمهجتى   وشِبتُ وما حلَّ البياض بمَفْرِقِ .

* * *

قليلٌ إلى أرض العراق تطلعى   وجودُكَ قَيْدٌ بالمكارم مُوثِقِ .
قَنَتْ بمغناك الحوادثَ إذْ رأتْ   بِحَبْلِك من دون الأنام تعلّقى .

(ك)

كُفِّى القتال وفُكِّى قَيْد أَسْراكِ يَكْفيك ما فعلتْ بالناس عيناكِ
كلَّتْ لِحاظكِ مما قد فتكتِ بنا ، فمَن تُرَى فى دم العُشَّاق أفتاك ! .

* * *

كَفَيْتَنَا منكَ مَنًّا لو وُصِفت به لَظُنَّ ذلك منا نوْعَ إشراك
كذاك لازلتَ تكفِى كل ذى جَسدٍ فَتْكَ الخطوب بعزمٍ منك فتَّاك .

(ل)

لم أدْرِ أن نِبال الغُنْج والكَحَل تحبت السوابغ تُصْمِى مُهجةَ البطل
لعل طرفك من أسمائه ثُعَلٌ كذلك الرمىُ منسوب إلى ثُعَل .

* * *

لو كان مِثلك موجودًا نَظمت به أضعافَ ما نظموا فيه ذَوُو الطَّوَل
لك الولاية ، فارْقُدْ فى علاك على هام السِّماك بِعِزٍّ غيرِ منتقل .

(م)

مَغانمُ صَفْوِ العيش أَسْنَى المغانم هى الظلُّ إلا أنه غيرِ دائم
مَلكتُ زِمَامَ العيش فيها ؛ وطالما رَفعت بها أُولَى وقوع الجوازم .

* * *

مشيْنا ، ولو أنَّا وَفَيْنَا بِحَقِّه مَشَيْنَا على الأحداق دُون المناسِم
مَدَى الدهرِ لا زالتْ تحُج بنا الرَّجا إليه ، وتحظى بالغِنى والغنائم .

(ن)

نعَمْ ، لقلوبِ العاشقين عيون يبَيِنُ لها مالا يكاد يَبِين
نظرْنا بها ما كان قبلُ من الهوى فدَلَّ على ما بعدها سيكون

* * *

نَعِمْت ، ولا زالتْ ربوعُك جنة فمَغْناك حِصْنٌ للعفاة حَصِين
نَهَبْت الثنا والجود والمجد والعلا ونِلت الأَمانى ، والزمانُ سُكون .

(ه)

هل علم الطيفُ عند مَسْراه أن عيون المحب ترعاه ؟
هَيج أشواقنا بزَوْرَتِه ثم انثنى والقلوب أسراه .

* * *

هَويتُ طِيبَ الثنا ، فلا برحتْ تُحْدَى إلى نحْوكم مطاياه ؛
هَبَّتْ إلى مدحكم جوارِحُنا فكلُّها بالثناء أفْواهُ .

(و)

وحَقِّكَ إنى قانع بالذى تَهْوَى وراضٍ ولو حملتَنى فى الهوى رَضْوَى
وهبتُك روحي فاقضِ منها ولا تَخفْ لأن عِنانى نَحْوَ غيرك لا يُلْوَى .

* * *

وأَوْردنا من جود كَفَّيْه نِعمة وصير جَنَّاتِ النعيم لنا مَأْوَى
وحَسْبِى من الأيام أنى بِظِلِّه وَلِى جُودُه مَحْياً ، ولى رَبْعُه أَحْوَى .

(لا)

لا نِلْتُ من طِيبِ وَصْلِكم أَملَا إنْ أنا حاولت عنْكمُ بَدَلَا !
لا كان يوماً يدومُ ، غيرَكمُ قلب على فَرْطِ حُبِّكم جُبلا !

* * *

لأجْلِ ذا أَنْجُمُ العُلا طلعت به ، ونجم الضلالِ قد أَفَلَا
لأَرْبُعُ المجدِ منك آنسةٌ فلا خَلَا رَبْعُها ولا عطِلا !

(ى)

يا هلالًا من « سُلطةِ العِيِّ » حيِّى   أشرق الصبح تحت ليل دَجِيِّ
يوسُفِيُّ الجَمال ، كمْ تاهَ صَبٌّ   فى معـانى جماله اليوسُـفِيِّ !

* * *

يتّقِى الهَوْل منه طَوْرًا ، وطوْرًا   جُودُه سَعْدٌ لكل شَقِىٍّ !
يَقْسِمُ الدُّولَ بالسَّطا والقطايـا   بين يَـوْمَىْ إقامـة ومَطِىِّ

* * *

نقلا عن كتاب « دُرر النحور ، فى امتداح الملك المنصور » المنشور ضمن ديوان صفى الدين الحلى ، طبعة بيروت بتحرير كرم البستانى ١٩٦٢ م

بمكتبى بمجمع اللغة العربية

نائب رئيس المجمع

محمد مهدى علام

المشرف على المجلة

بحوث ومقالات

المعجم العربي: متى يستكمل؟
دعوة إلى عمل
للأستاذ محمد شوقي أمين

١ - أرى -- ولا يسعني إلا أن أرى -- أن المعجم العربي لم يستكمل بعد. وربما كان هذا القول مثار للعجب أول وهلة؛ فالمعجمات عشرات: مؤتلفات ومختلفات على تعاقب العصور فلا يكاد يخلو عصر جديد؛ من معجم يزيد. ولكني أرى أن هذه المعجمات على كثرتها وتنوعها هي التي بما حوت توحي بهذا السؤال: متى يتاح للمعجم العربي الاستكمال ؟.

٢ - نشأت المعجمات اللغوية وسائل قصارا في موضوعات خاصة كالنخل والإبل واللبأ واللبن والريح ثم تعاقبت المعجمات إما «حرفية» مع التباين في الترتيب والتنسيق؛ وإما «موضوعية» خاصة أو عامة. وأشهر «الحرفي» الجمهرة والصحاح والأساس وأشهر «الموضوعي» فقه اللغة والمخصص. والأساس في تأليف هذه المعجمات في جملتها هو الاقتصار على ماصحت روايته من مأثور اللغة في عصور الاستشهاد، وهي في المتعارف حتى القرن الثاني في الحواضر والقرن الرابع في البوادي ومن ثم كانت هذه المعجمات تمثل نقاء اللغة وفصاحتها قبل اختلاط الألسن وفشو اللحن وشيوع الرطانة.

على أن المعجمات التي ألفت في العصور الوسطى أضافت إلى ماحوته المعجمات الفصاح بعض المولد من ألفاظ الحياة أو من مصطلحات المعارف العامة ولعل أبرز هذه المعجمات بهذا الجانب المضاف معجم «لسان العرب» ومعجم «تاج العروس». فأما ماجرت به أقلام كتاب العربية في مؤلفاتهم الداخلة في أصناف العلوم والفنون والآداب على كثرتها وتنوعها في العصور المتوالية فلم تتضمن المعجمات كلها من ذلك إلا النزر اليسير ونسبته لاتكاد تبلغ العشر. ومعنى ذلك أن ألفاظ الحضارة العربية المتمثلة في شتى دروب المعرفة والتي احتوتها كتب التراث العربي وهي ألوف لم تسجل في معجم جامع أو في معاجم مستقلة متخصصة وينتج من ذلك أن المعجم العربي الذي بين أيدينا يقتصر من الألفاظ على الفصيح المأثور وإلى جانبه بعض المولد في مختلف

الأحقاب . وإذن يحق القول بأن المعجم العربي لم يستكمل بعد .

٣ – لايفوتني أن الأقدمين استبان لهم ذلك فعالجوا الأمر بتأليف كتب شبه معجمية تتصيد من المصطلحات مايستطاع ؛ ومن أمثلة ذلك تعريفات الجرجاني ومفتاح العلوم للخوارزمي ، وأبجد العلوم لصديق حسن خان ؛ وكشاف اصطلاحات العلوم للتهانوي ؛ وكليات أبي البقاء واصطلاحات الصوفية للكاشاني . ولكن هذه الكتب على جلالة قدرها وجزالة فائدتها يرد عليها أمران : الأمر الأول أنها لاتستوعب كل أنواع المعارف والعلوم ؛ والأمر الثاني أنها لاتستوعب كل مصطلحات الدائرة العلمية التي تخصصت فيها ، وثمة أمر ثالث يرد عليها وهو أنها ألفت في عصور متقدمة وقد جد بعد تأليفها من المصطلحات في موضوعاتها أضعاف ماحوته مضامينها . فهي في الواقع مادة معاونة ، وليست عملا مستكملا أو شبه مستكمل :

٤ – أضيف إلى ذلك أن مؤلفا معجميا متأخرا هو الزبيدي كان حريصا في « تاجه » على تسجيل المستدرك عقب كل مادة من مواد معجمه وبلغ من بره بالشائع المتعارف أنه سجل كثرة كاثرة من جديد الألفاظ المعاصرة له حتى إنه لم يبخل على العامية المصرية التي عايشها بتسجيل بعض مايدور فيها من ألفاظ ومصطلحات .

٥ – أضيف إلى ذلك أيضا أن الحُذاق من المحققين لكتب التراث كانوا يتفطنون إلى ورود ألفاظ لاوجود لها في المعجمات المتداولة فكانوا حراصا على أن ينبهوا عليها في قوائم يزيلون بها كتب التحقيق ومن بين هذه النوائم مايرجع إلى عصور الاستشهاد ومنها مابعد من المولد فيما تلى من العصور .

٦ – كل ما أسلفته من أعمال في نطاق التحصيل للمولد في عصور العربية التي تزيد على عشرة قرون لايبلغ قدرا من الكفاية للاطمئنان إلى أن لغة الحضارة العربية خلال تلك القرون حاصلة في اليد يمكن الرجوع إليها كما يمكن الرجوع إلى المأثورة من الفصيح في عصور الاستشهاد . حسبي أن أذكر من الأمثلة كتاب المنتظم لابن الجوزي والسلوك للمقريزي ونهاية الأرب للنويري وصبح الأعشى للقلقشندي وعجائب الآثار للجبرتي ، وذلك لأقرر أن في هذه الكتب وفي عشرات من أمثالها ألفاظا ومواضعات مولدة عبرت عن جوانب الحياة في عصورها على حين أن المعجمات العامة أو المتخصصة قديمها وحديثها لاتستطيع الاتفاق على مدلولاتها كما أراد لها واضعوها في عصور التاريخ . ولعل ذلك ماحدا بمستشرق هو (دوزي) إلى تأليف كتابه تكملة المعجمات العربية وهو على ما بذل فيه من جهد ليس إلا نقطة عجلان ونهلة

ضدها ومن ثم كان غناؤه غير كبير. وفيما أذكر أن لغوى العراق مصطفى جواد حدثنى بأنه عاكف على تأليف معجم يسميه (المستدرك) وهو يشتمل على ما استطاع جمعه من ألفاظ وعبارات تضيف إلى معجم العربية المئات بعد المئات. إن من هذه الألفاظ مايثبت فصاحة الكثير مما ينكره نقاد اللغة ومنها مايعرف بالكثير من المولد الذى لاتأباه سنن العربية وأوضاعها فى التصريف والاشتقاق.

وأشير هنا على استحياء إلى أن هناك من أعرفه معرفتى بنفسى اتجهت همته منذ عشرات الأعوام إلى تأليف ماسماه: (فائت المعجمات) وأنه جمع من ذلك جملة وافرة من الجزازات أعد لها صندوقها ومنذ فترة طويلة حالت الشواغل دون المواصلة ويعلم الله ماذا يكون مصيرها من بعده.

٧ – ليس ما أمليه الآن بحثا، ولكنه دعوة إلى عمل، ولولا قصور الصحة وتعذر الرجوع إلى المصادر والأصول، لملأت صفحات وصفحات من الدلائل والأمثلة على ضرورة سد هذه الثغرة من الثغرات فى معجمنا العربى العزيز علينا وعلى التاريخ. على أنى بهذه الدعوة إلى استكمال المعجم العربى لست أدعى ما ادعاه الديك الفصيح حين زعم لمن حوله أنه بصياحه فى ساعة السحر يوقظ الفجر ويطلع الشمس فإن الفجر طالع ونور الشمس ساطع، فما ينبغى أن تمتد السبات.

المجمع اللغوى الذى صحبته ما زاد على نصف قرن كان أفطن أهل عصره إلى هذا الموضوع فقد اعتنى به فى جوانب ثلاثة:

الأول: جانب تشريعى والثانى: جانب تقريرى والثالث الأخير: جانب تطبيقى.

أما الجانب التشريعى فهوأن مرسوم إنشاء المجمع – أول أمره – جعل من الأغراض المجمعية تأليف معجم لغوى تاريخى ومفهوم ذلك أن يشرع المجمع فى وضع معجم يجمع ألفاظ العربية ويدل على تطورها صياغة ومعنى بحسب ترادف العصور وطوعا لاختلاف العلوم. وقدكان الظن بادئا أن معجم «فيشر» يسد ذلك المسد ولكن معجم فيشر توقف وإن كان على فرض اتصاله لايسجل إلا تطور المأثور فى عصور الاستشهاد فلا شأن له بما نشأ بعد القرن الرابع على الأكثر. وعلى ذلك يعتبر الغرض المجمعى هو إنشاء معجم لغوى تاريخى ما زال ينتظر على الأبواب.

والجانب الثانى أن المجمع أصدر قرارا باستخراج المصطلحات من الكتب العربية القديمة وتلاه قرار آخر يؤكده، وكلا القرارين واضح الاتجاه إلى ما أدعو إليه.

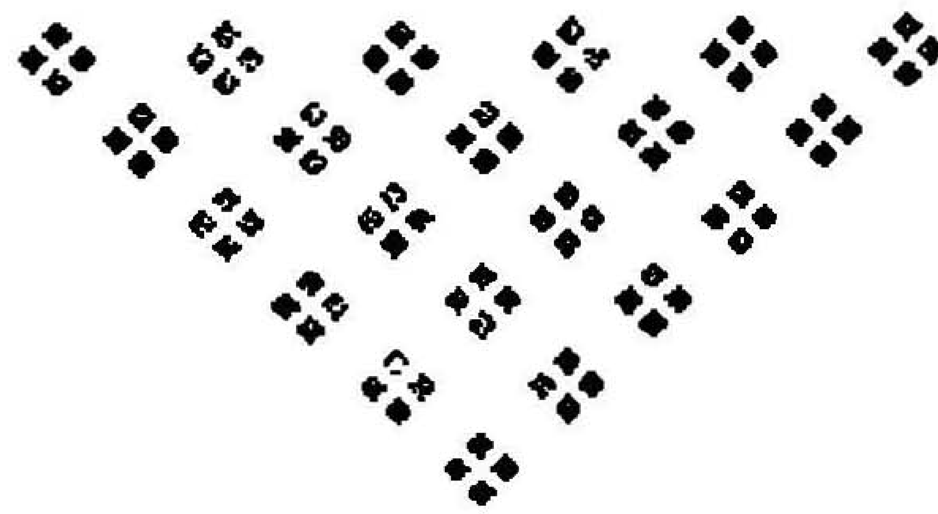
فهو فى القرار الأول يطالب بالنظر فى اختيار مختصين بشئون العلوم العربية لإخراج المصطلحات العلمية القديمة من الكتب العربية.

وهو فى القرار الآخر يطالب بدراسة كتب التراث القديمة المتصلة بالمصطلحات العلمية وعمل معجم لمصطلحات كل كتاب منها .

والجانب الثالث التطبيقى هو ماقدمه أعضاء المجمع على توالى السنين من بحوث تتصل بهذا الموضوع أوثق الاتصال ويكفى أن أذكر من أمثلة ذلك عرض مصطلحات الحسبة وعرض مصطلحات الحرف والألفاظ الأيوبية ومصطلحات الأدب والتربية ومصطلحات قانون ابن سينا . إلى غير ذلك مما يدخل فى هذا الموضوع . مع هذه الجوانب الثلاثة هناك مناقشات ومحاورات ورغبات كلها تنصب على مس الحاجة إلى الوقوف على ألفاظ الحضارة العربية فى عصورها التوالى . ولكنها لم تختمر لكى تنتقل إلى مرحلة عملية اللا بخار .

٨ — بهذه الكلمات الخاطفة أختم دعوتى إلى أن يكون للمجمع عمل فى هذا الموضوع الجليل الشأن ؛ فإن نصف قرن يمضيه المجمع وفى خلاله تتواصل القرارات والدعوات والبحوث وإن كانت فردية فرعية، جديرة بأن يحفز إلى اتخاذ خطة إيجابية للشروع فى استكمال المعجم العربى جوابا عن السؤال : متى يتاح للمعجم العربى الاستكمال ؟

محمد شوقى أمين
عضـــو المجمع



اللغة العربية
فى مؤسسات التعليم العام والتعليم العالى
ووسائل النهوض بها فى مصر

للدكتور محمود حافظ

شهدت مصر فى السنوات الأخيرة قلقا بالغا لدى المشتغلين بأمور الثقافة والتعليم فى مصر عن مستوى اللغة العربية الذى بلغ درجة من الضعف والاستهانة تبدت فى جميع مراحل التعليم العام والتعليم العالى وأشاعت الألم والحسرة بين سدنة اللغة العربية والقائمين عليها ولا يكاد يمر يوم دون أن تتصدى أقلام لمأساة اللغة العربية فمن قائل إن مجرد إلقاء نظرة عابرة على أوراق إجابة التلاميذ وكذلك الطلبة فى الجامعات يجعلنا نقف على حال اللغة العربية فى مدارسنا ومعاهدنا وجامعاتنا بل وفى كل مناحى حياتنا من هبوط مستواها ومعرفة متدنية بها .

وفى ربع القرن الأخير وما قبله كانت اللغة العربية هى اللغة الفصحى وكان معتنى بها تدريسا وتلقينا وكتابة وإذاعة وأصبح الآن بين اللغة ودارسيها والناطقين بها جفوة صارمة وحلت محلها اللغة الدارجة أو خليط بين الفصحى والعامية — حال يجعلنا نأسى حقا ونحن نرى المستوى اللغوى والثقافى يترنح على الألسنة صباح مساء — ومن قائل آخر إن اللغة العربية المعاصرة بجانب ما هى فيه من المحنة فإنها تعانى اليوم من أزمة حادة تتمثل فى عزلة اللغة العربية بمفرداتها وكلماتها وأصالتها عما يجرى اليوم على الألسنة فى كل مكان فالكثير مما نأكل وما نلبس وما نتداوى به وما نستخدمه من أدوات الصناعة والزراعة ومختلف الفنون وما يقع عليه بصرنا وما تسمعه آذاننا وما تلمسه أيدينا مستورد أو مصنوع بلفظه الأجنبى ويطلبه الناس بلفظه الدخيل على اللغة وأصبح كل ذلك جزءا من حياتنا وتلك هى الخطورة الكامنة التى تحدق باللغة العربية والتى تدعو اليوم إلى وقفة صارمة قبل أن تصبح اللغة العربية غريبة بيننا .

لماذا يجب الاهتمام باللغة العربية :

لست فى حاجة إلى القول إن اهتمامنا باللغة العربية ينبع من عقيدة دينية ثم من عاطفة وطنية وقيم حضارية وضرورات اجتماعية — هى وعاء الفكر ووسيلة الاتصال والتفاهم ورابطة القومية — هى اللسان المبين الذى حفظه الله مع الذكر الحكيم وهو الوعاء الذى يحوى خبرات أهلها وتجاربهم ومعارفهم وفنونهم

ومثلهم العليا وسائر ضروب ماتنتجه قرائحهم والذى يحفظ كل ذلك من جيل إلى جيل عبر العصور — واللغة العربية إلى هذا كله الأداة الأساسية التى نستخدمها فى نقل مختلف العلوم والفنون والمعارف إلى الناشئة فى مراحل تعليمهم العام والعالى والجامعى وهى كذلك أداة نشر الثقافة بأوسع معانيها وتراثنا وحضارتنا عن طريق مختلف وسائل الاعلام كما هى الأداة التى يستخدمها الإنسان فى تثقيف نفسه بنفسه وفى تعلمه الذاتى مدى حياته — ومن هنا تبدو أهمية اللغة العربية وأهمية تعلمها وتعليمها لا باعتبارها مادة دراسية مقررة فحسب ولكن باعتبارها محورا أساسيا فى بناء الإنسان بكل جوانبه ومحورا للعملية التعليمية فى كل مراحل التعليم ومحورا للنشاط الإنسانى فى المجتمع وفوق كل ذلك الاعتبار الدينى فكل شعائر الإسلام وأركانه تدعو إلى تعلم اللغة العربية ثم كان القرآن الكريم الباعث إلى أكثر العلوم العربية الخالصة سواء العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه وتشريع أو العلوم الدنيوية من نحو ولغة وبلاغة وغيرها وقد حمل الأزهر الشريف فى مصر هذه الرسالة السامية أكثر من ألف عام .

وعن عظمة اللغة العربية وعبقريتها ما شهد به المستشرقون المنصفون فقد قال المستشرق جرونباوم فى مقدمته لكتاب تراث الإسلام لأن اللغـــة العربية هى محور التراث العربى الزاهر — وهى لغة عبقرية لا تدانيها لغة فى مرونتها واشتقاقها وهذه العبقرية فى المرونة والاشتقاق اللذين ينبعان من ذات اللغة جعلتها تتسع لجميع مصطلحات الحضارة القديمة بما فيها من علوم وفنون وآداب وأتاحت لها القدرة على وضع المصطلحات الحديثة لجميع فروع المعرفة — كما يقول المستشرق الألمانى بروكلمان الذى أرخ للفكر والتأليف العربيين فى العصر الجاهلى حتى الآن فى سلسلة كتبـــه الشهيرة « تاريخ الأدب العربى » يقول إنه بفضل القرآن بلغت اللغة العربية من الاتساع مدى لاتكاد تعرفه أى لغة أخرى .

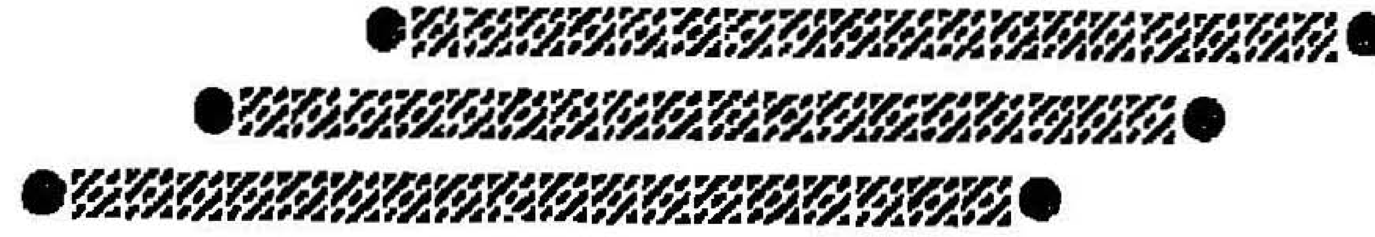
لمحة تاريخية عن اللغة العربية فى مصر :

عرفت مصر اللغة العربية بعد الفتح العربى إبان القرن السابع الميلادى (عام ٦٤٠ م) وعندما دخلها العرب كانت اللغتان القبطية واليونانية سائدتين فى البلاد وقد استقدم الفاتحون معهم مترجمين للتفاهم مع أهل البلاد ذلك الوقت وقد استمر الحال على هذا المنوال قرابة قرن من الزمان إلى أن صدر أمر بإحلال اللغة العربية فى الهيئات الحكومية وابتدأت اللغة العربية تتغلغل فى البلاد مع انتشار أهلها — ووفد على مصر بعض العلماء العرب الذين كتبوا وألفوا بالعربية مثل ابن يونس (ولد فى مصر) فى القرن العاشر والبغدادى فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر وغيرهما — وقد عاشت اللغة العربية مع اللغة القبطية عدة قرون فى مصر إلا أن هذه الأخيرة

أخذت تنحسر رويدا رويدا بحلول أواخر القرن الثامن عشر وكانت العربية قد استقرت وعم استعمالها فى مصر كلها .

وفى أوائل القرن التاسع عشر بدأ الحكم التركى لمصر وتعصبت العناصر التركية التى تولت الحكم للغتهم وتخلف تعليم اللغة العربية وشاعت العامية حتى فى المكاتبات الرسمية ثم جاء الاحتلال البريطانى (١٨٨٢) وقصر اهتمامه على المرحلة الابتدائية من التعليم فتراجعت اللغة العربية إلى معقلها بالأزهر ودار العلوم وأخذ المحتلون يحاربون اللغة ويفرضون لغتهم على مواد التعليم كله لتجذب المتعلمين بها إلى حظيرة ذوى الثقافة الإنجليزية ورأوا أن إحلال العامية المصرية محل اللغة العربية قد يحقق مآربهم فنادوا بذلك صراحة وقد أثار ذلك الشعور الوطنى الذى ظل يعتمل فى صدور الوطنيين المخلصين من قادة الشعب إلى أن قامت ثورة عام ١٩١٩ وصدر فى أعقابها دستور ١٩٢٣ فأعاد سعد زغلول بجرة قلم اللغة العربية لغة للتعليم فى جميع المدارس الحكومية ثم لإخضاع التعليم الأجنبى للإشراف المصرى ومحاربة الدعوة إلى استخدام العامية — وتقلص بذلك نفوذ دنلوب وغيره من المستشارين البريطانيين الذين كانوا نكبة على التعليم بصفة عامة وعلى اللغة العربية بصفة خاصة .

وبدأت بعد ذلك نهضة علمية وتعليمية تمثلت فى إنشاء الجامعة المصرية عام ١٩٢٥ والتوسع فى إنشاء المدارس الابتدائية والثانوية والمعاهد العليا ثم أنشىء مجمع اللغة العربية عام ١٩٣٢ فكان نصرا كبيرا للغة العربية والحفاظ على سلامتها والعمل على أن تكون وافية بمطالب العلوم والفنون فى تقدمها ملائمة لحاجات الحياة فى العصر الحاضر .



اللغـة العربية فى التعليم العـام فى مصر

الوضع الحالى بالنسبة لتعليم اللغة العربية :

اهتمت مصر فى ربع القرن الأخير وقبل ذلك بسنوات بالتعليم العام فزاد عدد المدارس وانتشرت فى كل رجا من الأرجاء فى الحضر والريف على حد سواء — وفى العام الدراسى ١٩٨٥ / ١٩٨٦ بلغ عـدد المـدارس الحكومية فى المراحل المختلفة من التعليم العام تدائية وإعدادية وثانوية وفنية ١٧٥٨٦ مدرسة وبلغ عدد الطلاب فى هذه المراحل يضاً ٩،١٧٨،٧٩٢ طالباً وطالبة وقـد تضخم عدد الطلاب فى المدرسة الواحدة إلى نحو ألفين (٢٠٠٠) وبخاصة فى المرحلة الثانوية الأمر الذى يعوق عملية الإشراف والإدارة السليمة كما ارتفعت كثافة الفصول المدرسية حيث يصل العدد فيها إلى ستين (٦٠) تلميذا الأمر الذى يؤثر سلبياً على العملية التعليمية ومستوى الأداء .

وتتصدر اللغة العربية مناهج الدراسة فى هذه المراحل من التعليم العام ويقوم بالتدريس عدة آلاف من المدرسين من ذوى المؤهلات والمستويات المختلفة مما سنعرض له فى حينه ولكن الحقيقة الملفتة للنظر فى هذا المقام أن العجز فى مدرسى اللغة العربية فى مراحل التعليم العام عدا المرحلة الابتدائية (الإعدادى والثانوى العام والثانوى الفنى ودور المعلمين والمعلمات) طبقاً لإحصائية ١٩٨٦/٨٥ يبلغ ١٢،٧٤٢ مدرساً ومدرسة وذلك أيضاً له أثره وانعكاساته على العملية التعليمية .

المشكلات الأساسية فى تعليم اللغة العربية :

يجابه تعليم اللغة العربية فى مراحل التعليم العام فى مصر فى الوقت الحاضر ومنذ سنوات عدة مشكلات أو صعوبات نتناولها فيما يلى :

أولا : معلم اللغة العربية وضعف مسـتواه واعـداده :

على الرغم من تقدم الوسائل التكنولوجية الحديثة واستخدام المواد التعليمية المبرمجة فى تعليم اللغة إلا أن المعلم كان وما زال وسيظل أساساً مكيناً من أسس العملية التعليمية والتربوية ولا شك أنه يحتل قلب المشكلة أو حجر الزاوية فيها — ومن الملاحظ فى مصر أن معلمى اللغة العربية يتم إعدادهم فى الوقت الحاضر فى عدد من الكليات هى كلية دار العلوم وكليات اللغة العربية بجامعة الأزهر وأقسام اللغة العربية بكليات الآداب وأقسام اللغة العربية بكليات التربية — وكانت دار العلوم منذ إنشائها من أهم الينابيع التى تزود التعليم العام فى كل مراحله بمدرسى اللغة العربية وكانوا مؤهلين تأهيلا كاملا لتدريس هذه اللغة إذ كانوا مزودين فى مراحل تعليمهم السابقة بأسس قوية تتمثل فى حفظ

(٥) ألقيت هذه المحاضرة فى السبت ١٩ / ٤ / ١٩٨٨ فى افتتاح الموسم الثقافى لمجمع اللغـة العربية الأردنى بعمان .

القرآن الكريم والدراسات الدينية والعربية العميقة — ولكن بعد انضمام كلية دار العلوم إلى جامعة القاهرة أصبحت تستقبل طلابها من حملة الثانوية العامة من ذوى المجاميع المنخفضة فأدى ذلك إلى ضعف مستواهم فى اللغة العربية وكذلك أصبح الحال بالنسبة لطلاب أقسام اللغة العربية وخريجيها فى الكليات الأخرى ومما يزيد الحال سوءاً أن الغالبية العظمى من هؤلاء الخريجين يوجهون إلى تدريس اللغة العربية دون تأهيل تربوى ودون تدريب على طرق التدريس .

ومن المشاهد أيضاً ضعف إقبال الطلبة على كليات اللغة العربية وأقسامها بالجامعات المصرية وقبول أقل الطلبة مجموعاً سداً للحاجة كماً لا كيفاً — الأمر الذى أدى إلى عجز ظاهر فى مدرسى اللغة العربية اللازمين لمراحل التعليم العام وضعف مستواهم وقد زاد المشكلة حدة الأعداد الكبيرة التى تعار للتدريس فى الأقطار الأخرى وهؤلاء يتم اختيارهم من أكفأ العناصر وأكثرها خبرة — وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن تعدد الكليات التى يتخرج فيها معلمو اللغة العربية أدى إلى عدم التناسق بين المناهج والمقررات الدراسية بهذه الكليات واهتمام أغلب هذه الكليات باللغة كلغة وعدم اهتمامها باللغة ومكوناتها كجزء لا يتجزأ من حياة الإنسان فى مراحل نموه المختلفة وفى مستوياته الحضارية المتباينة وغنى عن البيان أن اللغة كالكائن الحى تتأثر بالبيئة والمناخ الذى تحيا فيه وهى تنمو وتتطور فى مضمون صورها فتخشن فى ظل البداوة وترق وتلين فى ظل الترف والمدنية وتتأثر برقى الثقافة وتقدم العلوم والمعارف .

ثانيا : ازدواج اللغـة :

وهذه أيضاً تمثل مشكلة فى تعليم اللغة العربية فهناك لغة التخاطب أو العامية التى يتعامل بها الناس فى حياتهم اليومية العامة والخاصة وهناك لغة الكتابة فى معاهد التعليم وفى الكتب والصحف وغيرها من المجالات — ولا شك أن للغة التخاطب تأثيرها القوى بما تتمتع به من نفاذ وأداء وسعة انتشار وتلقائية ومزاحمة للغة الفصحى فى وسائل الإعلام وهذه تغزو الصغير والكبير وتحاصر المتكلم فى كل بيت بل فى كل فصل من فصول الدراسة فى المدارس والمعاهد وغيرها من مجالات الحياة المختلفة .

ثالثا : مشكلات وصعوبات اخرى :

وهى تتمثل فى :

(١) افتقار كتب القراءة إلى التدرج اللغوى والتخطيط العلمى السليم لها حتى ينتقل فيها التعليم انتقالا طبيعياً من خطوة إلى الخطوة التى تليها .

(٢) عدم توافر معجم لغوى حديث لأى مرحلة من مراحل التعـليم العـام

(٣) عدم توافر مواد القراءة الحرة للتلميذ فى مختلف المراحل وبخاصة فى مرحلة الطفولة ويتصل بذلك قلة العناية بالمكتبات المدرسية واختيار الكتب الصالحة والمشوقة .

(٤) ازدحام مناهج النحو بكثير من القواعد مع صعوبتها .

(٥) اضطراب المستوى اللغوى بين كتب المواد بل بين كتب اللغة العربية فى الصفوف المختلفة .

(٦) قلة الاهتمام بين مدرسى اللغة العربية وغيرهم من مدرسى المواد الأخرى باستخدام اللغة العربية الصحيحة فى تدريسهم .

(٧) قلة استخدام الوسائل والمعينات التعليمية الحديثة فى تعليم اللغة .

هذه هى أهم المشكلات أو الصعوبات التى تواجه اللغة العربية وتعليمها فى مصر فى الوقت الحاضر وتحتاج إلى تضافر الجهود وإلى إجراء الدراسات العلمية الجادة فى جميع الهيئات والمؤسسات والجامعات التى تعمل فى مجال تعليم اللغة العربية وذلك للنهوض بها وارتقائها — وتجدر الإشارة هنا إلى الدور البناء الذى يقوم به مجمع اللغة العربية بالقاهرة والمجامع العربية الأخرى فى هذا المجال ويرى البعض ضرورة إنشاء مركز لتطوير تدريس اللغة العربية أسوة بمراكز تطوير اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

اعتبارات هامة فى تدريس اللغة العربية :

هناك أمور أو اعتبارات هامة فى تدريس اللغة العربية وتعليمها لا تلقى العناية الكافية ويجب الأخذ بها للنهوض باللغة العربية ومن هذه الاعتبارات :

١ — أن يستقر فى أذهان القائمين على تدريس اللغة العربية والمخططين لمناهجها الدراسية وأهدافها أن اللغة العربية عنصر أساسى من مقومات الأمة والشخصية العربية وأنها لغة القرآن الكريم والتراث الحضارى الإسلامى وأنها وعاء للمعرفة بكل جوانبها ووسيلة للتفكير والتعبير ولا تكون مجرد مادة مستقلة بذاتها للدراسة وأن ترتبط بالمجتمع وتتفاعل معه لتكون أداة سهلة وطيعة للتعبير عن مشكلاته وقضاياه القومية .

٢ — أن يكون البدء بتعليم اللغة عن طريق نقل الطفل أو التلميذ فى المرحلة الأولى من مراحل التعليم العام نقلا رفيقا متدرجا من لغته المختلطة إلى اللغة السليمة بعناصرها الأساسية الأربعة وهى الحديث والاستماع والقراءة والكتابة ويكون ذلك عن طريق المران والتدريب والاستخدام مع الإفادة من القدر المشترك بين العامية والفصحى ومع ترقية العامية إلى الفصحى فى تدرج وفى رفق (مثل : حنسأل تصبح سنسأل ، كدا تصبح كذا ، ده تصبح ذا أو هذا) ومعنى

هذا أن هناك هدفين يجب العمل على تحقيقهما أحدهما تشجيع استخدام القدر المشترك بين العامية والفصحى وثانيهما ترقية العامية بردها في ذهن التلميذ إلى أصولها العربية ما أمكن ذلك وعن طريق المران أيضا ننقل التلميذ رويدا رويدا الى التشكيلات السليمة فى اللغة الفصيحة .

٣ – تنمية الميل للقراءة والاطلاع كهدف أساسى من أهداف التعليم بل وسيلة تعليم الإنسان نفسه بنفسه .

٤ – ضرورة التخطيط لكتب القراءة فلها في كل مرحلة من مراحل التعليم العام وظيفتها ففى المرحلة الأولى على سبيل المثال يكتسب التلميذ عن طريقها المهارات الأولية ثم تزداد التراكيب فى علاقاتها ومستوياتها مسايرة نضج التلميذ وخبرته ويزداد تبعا لذلك المحصول اللغوى عند التلميذ .

٥ – لا بد من التنسيق بين مناهج اللغة العربية فى مراحل التعليم العام الثلاث لإيجاد تكامل دقيق يوحد غايتها ويراعى تدرجها ويوجه طريقة التدريس فيها ويحميها من التكرار كما ينبغى ان تعكس هذه المناهج مفهوم الحياة فى البيئة وأن تترك للمدرس مجالا للتجديد والابتكار .

٦ – مراعاة التنسيق أيضا فى تأليف كتب اللغة العربية للمراحل الثلاث بحيث تؤلف الكتب وحدة متصلة تحقق أهداف كل مرحلة بطريقة متوازنة من ناحية التركيز أو الإسهاب أو البساطة أو التعمق وغزارة المادة أو قلتها وتعدد الأمثلة أو ندرتها إلى غير ذلك من عناصر تأليف الكتب المدرسية ويكون الكتاب فى كل مرحلة قادرا على جذب انتباه الطالب مثيرا للمكاتة حتى يحبه ويألفه ويأنس إليه .

٧ – ضرورة إيجاد تكامل بين تدريس اللغة العربية وتدريس المواد الأخرى من حيث الحرص على استخدام اللغة الفصحى فى جميع مواد الدراسة .

٨ – العمل على تيسير قواعد النحو للمراحل الثلاث وكذلك الرسم الإملائى لكل مرحلة من هذه المراحل .

٩ – الارتفاع بمستوى مدرس اللغة العربية وتأهيله علميا وثقافيا ولغويا وتربويا .

اللغة العربية فى التعليم العالى والجامعى فى مصر :

إذا كانت اللغة العربية فى التعليم العام قد أقلقت بال القائمين عليها وشغلتهم إلى حد كبير لما بلغته من الضعف والاستهانة فإن حالها فى التعليم العالى والجامعى هو بمثل السوء إن لم يزد عليه ويتردى يوما بعد يوم ؛ لذلك كان الاهتمام باللغة العربية والنهوض بها واتخاذها سليمة فصحى لغة للعلم والتعليم فى هذه المرحلة العالية من التعليم مضاعفا .

وقد كانت مصر بين الدول العربية التى تخطت عوائق اللغة منذ أمد طويل واستمسكت بلغتها العربية القومية فى تعليمها العالى الحديث منذ بداية إنشائه فقد نصت لائحة الجامعة المصرية الأولى (الأهلية) الصادرة فى عام ١٩٠٨ على أن تكون لغة التعليم فيها « هى اللغة العربية دون سواها لتكون واسطة لنشر المعارف وترقية العلوم بين الناطقين بالضاد ولكى ترتقى اللغة العربية نفسها بهذه الوسيلة » وقد حافظت القوانين المتتابعة لتنظيم الجامعات فيما بعد على روح هــذا المفهوم حيث نصت المادة ١٦٨ من القانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٧٢ المعمول به حاليا على أن « اللغة العربية هى لغة التعليم فى الجامعات الخاضعة لهذا القانون وذلك مالم يقرر مجلس الجامعة فى أحوال خاصة استعمال لغة أخرى » .

ومما تجدر الإشارة إليه ومن قبيل الخلفية فإن جهود مصر فى سبيل نقل العلوم الحــديثة إلى العربية فى التعليم العــالى بغية استعمالها فى التدريس قد بدأت منذ النصف الأول من القرن الماضى حيث عربت كلية الطب والصيدلة فى عهد رئيسها كلوت بك عام ١٨٣٣ ستة وثمانين (٨٦) كتابا أجنبيا فى عدة تخصصات لتعلم الطب والصيدلة وبعد نجاح هذه الكتب فى مصر نجاحا يناسب عصرها وجدت سبيلها كذلك إلى تركيــا والجــزائر وتونس ومراكش

كما قام عدد من المبعوثين الأوائل بعد عودتهم من بعثاتهم بالخارج من فرنسا بالتدريس فى المعاهد العليا باللغة العربية وقدموا إلى مكتبتنا العلمية رصيدا ذا بال من معرباتهم ومؤلفاتهم منهم على سبيل المثال :

الجراح محمد على البقلى الذى ألف كتبا عربية فى الجراحة ، محمد الشافعى فى الأمراض الباطنية ، محمد ندى فى النبات والحيوان والجيولوجيا والفيزياء ، على رياض فى الصيدلة والسموم ، محمد الدرى فى الأمراض الوبائية ، محمد بيومى فى الحساب والجبر والهندسة الوصفية ، محمود الفلكى الذى عاد من بعثته فى فرنسا عام ١٨٥٩ وتقلد بعد ذلك منصب الاستاذية فى العلوم الرياضية والفلكية بمدرسة المهندسخانه . وقد شارك علماء اللغة فى هذه النهضة العلمية فكان منهم خــبراء وعلماء ، متخصصون مثل محمد عمر التونسى مؤلف معجم الشــذور الذهبية فى الألفاظ الطبية ، ابراهيم الدسوقى الخبير فى مصطلحات العلوم الرياضية ، رائد الترجمة إلى اللغة العربية وشيخ المترجمين فى عصره رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ـ ١٨٧٣) فى ألفاظ الحضارة والفنون والعلوم الحديثة وغيرهم .

بعد ذلك توقفت المسيرة ونكبت مصر بالاحتلال البريطانى عام ١٨٨٢ وجثم على صدرها لسنوات عدة وعزلت اللغة العربية عزلا تاما عن تدريس العلوم الحديثة التى

أرض المستعمر دراستها بلغته ومهد لهذا الانقلاب وسايره ترسيخ لفكرة عجز العربية عن تدريس أى علم حديث وملاحقة التقدم العلمى -- وقد روج لهذه الدعوة عدد من المثقفين قبيل الثورة العرابية (١٨٨٢) واحتدم الصراع بين حماة الشخصية القومية الذين يرون فى أن إضاعة اللغة تسليما للذات واستعباداً فكريا وثقافيا ووجدانيا للمستعمر وبين الدعاة إلى لغة أجنبية -- وبقدر ما رفض الضمير الوطنى التخلى عن لغة الأمة والتفريط فى اسانها عجز عن التصدى لفرض اللغة العربية على المجال العلمى -- ولكن لم يقف علماؤنا مكتوفى الأيدى أمام هذا الوضع المثير فقامت دعوة حمل لواءها عبد الله نديم فى مجلة « الأستاذ » عام ١٨٩٢ للمضى فى تعريب المصطلحات العلمية لاستخدامها فى تعليم العلوم الحديثة ووجدت هذه الدعوة استجابة عملية فى اجتماع رأسه محمد توفيق البكرى فى أوائل عام ١٨٩٣ وحضره عدد من أئمة الكتاب والعلماء منهم الشيخ محمد عبده والشيخ الشنقيطى وحمزة فتح الله وحفنى ناصف ووضعوا لائحة لمجمع لغوى علمى وتدارسوا فى سبع جلسات عددا من المصطلحات العلمية -- وفى العام نفسه ظهرت مجلة « المهندس » وقدمت تجربة عملية لكتابة البحوث العلمية باللغة العربية الفصحى دحضا للقائلين بعجزها فى مجال البحث والتدريس -- ثم تتابعت الجهود بعد ذلك فى هذا السبيل إلى أن أنشئت الجامعة المصرية الأولى عام ١٩٠٨ .

انشاء الجامعة المصرية :

كان إنشاء الجامعة المصرية فى تكوينها الأهلى عام ١٩٠٨ وفى تكوينها الحكومى عام ١٩٢٥ فاتحة لنهضة علمية وثقافية حديثة فى مصر وكان التدريس فيها أساساً باللغة العربية التى استعادت مكانتها مرة ثانية وقد استدعت الضرورة فى ذلك الوقت استقدام عدد قليل من العلماء الأجانب والمستشرقين للتدريس بالجامعة فى بعض العلوم وفى الإنسانيات ؛ ولكن كان الخريجون الأوائل من النابهين ومن العائدين المؤهلين من البعثات الدراسية الخارجية يقومون بنقل محاضرات الأساتذة الأجانب إلى اللغة العربية وتلخيصها للطلاب وبخاصة لهؤلاء الذين يتابعون دراساتهم فى العلوم الإنسانية -- وفى السنوات التالية أخذ عدد المصريين العائدين من بعثاتهم بالخارج يزداد ازدياداً مطرداً ولم يلبث هؤلاء أن تولوا مهام التدريس بالجامعة فى معظم الكليات والمعاهد العليا باللغة العربية .

ومع تطور النهضة العلمية والتعليمية ، واتساعها فى مصر فى الثلاثين سنة الأخيرة أصبح لدينا فى مصر فى الوقت الحاضر اثنتا عشرة (١٢) جامعة ولبعض هذه الجامعات فروع إقليمية تضم عدداً من الكليات المتخصصة وإلى أن تكتمل كلياتها ستصبح فى وقت قريب جامعات إقليمية جديدة قائمة بذاتها -- ويبلغ عدد الكليات والمعاهد الجامعية فى مصر مئة وواحداً وسبعين (١٧١) معهداً

وكلية بالإضافة إلى واحد وثلاثين (٣١) معهدا عاليا تابعا لوزارة التربية والتعليم وتحت إشرافها ، كما أن فى مصر الآن نحو مئتين (٢٠٠) من مراكز ومعاهد البحث العلمى — ويبلغ عدد الطلاب فى هذه الكليات والمعاهد نحو ستمائة وخمسين ألف طالب — وبين هؤلاء الطلاب نحو نصف المليون (٥٠٠ ألف طالب) يتلقون محاضراتهم ودروسهم باللغة العربية ، ومن بين هؤلاء أيضاً عدة آلاف يتخصصون فى اللغة العربية وآدابها فى خمسة عشر (١٥) قسماً بكليات الآداب وعشرين (٢٠) قسماً بكليات التربية بالإضافة إلى أقسام أخرى فى كليات البنات بجامعتى عين شمس والأزهر وكلية دار العلوم وكلية اللغة العربية بالأزهر ومعاهد المعلمين والمعلمات — وباستثناء طلاب التخصص فى اللغة العربية فإن باقى طلاب الجامعات والمعاهد العليا الذين يدرسون مقرراتهم باللغة العربية يدرسونها فى علوم التاريخ والجغرافيا والآثار والفلسفة والاجتماع والنفس والتربية والاقتصاد والتجارة والقانون والسياسة والفنون والإنسانيات بصفة عامة وعلوم الزراعة وغيرها وذلك فى كلياتها ، ومعاهدها المعنية . ويقوم بالتدريس لهؤلاء قرابة عشرين ألفاً من أعضاء هيئة التدريس والمعيدين .

ويرى المهتمون بموضوع اللغة العربية والراصدون لحركاتها ومستواها فى التعليم العالى والجامعى فى مصر فى الوقت الحاضر أن واقع الحال يعكس صورة قاتمة تتمثل فيما يلى وقد تردد ذلك فى مؤتمر الإسكندرية الذى عقد فى عام ١٩٨١ عن اللغة العربية وفى غيره من المؤتمرات والندوات :

— شيوع استخدام اللغة العامية فى المحاضرات والمناقشات ولا تستثنى من ذلك دروس اللغة العربية وآدابها .

قلة الاهتمام بدراسة التراث العربى دراسة أصيلة فى فروع اللغة والأدب والنقد والبلاغة ، وكذلك بالدراسات الحديثة فى هذه الميادين .

— تلقين القواعد الجامدة فى دراسة النحو وعدم الاهتمام بالجانب التطبيقى فى تدريسه

— قلة العناية باختيار النصوص الأدبية وبتدريس العلوم اللغوية الحديثة بفروعها المختلفة .

— الاعتماد كلية على الكتاب الجامعى المقرر فى مواد اللغة العربية وآدابها وعزوف الطلاب عن الاطلاع عن المصادر والمراجع الأصلية .

— عدم الاهتمام باستخدام الوسائل السمعية فى تحسين الأداء عند الطلاب .

— عدم الاهتمام بالندوات العلمية فى داخل الكليات والأقسام المتخصصة وعدم رعاية

المواهب الأدبية واللغوية بين الطلاب ، والعمل على تشجيعها .

- قلة الاهتمام برعاية المدرس الجامعي أو العالى المتخصص فى اللغة العربية وآدابها رعاية علمية لرفع كفاءته من حيث ثقافته العامة ووصله بالتراث والتطور الحديث فى فرع تخصصه :

كليات ومعاهد يجرى فيها التدريس باللغة الأجنبية :

من بين مجموع الطلاب الذين يتعلمون فى الكليات الجامعية والمعاهد العليا فى مصر فى الوقت الحاضر توجد نسبة تصل إلى نحو ٢٣٪ ثلاثة وعشرين من المئة من هؤلاء أى ما يقرب من مئة وخمسين ألف طالب يتلقون دروسهم حتى اليوم فى معظم المقررات الدراسية بلغة أجنبية هى الإنجليزية فى كلية الطب البشرى والبيطرى وطب الأسنان والصيدلة وكليات العلوم والهندسة والمعاهد العليا للتمريض والعلاج الطبيعى — وهذه مسألة تشغل بال الكثيرين من علمائنا والمهتمين بأمور العلم ، والتعليم فى الجامعة والمعاهد وطال فيها الحوار والجدل بين فريقين طوال نصف قرن ، أو يزيد منذ إنشاء الجامعة .

فريق يدعو إلى استخدام اللغة العربية لغة للتعليم فى هذه الكليات من منطلق واع مستنير يستشرف الآفاق الرحبة لهذه اللغة الجزلة المعطاءة ، ويرى فى قوتها وحيويتها الدافقة وثرائها وشمولها قدرة فائقة على استيعاب التطور المتلاحق فى قطاعات العلم والمعرفة ويراها أداة طيعة للتعامل مع عصر العلم والتكنولوجيا الذى نعيشه اليوم الأمر الذى ينهض بالتعليم الجامعى ومستواه والآخذ فى الهبوط والتردى — وفريق آخر وهو قل لا كثر يناهض فكرة التدريس باللغة العربية من ادعاء ظالم بأن اللغة العربية تقصر عن الوفاء بمطالب العلم الحديث وتنأى بالدارس عن مواكبة الإيقاع السريع الذى نشهده اليوم فى هذا العصر لحركة العلم والتقدم العلمى .

وقد فات هؤلاء المعارضين أن الدعوة إلى استخدام اللغة العربية تستمد جذورها من تلك النهضة الإسلامية التى تألقت فى سماء الأمة العربية منذ ألف عام ونيف وبلغت أوجها فى عصر المأمون (٧٨٦ — ٨٣٣م) حين أخذ المسلمون ينهلون من موارد العلم ويترجمون الكتب الإغريقية والسريانية والفارسية وينقلون إلى اللغة العربية مختلف الذخائر العلمية وقد حمل لواء هذه الحركة العلمية العارمة التى امتدت بعد ذلك بضعة قرون عدد من العلماء العرب الأعلام الذين كتبوا أعظم المؤلفات والموسوعات فى علوم الكيمياء والفيزياء والرياضيات والفلك والحيوان والنبات والطب والصيدلة وغيرها .

ويطيب لى فى هذا المقام أن أشيد بعمل أثلج صدور المهتمين بأمور اللغة العربية الذى صدر عن المؤتمر العشرين لاتحاد الأطباء العرب فى جلسته الختامية التى عقدت

بالقاهرة فى الثانى والعشرين من يناير عام ١٩٨٨ خاصا « بتعريب مناهج كليات الطب وأن يكون عام ١٩٨٨ عام بدء تعريب الطب فى كلياته المختلفة فى الوطن العربى على أن يتم ذلك تدريجا فى السنوات الخمس القادمة كما أوصى المؤتمر بأن تكون البحوث فى مؤتمر اتحاد الأطباء العرب باللغة العربية وبمناشدة منظمة الصحة العالمية عقد اجتماع لعمداء كليات الطب فى العالم العربى لمناقشة موضوع البدء فى عملية التعريب .

ولاشك أن هذه خطوة إيجابية على الطريق ودعوة صادقة نحو تصحيح المسار تضاف إلى ماسبق من دعوات انطلقت من العديد من المؤتمرات والندوات التى توالى عقدها فى البلاد العربية طوال ربع قرن أو يزيد والتى كانت ولاتزال تستنهض الهمم بضرورة إسراع الجامعات العربية فى استخدام اللغة العربية فى تعليمها العالى والجامعى فى القطاعات التى لاتزال عزوفة عن هذا المطلب القومى وذلك لاعتبارات قومية وعلمية واجتماعية إذ أن الفكر الأصيل لايخلق فى الأمة إلا إذا كانت تعلم بلغتها .

ومشكلة التعليم بلغة أجنبية فى بعض كلياتنا الجامعية ومعاهدنا العالية ذات جوانب ثلاثة تتمثل فى الأستاذ والكتاب والطالب :

فبالنسبة للأستاذ فقد درج منذ سنوات بعد عودته من البعثة من الخارج مؤهلا بالدكتوراه أو حصوله عليها من جامعاتنا المصرية — درج على تدريس مختلف العلوم باللغة الإنجليزية وتجذبه فى ذلك المادة العلمية المتاحة فى مراجعها الأجنبية ويخشى استخدام اللغة العربية فيحتاج إذن إلى بذل جهود مضاعفة فى الترجمة والإعداد هو فى غنى عنها حين يستخدم اللغة الأجنبية وياليت هذه اللغة لغة سليمة حقا وقد زاد سوء الحال بتكدس الطلاب بالآلاف مما جعل مهمة الأستاذ بالغة الصعوبة وعجز الطلاب عن استيعاب المادة العلمية وفهمها وهضمها تماما بهذه اللغة الأجنبية ويكفى أن نطلع على أوراق إجاباتهم فى كليات الطب والعلوم والهندسة وغيرها لنرى ضعف المستوى اللغوى والعلمى فى هذه الأيام — ومع ذلك نرى عزوفا عن التدريس باللغة العربية — ومما تجدر الإشارة إليه أن الستينيات وأوائل السبعينيات فى مصر قد شهدت محاولات جادة للتدريس باللغة العربية للسنوات الأولى والإعدادية فى بعض هذه الكليات وكانت النتائج عظيمة من حيث استيعاب الطلاب للمادة العلمية وتفهمها فى سهولة ويسر — ولكن عدل هذا الاتجاه بعد سنوات قليلة وعادت الأمور سيرتها الأولى وكان عدم توافر المراجع العلمية الحديثة باللغة العربية ترجمة

وتأليفا وتعريبا للمصطلحات العلمية أحد الأسباب فى هذه النكسة — أضف إلى ذلك افتقار المدرس الجامعى والعالى إلى التأهيل الأمثل للتدريس بالعربية السليمة بدلا من ذلك الخليط من لغة أجنبية ضعيفة متردية وعربية عامية دارجة — ويجدر بى أن أشير هنا إلى أن بين الدراسات الرائعة التى كتبها العالم الجليل الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة رئيس المجمع الأردنى الموقر دراسة قيمة حقا فى موضوع تأهيل أعضاء هيئة التدريس بالجامعة للتدريس باللغة العربية وهى دراسة جديرة بالعناية والاهتمام من القائمين على تعليمنا العالى والجامعى .

وبالنسبة للكتاب فلا تزال المكتبة العربية فى مصر فقيرة حتى اليوم فى الكتب والمراجع العلمية الحديثة المؤلفة باللغة العربية أو المترجمة إليها بكليات العلوم والطب والهندسة وبعض المعاهد العليا باستثناء بعض المقررات الدراسية فى بعض هذه الكليات إذ لها كتبها بالعربية لأنها تدرس بهذه اللغة — وسبب ذلك الذى نشهده من قلة المستحدث من المراجع العلمية العربية هو العزوف عن التأليف أو الترجمة فى غيبة الحافز الذى يدفع إلى ذلك — ومرد ذلك أيضا إلى الأزمة التى تمر بها حركة الترجمة بوجه عام وغنى عن البيان أن الترجمة ضرورية لتحقيق التواصل الفكرى الدائم بيننا وبين العالم الغربى الذى تتقافز خطواته فى معارج الرقى والتقدم — كما أن اللغة العربية تزداد غنى وثراء بالترجمة وتتسع آفاقها بالحصيلة الجديدة التى تضاف إلى مذخور تراثها وتصبح أقدر على تأدية رسالتها فى عصر العلم والتقدم العلمى والتكنولوجى بفضل عملية التلاحم التى تضطلع بها الترجمة ولاشك أن لكل ذلك انعكاساته الإيجابية على التعليم باللغة العربية فى جامعاتنا ومعاهدنا العالية .

والجدير بالذكر أن الترجمة قد ازدهرت فى مصر فى عصور سابقة — فى عصر رفاعة الطهطاوى الذى سبقت الإشارة إليه وإلى أثره العميق فى النهضة العلمية والثقافية الحديثة فى مصر — أو فى أيام «المقتطف» حين كان يحفل بمختلف التراجم العلمية والمصطلحات باللغة العربية — أو فى أيام لجنة التأليف والترجمة والنشر فى مصر والتى كانت تضم نخبة من أساطين العلم والفكر والأدب من بينهم شيخ المجمعين الأستاذ الدكتور إبراهيم مدكور رئيس مجمع القاهرة — وقد زودت هذه اللجنة على مدى ثلاثين عاما المكتبة العربية بطائفة من الكتب والمؤلفات والتراجم أو فى أيام المجلس الأعلى للعلوم فى أواخر الخمسينيات حين أشرف على برنامج لترجمة أمهات الكتب والمراجع فى العلوم الأساسية الجامعية إسهاما فى تدريسها باللغة

العربية – وهكذا فعلت مؤسسة فرانكلين ومشروع الألف كتاب الذى نهضت به الإدارة الثقافية بوزارة التربية والتعليم فى الستينيات – ولكن من المؤسف حقا أن الكثير من هذه الكتب والمراجع الجامعية التى نقلت إلى العربية قد أهملت وطواها النسيان إذ أن عدم التدريس باللغة العربية قد وأد معظمها وأجهض الجهود المضنية التى بذلت فى سبيل إنجازها – ومع ذلك فقد شهدت السنوات الأخيرة بادرة طيبة بالنسبة للكتاب العلمى العربى وبالنسبة لاتخاذ اللغة العربية لغة للتدريس لبعض المقررات فى بعض كليات العلوم والهندسة والطب البيطرى فى بعض الجامعات والمعاهد العليا وهى حركة مباركة نرجو لها النماء والازدهار :

وبالنسبة للطالب فقد شهدت العشرين سنة الماضية ازديادا هائلا فى إعداد الطلاب الملتحقين بالتعليم العالى والجامعى ومن بينهم الذين يتلقون تعليمهم بلغة أجنبية وامتلأت قاعات الدرس بحشود منهم الأمر الذى أدى إلى ضعف بالغ فى التحصيل واستيعاب المادة العلمية وفهمها وانعدام الصلة بين الطالب والأستاذ وكان لكل ذلك أثره العميق فى ضعف مستوى الطلاب وتكوينهم العلمى – ولو كان التدريس باللغة العربية لاختلفت الصورة وارتقى تحصيل الطلاب وارتفع مستواهم العامى مع العمل على رفع مستواهم أيضا فى اللغة العربية عن طريق وضع مناهج متطورة وبرامج تعليمية لتدريس اللغة العربية وقواعدها الأساسية .

هيئات علمية ولغوية فى مصر تعمل على النهوض باللغة العربية :

تشهد مصر منذ سنين نشاطا ملحوظا من هيئات علمية ولغوية تعمل جاهدة فى صبر وأناة على اتخاذ اللغة العربية لغة للعلم وتطبيقاته وفى مقدمة هذه الهيئات مجمع اللغة العربية الذى يقوم من بين مهامه اللغوية والعلمية الكبرى بمهمة وضع المصطلحات العلمية ويؤدى بذلك خدمة جليلة ومؤثرة للمشتغلين بالتعليم العالى والجامعى – وقد أنجز المجمع من هذه المصطلحات أكثر من ثلاثين ألف مصطلح علمى فى مجالات الكيمياء والطب والصيدلة والفيزيقا والأحياء والزراعة والجيولوجيا والهندسة والرياضيات والحاسبات الالكترونية وغيرها وذلك بالإضافة إلى علوم الأدب والفنون والعلوم الاجتماعية واللغويات وغيرها ، وقد أخرج للمكتبة العربية عددا من المعاجم المتخصصة فى هذه العلوم جميعا والعلوم الحديثة بوجه خاص–وهذه المصطلحات والإنجازات تأخذ طريقها رويدا رويدا إلى الجامعات والمعاهد العليا وإلى كتب المترجمين والمؤلفين الذين يدرسون باللغة العربية فى بعض الكليات

الجامعية كما أنها تكون رصيدا ذابال حين يعدل عن التدريس بلغة أجنبيه لتحل محلها اللغة العربية .

ولاشك أن الذخيرة اللغوية والعلمية التى تحفل بها المجامع الأخرى للغة العربية فى الأردن ودمشق وبغداد وهيئة التعريب بالرباط وكذلك المعاجم العربية الأخرى مثل معجم شرف فى العلوم الطبية والطبيعية ومعجم المعلوف فى الحيوان ومعجم أحمد عيسى والأمير الشهابى فى النبات والمعاجم الحديثة الأخرى كلها تقوم بدور بارز فى تعريب المصطلحات العلمية على اتساع العالم العربى كله ؛

ومن الهيئات التى تعنى كذلك بهذا الموضوع الاتحاد العلمى المصرى والجمعيات العلمية فى مصر وكذلك مركز الأهرام للترجمة العلمية .

اللغة الاجنبية فى برامج التدريس باللغـــة العربية :

إذا كنا نعمل على إحلال اللغة العربية محل اللغة الأجنبية فى التدريس لطلبة بعض الكليات الجامعية والمعاهد العليا فليس معنى ذلك أننا نريد الانغلاق على أنفسنا بل العكس هو الصحيح — هو الانفتاح على العالم الخارجى على علمه ومنجزاته الحديثة فى العلم وتطبيقاته ولايتسنى ذلك إلا بإتقان لغة أجنبية كالإنجليزية أو الفرنسية نطل بها إطلالات نيرة على انجازات العلم الحديث وآفاقه الرحبة — ولذلك وجب الاهتمام بتعلم لغة أجنبية وليكن ذلك ضمن برامج التدريس بالجامعة — وإذا كان ذلك ضروريا لطالب المرحلة الجامعية الأولى فهو أساسى وحتمى لطلاب الدراسات العليا وجدير بالذكر أن الجامعات المصرية تولى اهتماما فى الوقت الحاضر بتدريس اللغة الأجنبية جنبا إلى جنب مع برامج الدراسة الأخرى .

وسائل النهوض باللغة العربية فى التعليم العام والتعليم العالى والجامعى فى مصر مقترحات وتوصيات

بعد أن تبين بوضوح أن لغتنا تعانى أزمة حقيقية أقلقت بال المشتغلين بأمور الثقافة والتعليم والقائمين عليها فى مصر ؛ وبدت آثارها جلية بين جمهرة الطلاب فى تعليمنا العام والعالى بعد أن تبين ذلك أولت المجامع والهيئات العلمية والثقافية واللغوية اهتماما بالغا بموضوع اللغة العربية ووسائل النهوض بها تمثل فى نداءات وتحذيرات تدق ناقوس الخطر جرت بها أقلام العلماء والكتاب ووضحت فى العديد من الدراسات التى حفلت بها الندوات والمؤتمرات على مدى سنوات طوال كانت أقربها ندوة تعريب لغة العلم فى التعلم الجامعى التى عقدها الاتحاد العلمى المصرى عام ١٩٨٢ ورأسها وتحدث فيها

أستاذنا الجليل الدكتور إبراهيم مدكور رئيس مجمع القاهرة ورئيس اتحاد المجامع اللغوية ، ومؤتمر جامعة الإسكندرية عام ١٩٨١ عن اللغة العربية فى الجامعات — أضف إلى ذلك دراسات أخرى تبناها المجلس القومى للتعليم والمجلس القومى للثقافة فى مصر وكذلك دراسات على الصعيد العربى جاءت فى أعمال المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. وجدير بالذكر أن أنوه بذلك المعين الفياض من الدراسات الرائدة التى زخرت بها كتب مجمع اللغة العربية الأردنى وبخاصة مما سطره فى حنكة واقتدار عن موضوع اللغة العربيه وتعريب التعليم العالم الأجل الأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة رئيس المجمع والذى جاء قمة فى الأداء والاستقصاء .

وقد حفلت كل هذه الدراسات والندوات والمؤتمرات بالكثير من الآراء والاقتراحات استعنت فيما أنا بصدده من إعداد توصيات أنهى بها محاضرتى المتواضعة أملا فى أن تجد هذه التوصيات طريقها نحو التنفيذ لننهض باللغة العربية ونرتفع بمستواها من منطلق قومى وعلمى واجتماعى .

وبالنسبة للغة العربية فى التعليم العام نوصى بما يلى :

— ضرورة إعادة تقويم مناهج اللغة العربية ومحتواهاوطرق تدريسها واختباراتها فى مراحل التعليم العام تقويما موضوعيا شاملا بما يقضى على القصور فيما أصبح عليه المستوى اللغوى والتعبيرى العربى الذى يخرج به الطلاب ويلتحقون بعده بالتعليم العالى والجامعى

— أن يكون البدء بتعليم اللغة العربية عن طريق الطفل أو التلميذ فى المرحلة الأولى من مراحل التعليم العام نقلا رفيقا متدرجا من لغته المختلطة إلى اللغة السليمة بعناصرها الأساسية الأربعة وهى الحديث والاستماع والقراءة والكتابة والعمل الدائب على نقل التلميذ من لغة التخاطب إلى اللغة العربية الصحيحة .

— الحرص على استخدام اللغة العربية الفصحى فى تدريس جميع المواد حتى لايقتصر استخدامها على دروس اللغة العربية فتبدو للطلاب غريبة عنهم .

— ضرورة التنسيق بين مناهج اللغة العربية فى مراحل التعليم العام الثلاث بحيث يراعى تكاملها وتدرجها كما يراعى التنسيق فى كتب اللغة العربية بحيث تؤلف هذه الكتب وحدة متصلة .

— العمل على تنمية الميل للقراءة والاطلاع فى التلميذ كهدف أساسى من أهداف التعليم بل هو وسيلة تعليم الإنسان نفسه بنفسه وإتاحة فرص الاستماع إلى مختارات من

القراءة شعرا ونثرا وحوارا ونصوصا وقصصا مع توافر مواد للقراءة الحرة للتلميذ فى مختلف المراحل وبخاصة فى مرحلة الطفولة .

– العناية بتحفيظ التلاميذ فى مراحل التعليم العام قدرا مناسبا من القرآن الكريم ليستقيم لسانهم وترسخ اللغة العربية السامية فى وجدانهم مع الاهتمام بالثقافة الدينية الإسلامية وحفز الشباب إلى دراستها .

– توجيه الجهود إلى إعداد معاجم لغوية حديثة وعصرية ومصورة ملائمة لمختلف مراحل التعليم العام وكذلك العناية بالمكتبات المدرسية واختيار الكتب المشوقة للتلميذ .

– استخدام الوسائل والمعينات التعليمية والتقنيات الحديثة فى تعليم اللغة العربية .

– توجيه الاهتمام بالخط العربى وتيسير الحروف والتقليل من صورها بما يحفظ لها جمالها وبما لايبعدها عن الاتصال بالتراث وذلك للأهمية البالغة فى اقتصاديات الطباعة واقتصاديات مبادىء القراءة والكتابة .

– ضرورة تيسير قواعد النحو والصرف والرسم الإملائى وكتبها ونشرها بين الدارسين لتجنب أخطاء التحدث والكتابة .

– الاهتمام الدائب والمستمر برفع المستوى اللغوى والثقافى والتربوى لمدرسى اللغة العربية فى مراحل التعليم العام ليرتفع بذلك مستوى تأهيلهم للتدريس ويشمل هذا أيضا مدرسى المواد الأخرى .

– ضرورة العمل على إنشاء مركز قومى لتطوير تعليم اللغة العربية يدرس واقعها ويطور مناهجها وطرق تدريسها ويعنى بتأهيل مدرسيها ، كما يضع سياسة تأليف الكتب والمراجع ويعمق الاستفادة من بحوث مجمع اللغة العربية واتحاد المجامع اللغوية العربية كما يضع السياسة اللازمة لترقية المستوى اللغوى لجمهرة المواطنين .

– الدعوة بأن تكون لغة الصحافة وأجهزة الإعلام المسموعة والمرئية ودور النشر هى اللغة العربية الصحيحة وذلك للقضاء على ظواهر الانحراف فى الأداء اللغوى وعلى الخروج على القواعد وتحريف الألفاظ والعبارات وكذلك الدعوة إلى أن يهتم المتحدثون والخطباء بالحديث باللغة العربية بصفائها ونقائها .

وبالنسبة للغة العربية فى التعليم العالى والجامعى نوصى بما يلى :

– وضع الخطة المناسبة لتعميم استخدام اللغة العربية فى مرحلة التعليم العالى والجامعى فى كافة العلوم والتخصصات ومنع استخدام اللغة العامية فى المحاضرات الجامعية وهذا أشد لزوما فى دروس اللغة العربية وآدابها

— ضرورة الاهتمام بدراسة التراث العربى دراسة أصيلة فى فروع اللغة والأدب والنقد والبلاغة وكذلك الاهتمام بالدراسات الحديثة المتطورة فى هذه المجالات

— العناية فى اختيار النصوص الأدبية اختيارا دقيقا والاهتمام فى تدريسها بالتذوق وإبراز القيمة الفنية والجمالية بحيث لا يطغى المحتوى التاريخى أو الاجتماعى على النص .

— الحد من الاعتماد كلية على الكتاب الجامعى المقرر فى مواد اللغة العربية وآدابها وتوجيه الطلاب إلى المصادر والمراجع الأصيلة فى كل مادة .

— العناية بتدريس العلوم اللغوية الحديثة بفروعها المختلفة وإيفاد مبعوثين للتخصص فيها لسداد النقص الكبير فى القائمين على تدريسها .

— الاهتمام برعاية المدرس الجامعى والعالى المتخصص فى اللغة العربية رعاية علمية لرفع كفاءته من حيث ثقافته العامة ووصله بالتراث وبالتطور الحديث فى فرع تخصصه.

— العناية بتأهيل أعضاء هيئة التدريس بالكليات الجامعية والمعاهد العليا (من غير المتخصصين فى اللغة العربية) للتدريس باللغة العربية السليمة ووضع برامج متطورة عن طرق تدريسها .

— دعم المكتبات الرئيسية بالجامعات ومكتبات الكليات والأقسام المتخصصة لتوفير المصادر الرئيسية فى اللغة العربية وآدابها .

بالنسبة للكليات الجامعية والمعاهد العليا التى يجرى فيها التدريس بلغة أجنبية نوصى بمـا يلى :

— دعوة الهيئات الأكاديمية المختصة وفى مقدمتها المجلس الأعلى للجامعات إلى تعريب التعليم فى هذه الكليات والمعاهد وأن تخطط لذلك ويعد العدة للمضى فى هذا العمل القومى مع التدرج فى تنفيذه وذلك تحقيقا وإعمالا للنص الذى ورد فى هذا الشأن فى قانون الجامعات .

— التوسع فى تعريب المصطلحات العلمية ووضع المقابلات العربية المناسبة لها وبخاصة فى المستحدث من فروع العلم والتكنولوجيا ومتابعة الجهود الكبيرة التى يقوم بها مجمع اللغة العربية والمجامع العربية الشقيقة الأخرى فى هذا المجال مع حفز العلماء والباحثين على استخدام هذه المصطلحات وإشاعتها فى محاضراتهم وكتبهم ومؤلفاتهم ودراساتهم الجامعية وضرورة العمل على توحيد المصطلحات العلمية فى الوطن العربى .

— ضرورة التوسع فى وضع المعاجم العلمية المتخصصة باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية وقد أسهم مجمع اللغة العربية والمجامع

العربية الأخرى بقسط كبير فى هذا السبيل وكان أقربها معجم الحاسوب أو الحاسبات الالكترونية الذى صدر حديثا عن مجمع القاهرة .

— توجيه عناية خاصة إلى ترجمة مجموعات متكاملة من أمهات الكتب والمراجع العلمية الأجنبية مع ضرورة التفكير فى إنشاء مركز قومى للترجمة يتولى جمع المعلومات وتبادلها وتنشيط حركة الترجمة والتأليف والنشر ورعايتها ويلاحق التزايد الكبير فى العلوم المستحدثة .

— مضاعفة جهود إحياء عيون التراث العربى العلمى وتحقيقه ونشره وتحديث معالجته فى دراسات مقارنة تجمع بين التأصيل والمعاصرة ، وتوصية الجامعات بتضمين العلوم مختارات منتقاة من مصادر التراث العلمى المتميز التى زاوجت بين الثراء اللغوى وبين الإبداع العلمى .

— زيادة المواد العلمية والفنية والثقافية التى تقدم باللغة الفصحى فى مختلف أجهزة الإعلام مع العناية بحسن انتقائها ومسايرتها لروح العصر .

— مع الدعوة إلى التعريب فإنه يلزم توجيه عناية خاصة إلى تعليم اللغات الأجنبية فى المرحلة الجامعية بل فى مرحلة التعليم العام أيضا وبعد ذلك فى مرحلة الدراسات العليا وفى هذه المرحله الأخيرة يتحتم إتقان لغة أجنبية (الإنجليزية) وإجادتها حديثا وكتابة وفكرا لطلاب هذه المرحلة ووضع البرامج الكفيلة بذلك ليتاح الانفتاح على العالم الخارجى والاتصال بالتطور العلمى ومنجزات العصر .

هذا عرض متواضع عن قضية اللغة العربية — فى التعليم العام والتعليم العالى والجامعى فى مصر فى الوقت الحاضر — ألمحت فيه إلى تاريخها وواقعها والمشكلات التى تحيط بها وتحاصرها ، وأتبعت ذلك بتوصيات واقتراحات تهدف إلى حل هذه المشكلات وإلى النهوض باللغة العربية والارتفاع بمستواها باعتبارها قضية قومية وثيقة الصلة بكياننا العربى وانتمائنا الوطنى .



المراجع

١ – اللغة العربية والتعريب – للدكتور عبد الكريم خليفه .

منشورات مجمع اللغة العربية الأردنى ١٩٨٧

٢ – تأهيل أعضاء هيئة التدريس بالعربية – للدكتور عبد الكريم خليفه

مجلة مجمع اللغة العربية الأردنى ١٩٨٠

٣ – المجامع العربية والمصطلح العلمى – للدكتور إبراهيم بيومى مدكور .

مطبوعات إتحاد الجامعات العربية مؤتمر تعريب التعليم الجامعى والعالى ١٩٨٠

٤ – اللغة العربية فى الجامعات : واقعها ووسائل الارتقاء بها .

مؤتمر جامعة الإسكندرية – كلية الآداب ديسمبر ١٩٨١

٥ – وسائل تطوير وإعداد معلمى اللغة العربية فى الوطن العربى .

كتاب المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – الرياض ١٩٧٧

٦ – تحديث التعليم قبل الجامعى .

مطبوعات المجلس القومى للتعليم والبحث العلمى – الدورة الرابعة عشرة١٩٨٦/١٩٨٧

٧ – مناهج اللغة العربية ووسائل النهوض بها فى التعليم العام .

مطبوعات المجلس القومى للتعليم والبحث العلمى – الدورة السابعة ١٩٧٩ / ١٩٨٠

٨ – إعداد معلم اللغة العربية .

مطبوعات المجلس القومى للتعليم والبحث العلمى – الدورة الثامنة ١٩٨٠ / ١٩٨١

٩ – قضية تعريب التعليم العالى والجامعى فى مصر – للدكتور محمود حافظ

مطبوعات مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٨٦

١٠ – العربية لغة العلم – للدكتور محمد ولى .

كتاب المجمع المصرى للثقافة العلمية عدد ٤ – ١٩٣٤

١١ — العربية لغة علمية — للدكتور إسماعيل مظهر .
كتاب المجمع المصرى للثقافة العلمية — عدد ١٠ — ١٩٤٠

١٢ — تعريب العلم — للدكتور عبد الحليم منتصر .
كتاب المجمع المصرى للثقافة العلمية عدد ٣١ — ١٩٦٠

١٣ — نشر الكتب العلمية باللغة العربية — للدكتور كامل منصور .
كتاب المجمع المصرى للثقافة العلمية عدد ٣١ — ١٩٦١

١٤ — مشكلات التعليم الجامعى فى البلاد العربية :
الحلقة الأولى بنغازى ١٩٦٤ ، الحلقة الثانية بيروت ١٩٦٤

١٥ — تعريب التعليم العالى فى الوطن العربى — مؤتمر بغداد مارس ١٩٧٨
مطبوعات اتحاد الجامعات العربية

١٦ — اللغة العربية ودراسة العلوم بالجامعة — للدكتورة عائشة عبد الرحمن :
المجالس القومية المتخصصة (شعبة الثقافة) ١٩٨١

١٧ — مستقبل التعليم الجامعى والبحث العلمى فى مصر — للدكتور كامل منصور ،
والدكتور عبد الحافظ حلمى وآخرين .
مطبوعات المجلس القومى للتعليم والبحث العلمى ١٩٧٩

١٨ — اللغة العربية فى خدمة علوم الإحياء — للدكتور محمود حافظ
كتاب مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٩٧٩

١٩ — اللغة العربية والتعليم الجامعى — للدكتور حسين نصار .
المجالس القومية المتخصصة (شعبة الثقافة) ١٩٨١

٢٠ — تعريب التعليم الجامعى فى مجالات المصطلح العلمى والترجمة والتأليف
للدكتور عبد الحليم منتصر — مطبوعات اتحاد الجامعات العربية
مؤتمر تعريب التعليم الجامعى والعالى — ١٩٨٠

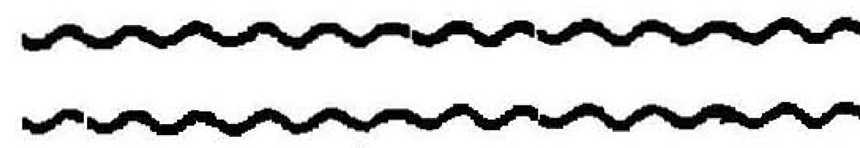
٢١ ـ اللغة العربية فى التعليم والثقافة ـ للدكتور محمود الشنيطى
المجالس القومية المتخصصة (شعبة الثقافة) ١٩٨١

٢٢ ـ لغة تدريس العلوم فى الجامعات ـ للدكتور عبد الحافظ حلمى محمد .
مطبوعات إتحاد الجامعات العربية ـ مؤتمر تعريب التعلم الجامعى والعالى ـ القاهرة ١٩٨٠

٢٣ ـ تعريب لغة العلم فى التعليم الجامعى ـ ندوة رأسها وتحدث فيها الدكتور إبراهيم بيومى مدكور وآخرون .
كتاب الدورة الثامنة للاتحاد العلمى المصرى (تحت الطبع)

٢٤ ـ العربية لغة العلوم والتقنية ـ للدكتور عبد الصبور شاهين
دار الإصلاح والنشر ـ المملكة العربية السعودية ١ ـ ٤٧٠ الطبعة الأولى ١٩٨٣

محمود حافظ
عضو المجمع



الإفادة والعلاقات البيانية
للدكتور تمام حسان

عرف ابن مالك الكلام بأنه « لفظ مفيد »، وعرفه صاحب الأجرومية ونقل عنه الجزولى فى القانون بقوله : « الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع » ، فأضاف قيد التركيب إلى « اللفظ » وقيد الوضع إلى « المفيد » . ولكل من هذين القيدين ما يجعله ضروريا للتعريف.

فأما التقييد بلفظ « المركب » فتأتى ضرورته من أن اللفظ إذا لم يكن مركبا فهو مفرد والمعروف أن اللفظ المفرد معناه مفرد لاتستفاد منه نسبة ، وذلك شأن كل الألفاظ المفردة فى معجم اللغة ، فكل من هذه الألفاظ « كلمة » لا « كلام » . وهذا ماسنعود إليه عند تناولنا للعلاقات البيانية .

وأما قيد « الوضع » فقد يفهم منه أحد أمرين :

(ا) أن يكون المقصود بالوضع نمط تركيب الجملة (أيا كان هذا النمط خبراً أو شرطا أو إنشاءاً) فصورة كل تركيب من هذه التراكيب « وضع » من أوضاع الكلام وشرط من شروط تركيبه . ومن ثم لايعد من الكلام أن يقال : (علىَ وقفَ الأمرِ زيدٌ جليةِ) ولكن من الكلام أن يقال : « وقف زيد على جلية الأمر » ، لمطابقة ذلك لأحد أوضاع الكلام (وضع الجملة الخبرية) .

وليس من الكلام أيضا أن يقال (الحمد لله الذى أبلغ محمد عقيدة الإسلام للناس) وذلك لعدم وجود الرابط من ضمير ونحوه . ولكن من الكلام أن يقال : « الحمد لله الذى أبلغ محمد عقيدة الإسلام له إلى الناس » . ومنه على رغم اللبس أن يقال : « الحمد لله الذى أبلغ محمد شريعته إلى الناس » إذ تفتقر إعادة الضمير إلى قرينة ، فإذا قامت القرينة صح الكلام وأفاد.

(ب) أن يكون المقصود يفيد « الوضع » اشتمال الجملة على كلمات عربية بأصل الوضع ، فينصرف القيد إلى المفردات التى فى الجملة لا إلى نمط التركيب . فإذا كان الأمر كذلك فليس من الكلام (على رغم صحة النمط) أن يقال

« حنكف الحعبور بقعاصة الكلابيص الفيفانة » .

لأن « مفردات الجملة » ليست كلمات عربية الوضع ، أما نمط التركيب فمطابق لشروط الصناعة إلى درجة يمكن معها إعرابه .

ويدخل تحت هذا القيد أيضا أن تتسم العلاقة بين ألفاظ الجملة ، بالمناسبة المعجمية ، ولذلك لا يعد من الكلام أن يقال .

« غضب الهواء على ضمير القمر »

لأن الهواء لا وجدان له ، ولأن القمر لا ضمير له ، ولانقطاع الصلة بين الهواء والقمر . فكل ذلك يجعل العلاقة بين ألفاظ الجملة علاقة « المفارقة المعجمية » ولا يجعلها « مناسبة معجمية » وذلك يعود بنا إلى مخالفة أصل الوضع الاستعمالى للمفردات .

وقد يتحقق الوضع بالمعنيين السابقين فى كلام لا وجود فيه للعلامات الإعرابية كما فى المثال التالى (الذى نعتذر عنه للآية القرآنية الكريمة)

(أرأيتك هذا الذى كرمت علىّ لئن أخرتن إلى أقصى المدى لأحتنكنه) .

وقد يختلف النمط التركيبى للجملة من حيث الالتزام ، أو عدم الالتزام بشروط الافتقار والاختصاص والرتبة الخ فيسمى ذلك اختلافا فى « السبك » مع وصف السبك بالقوة حينا وبالضعف حينا آخر فيرتبط ذلك بالإفادة طرداً وعكساً . بهذا نفهم لماذا كان قول الشاعر يتسم بضعف السبك حين قال :

وما مثله فى الناس إلا مملك
أبو أمه حى أبوه يقاربه

وقد جاء ضعف السبك هنا للأسباب التالية :

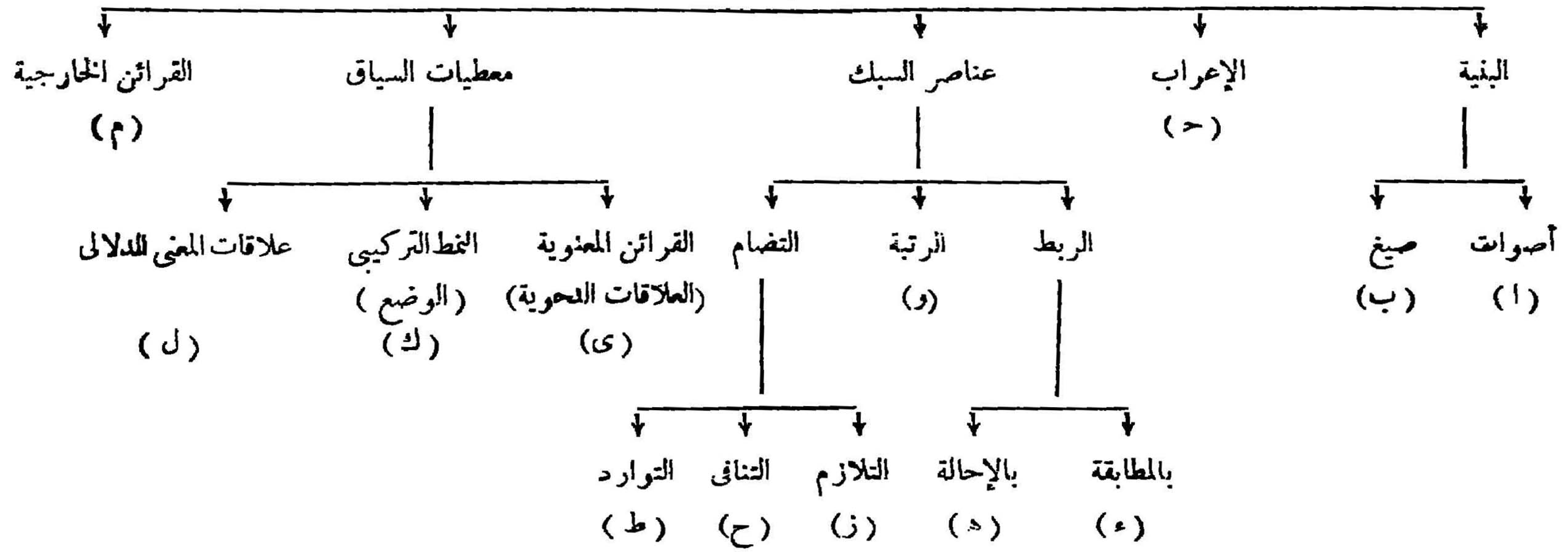
١ – الفصل بأجنبى بين المبتدأ (أبو أمه) والخبر (أبوه) على عكس مطالب التضام (بالوصل) .

١ – الفصل بين الموصوف (حى) وصفته الجملة (يقاربه) على عكس مطالب التضام أيضا .

٣ – تأخير المستثنى منه (حى) على المستثنى (مملك) على عكس مطالب الرتبة .

لكل هذا ضعف السبك وتعثرت الإفادة فاحتاج فهم البيت إلى إمعان التأمل .

بعد هذه المقدمة التى أرجو أن يكون مفهوم الإفادة قد اتضح بها أود أن أعرض تخطيطا يكشف عن ارتباط الإفادة بالقرائن ويمكننا من نقد التعريفين السابقين للكلام المفيد .


قرائن الإفادة
البنية
الإعراب
(حـ)
عناصر السبك
معطيات السياق
القرائن الخارجية
(م)
أصوات
(ا)
صيغ
(ب)
الربط
الرتبة
(و)
التضام
القرائن المعنوية
(العلاقات النحوية)
(ى)
النمط التركيبي
(الوضع)
(ك)
علاقات المعنى الدلالى
(ل)
بالمطابقة
(ء)
بالإحالة
(هـ)
التلازم
(ز)
التنافى
(ح)
التوارد
(ط)

والتضام أخطر عناصر السبك : وهو يتفرع إلى ثلاثة أفرع هى التلازم والتنافى والتوارد . فالمقصود بالتلازم افتقار أحد العنصرين فى الكلام إلى الآخر أو اختصاصه به وإذا ذكر النحاة « المتلازمين » فالمقصود المفتقر وما افتقر إليه ، والمختص وما اختص به : وأما التنافى فيتمثل فى قول النحاة: « لا يجتمع كذا وكذا » و « لايدخل كذا على كذا » وقولهم : « إذا انتفى شرط من الشروط امتنع كذا » . وهكذا تدل أقوال النحاة على أن العنصرين المذكورين متنافيان.

أما التوارد وهو الثالث من فروع التضام فسنعود إليه بعد قليل .

يتضح مما سبق أن قيد التركيب فى تعريف الأجرمية والجزولى يتناول البنية والإعراب وعناصر السبك وفروعها ، وأن قيد الوضع يرمى إما إلى أصل وضع الكلمة أو إلى نمط تركيب الجملة وإما إلى كليهما .

ولكنه يقصر دون شمول أمور أخرى مما يتعلق بالتوارد ومعطيات السياق ، كالعلاقات المعنوية من الإسناد إلى التعدية إلى الغائية إلى الظرفية والملابسة..الخ . وكمعطيات السياق وعلاقاته المنطقية وإشارة بعض أجزائه إلى بعضه كما فى قول الشاعر .

أنا ابن أباة الضيم من آل مالك

وإنْ مالك كانت كرام المعادن

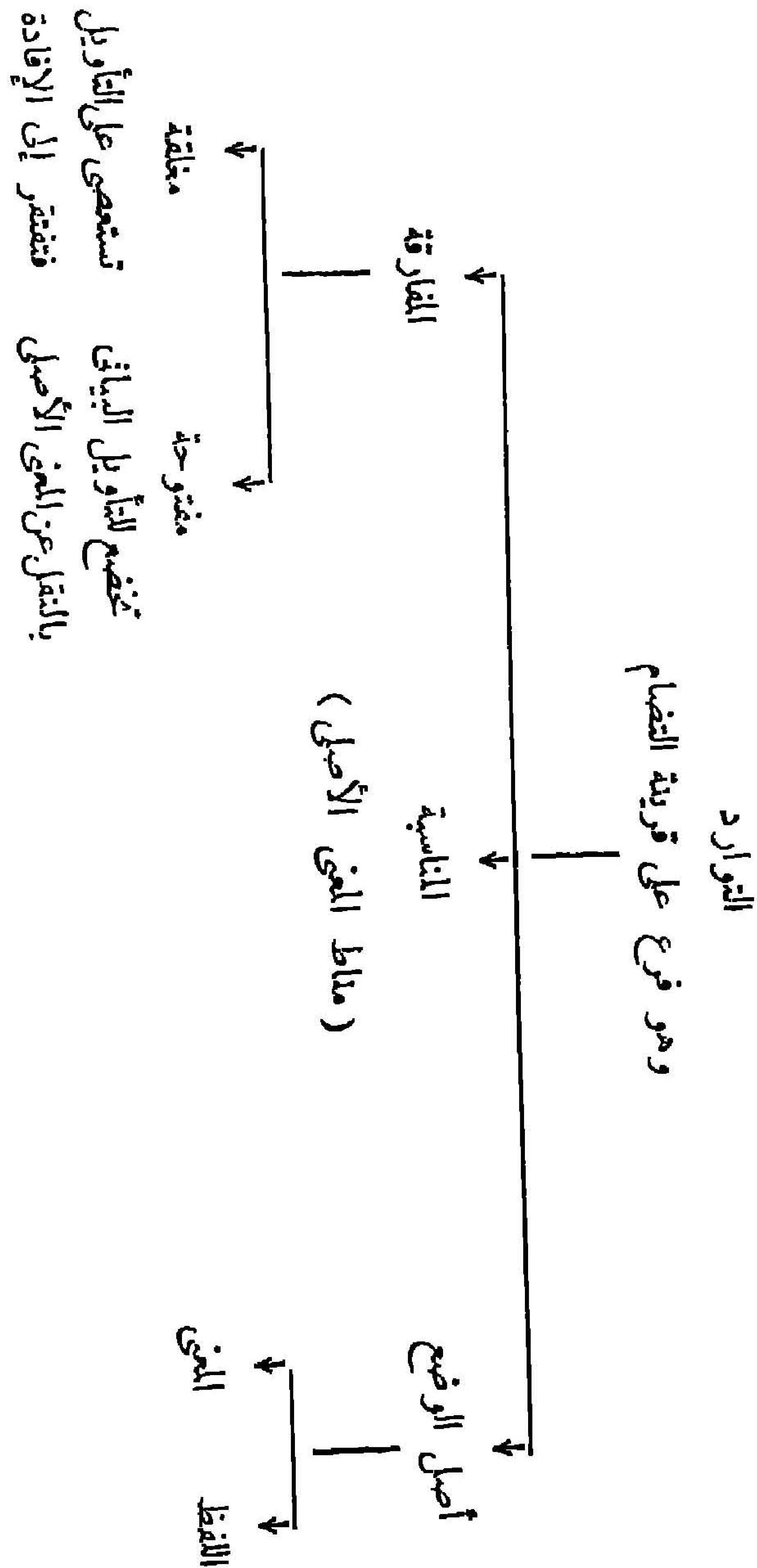
إذ يمتنع فى (إنْ) أن تكون نافية لئلا يقع البيت فى التناقض ، ولاشرطية لئلا يقع فى تحصيل الحاصل إذ لايقال :زيد كريم وإن كان جواداً ، فلم يبق إلا أن تكون (إنْ) مخففة من الثقيلة ويستقيم المعنى .

وهذه المعطيات نفسها تمنع أن يكون قوله تعالى: «وما أعجلك عن قومك ياموسى» تعجبا وتؤكد أنه من قبيل الأستفهام لورود الجواب بعد ذلك ، وتمنع أيضا عطف الملائكة على الضمير فى قوله تعالى « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة » وتحتم عطف الملائكة على لفظ الجلالة لقوله بعد ذلك مباشرة : « لا إله إلا هو العزيز الحكيم » . فعلى الرغم من ضرورة ذلك للإفادة لم تشتمل قيود الجزولى على مايتصل بذلك .

أما القرائن الخارجية فليست من اللغة وإن أعانت على الإفادة أو توقفت الإفادة عليها أحيانا . وتأتى أهميتها من ارتباطها بالموقف الذى حدث فيه التكلم سواء أكان هذا الإرتباط تاريخيا أم جغرافيا أم اجتماعيا الخ وقديما ردّ على بن أبى طالب كرم الله وجهه قول الخوارج : « لاحكم إلا لله » بإرجاع العبارة إلى قرائنها الخارجية المتمثلة فى الصراع العسكرى والفكرى ورغبة كل من المتصارعين فى إحراز النصر على خصمه . ففصل علىّ بين ما اشتملت عليه

هذه العبارة من معنى حرفى مطلق ومعنى مقامى مقيد بظرف الصراع . فأما من حيث معناها الحرفى فهى فى رأيه ورأى خصومه «كلمة حق» وأما معناها المقامى فقد «أريد بها باطل» ولقد صاغ على عبارته هذه فى ضوء ما عنّ له من قرائن خارجية . وهكذا اختلفت «إفادة» القول عن «إفادة» القرائن الخارجية .

ندخل بعد ذلك إلى الرابطة بين الإفادة والعلاقات البيانية ونمهد لذلك بالتخطيط التالى :

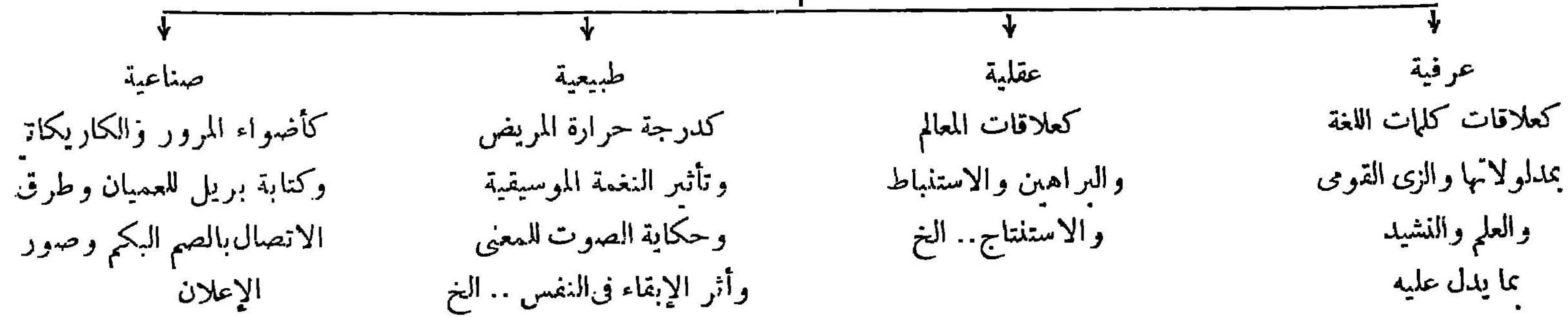


نصل عند هذه النقطة إلى ما أرجأناه سابقا من القول في التوارد الذي هو فرع على قرينة التضام . ولقد رأينا من قبل أن التركيب لا يمكن وصفه بأنه « عربي » إلا إذا تحقق في مفرداته أن تكون عربية بأصل الوضع وتحقق لنمطه التركيبي أن يكون ذا سبك مقبول موافق لشروط الصياغة النحوية . ومن الواضح أن النمط ينتمي إلى النحو ولكن أصل الوضع ينتمي إلى المعجم . والكلمات المعجمية طائفتان عظيمتان أولاهما طائفة الكلمات التركيبية التي لا تخضع لأصل أشتقاق ولا لصيغة صرفية وتدل على معان وظيفية عامة (وهي الحروف والضمائر ونحوها) ولا يتضح مدلولها إلا في السياق فهي غير صالحة للإفراد . والطائفة الثانية هي طائفة الكلمات المعجمية ذوات الأصل الاشتقاقي والصيغة الصرفية وهي تصلح للإفراد فتدل عند الإفراد على معنى مفرد (وهي الأسماء والأوصاف والأفعال) . وهذه الطائفة الأخيرة هي التي تنسب في هذا المقال إلى « أصل الوضع » وإلى « المعنى الأصلي » أي الذي لها بأصل الوضع . ولكن هذه الكلمات قد يكون لها معاني أخرى ليست بأصل الوضع جاءت بطريق التوسع . قارن :

التركيب	الكلمة المقصودة	معناها
ضرب زيد عمرا	ضرب	صفع
ضرب الله مثلا	ضرب	ذكر
ضرب لضيفه خيمة	ضرب	أقام
ضرب له موعداً	ضرب	حدد
ضرب في الأرض	ضرب	سعى
ضرب ٥×٦	ضرب	حسب
ضرب أخماسا في أسداس	ضرب	ارتبك
ضرب النقود	ضرب	سك
ضرب عليهم ضريبة	ضرب	فرض
هذا ضَرْب من التخمين	ضَرْب	نوع

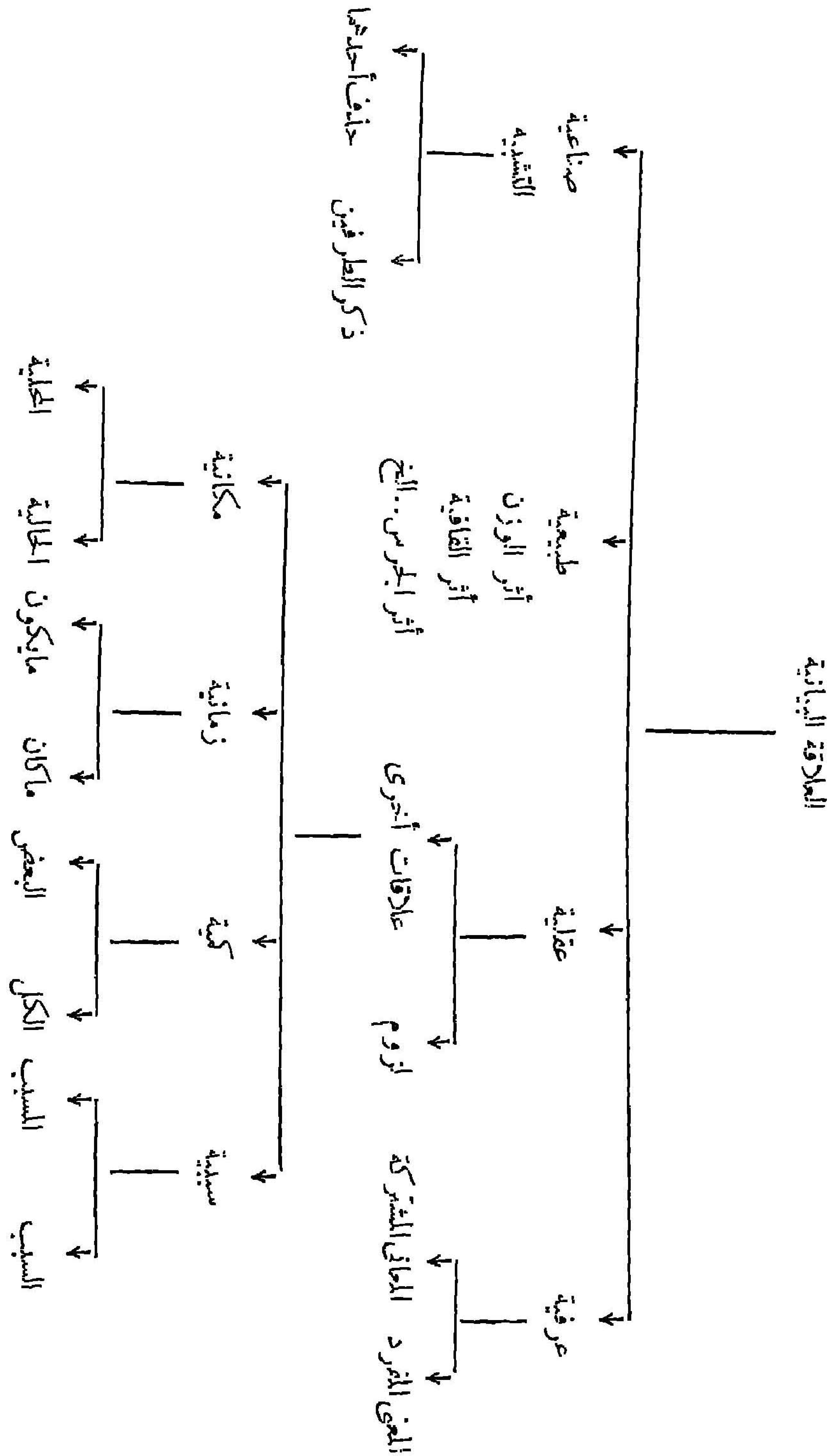
وليس معنى ذلك أن الضرب مشترك لفظى ، لأن هناك فارقا بين تعدد المعنى المعجمى كما وضحته الأمثلة السابقة وبين الأشتراك اللفظى . ويتضح هذا الفارق عند إفراد اللفظ . فإن نسبت إلى اللفظ المفرد معنى أصليا واحدا ونسبت غير هذا المعنى إلى تقلبات السياق فجملة المعانى فى تلك الحال من قبيل تعدد المعنى المعجمى أما إذا تبادر إلى ذهنك عند إفراد اللفظ معنيان أو أكثر فى وقت معاً فذلك مشترك لفظى نشأ الاشتراك فيه إما عن طول العهد بمجاز ما بحيث أصبح اللفظ لاصقا بهذا المعنى المجازى لصوقه بمعناه الأصلى ، وإما من أختلاف معانى اللفظ الواحد بأختلاف القبائل ، فحين قيده علماء الرحلة إلى البادية أثبتوا له كل المعانى المختلفة دون تمييز أو تخصيص بقبيلة ما ، وهكذا عرف المتأخرون اللفظ وله أكثر من معنى وقدوه مشتركا تبعا لما رآه علماء الرحلة »

والنقطة الثانية التى تستدعى النظر هى نوع العلاقة بين الكلمة المفردة وما ينسب إليها من معنى (وهذا هو المقصود بالعلاقات البيانية التى فى عنوان هذا المقال) . ولقد أشتغل علماء العلامات أو السمات أو كما يسمونها : « السيميولوجيا » بهذه العلاقة بين اللفظ وما ينسب إليه من معنى ، فكانت نظرتهم أوسع من النظرة اللغوية المحضة ، لأنهم نظروا فى السمات أو العلاقات فى جملتها أيا كانت طبيعتها (عرفية أم عقلية أم طبيعية أم صناعية) وتناولوا العلاقة بين العلامة ومعناها . ويحسن أن نشير هنا إلى أن مصطلحى العلامة والسمة من المصطلحات المستعمله فى التراث العربى. فكلنا يتكلم عن « العلامات » الإعرابية وابن مالك يستعمل « السمة » فى قوله عن نون الرفع : « وحذفها للنصب والجزم سمة » ولعل قرب الحروف أو اتحادها فى لفظى « السمة » و « السيميولوجيا » يبرر تعريب اسم هذا العلم إلى « علم السمات » و« علم الوسم » . ولقد يكون من المجدى أن نعرض تخطيطا لمجمل أنواع العلاقات هكذا :



العلاقة بين السمة والموسوم
عرفية
كعلاقات كلمات اللغة بمدلولاتها والزى القومى والعلم والنشيد بما يدل عليه
عقلية
كعلاقات المعالم والبراهين والاستنباط والاستنتاج.. الخ
طبيعية
كدرجة حرارة المريض وتأثير النغمة الموسيقية وحكاية الصوت للمعنى وأثر الإيقاع فى النفس .. الخ
صناعية
كأضواء المرور والكاريكاتير وكتابة بريل للعميان وطرق الاتصال بالصم البكم وصور الإعلان

وهذه الأنواع جميعا توجد بين الكلمات ومعانيها فى حدود تطبيقات علم البيان كما يبدو فى التخطيط التالى :



والنقطة الثالثة التى تستوجب النظر فى هذا الصدد هى مايسمى باسم « الحقول المعجمية » ، وقد أشرنا عند التعليق على عبارة « غضب الهواء على ضمير القمر » إلى أن كل لفظ من ألفاظ هذا التركيب قد تعلق بغير ماهو له من الألفاظ ، فكان ذلك إرهاصا بفكرة الحقول المعجمية .

ولقد توحى عبارة البيانيين فى وصفهم للمجاز العقلى بأنه « إسناد الفعل أو ما فى معناه إلى غير من هو له » بأن المسند إليه إما أن يكون ذا علاقة من نوع معين بالفعل أو ما فى معناه ، أو لاتكون له بها علاقة . ومعنى ذلك أن ألفاظ المعجم تقع فى طوائف ينسجم بعضها مع بعض فى نطاق التركيب أو لا ينسجم أو بعبارة أخرى هناك مايعرف باسم « الحقول المعجمية » . ومعنى أن يكون اللفظ فى حقل معجمى معين أن يتطلب مع الألفاظ المشاركة له فى الحقل نفسه شروطا خاصة فيما يرد معه فى التركيب من الألفاظ . فقد يتطلب الفعل فى فاعله أو مفعوله شروطا خاصة من حيث المعنى كما يتطلب ذلك كل مبتدأ فيما يخبر به عنه . فإذا تحققت هذه الشروط كان الإسناد إلى من هو له أما إذا لم تتحقق فالإسناد عندئذ إلى غير من هو له . فالفعل « فهم » مثلا يتطلب فاعلا يصح منه الفهم ومفعولا صالحا لأن يستوعبه الفهم كما فى (فهم التلميذ الدرس). فإذا قلنا (فهم الحجر) أو (فهمت الريح) أو (فهم السحاب) فقد أسندنا الفعل إلى غير من هو له . والعلاقة بين ألفاظ التركيب الأول (فهم التلميذ الدرس) علاقة « مناسبة معجمية » ، أما فى الأمثلة الأخرى فالعلاقة « مفارقة معجمية » .

إذا رجعنا إلى ماسبق من تخطيط فكرة التوارد والتفريع عليها ألفينا المفارقة المعجمية تتفرع إلى فرعين سمينا أحدهما « المفارقة المفتوحة » وسمينا الآخر « المفارقة المغلقة ».

ويلزمنا الآن أن نفرق بين نوعى المفارقة انكشف عن صلة كل منهما بموضوع هذا المقال (الإفادة والعلاقات البيانية) .

لقد سبق أن أشرنا عند الكلام عن العلاقات البيانية إلى أن العلاقة بين اللفظ ومعناه الأصلى (المعجمى) علاقة عرفية . فإذا سمع المرء لفظ « كتاب » أدرك فور سماعه ما اتفق الناس على قصده بهذا اللفظ . وكذلك الأمر بالنسبة لألفاظ أخرى مثل : بيت — رجل — امرأة — أب — أم — أخ — أخت الخ ، فلا خلاف بين الناس على فهم المقصود بكل من هذه الألفاظ . ولكن هذا المعنى المعجمى صالح أن يتعدد بسبب التوسع فى استعماله . فلا يمكن تحديد معناه عند تعدده إلا بواسطة التركيب الذى هو فيه ، أى بواسطة معطيات السياق ، أو كما أحب أن أسميها : « قرينة السياق » .

ولقد بدا هذا واضحا عندما عددنا معانى الفعل « ضرب » فى تراكيب مختلفة : واستنبطنا معناه فى كل حالة من قرينة سياق الكلام . وهكذا يصبح السياق عونا على الإفادة :

وهذه العلاقة العرفية تنعدم عند المفارقة المعجمية مغلقة كانت هذه المفارقة أم مفتوحة. فأما المفارقة المغلقة فتدخل فيما أطلق عليه سيبويه مصطلح « الإحالة » : وكذلك فيما يسميه تشومسكى فى أيامنا هذه : non-grammaticality . وذلك لعدم انسجام بعض ألفاظ التركيب مع البعض الآخر، كالذى نراه فى عبارة : (سأزورك بالأمس) أو (فخر عليهم السقف من تحتهم).

وبهذا النوع من المفارقة تنتفى الإفادة تماما : من حيث لانستطيع إجراء أى مصالحة بين ألفاظ التركيب بأى نوع من أنواع التأويل.

نصل عند هذه النقطة إلى ما أطلقنا عليه : المفارقة المعجمية المفتوحة ، لنرى كيف تتحقق الإفادة على رغم المفارقة بين ألفاظ التركيب . وإذا كانت المناسبة المعجمية تفترض التقاء المعنى الأصلى ذى العلاقة العرفية بمعنى لفظ آخر ، فإن هذا الالتقاء يمكن التعبير عنه بأن أحد اللفظين قد أسند إلى من هو له . فإذا قلنا : قرأ زيد الصحيفة ، فلا أعتراض على وقوع القراءة من زيد ولا على وقوعها على ما اشتملت عليه الصحيفة ؛ لأن من شأن زيد أن يتعلم القراءة فيحذقها . ومن شأن الصحيفة أن تشتمل على نص يقرأ. وهكذا تتحقق المناسبة المعجمية بين الألفاظ الثلاثة التى تكونت منها الجملة . فما الذى يحدث لو أردنا أن نحول هذه الجملة إلى صورة أخرى مثل : قرأ زيد أفكار عمرو ، ثم قصدنا بالأفكار مايدور فى خلد عمرو من تأمل وتدبر ؟ من الواضح عندئذ أن أفكار عمرو ليست مكتوبة فتقرأ : وإذا كان الأمر كذلك فإن بين لفظى « القراءة » و « الأفكار » مفارقة معجمية مفتوحة تستدعى التأويل . وإنما استدعت التأويل لأننا لم نجد فيها مايدعو إلى المسارعة بالرفض بتهمة الإحالة كما فعلنا بتركيب : غضب الهواء على ضمير القمر . أما كيف يتم التأويل فى هذه الحالة بالذات فذلك بأن نستبدل بالعلاقة العرفية بين « قرأ »ومعناها الذى يفهم منها على مستوى المعجم علاقة أخرى صناعية فردية غير عرفية ينشئها المتكلم ولايفهمها السامع إلا بقرينة ترصد للدلالة على إرادتها دون غيرها . تلك هى مانعرفه باسم علاقة المشابهة . ويمكن إيضاح ذلك على النحو التالى :

شبه المتكلم مطلق التبيّن بالقراءة التى هى تبيّن من نوع خاص : ثم حذف المشبه (مطلق التبين) وأقام المشبه به مقامه . ثم اشتق من القرأة « قرأ » بمعنى « تبيّن » على طريقة الاستعارة التبعية وقرينة إرادة المجاز مايترتب على إرادة الحقيقة من مفارقة بين لفظى « قرأ » و « الأفكار » .

ولكن العلاقة البديلة ليست صناعية دائما . بل إنها تكون عقلية في بعض الأحوال كما في الكناية والمجاز المرسل . هذه العلاقة العقلية يدركها العقل بحكم تكوينه ، لأنها من قبيل البديهيات . فإذا قلنا : « فلان كثير الرماد » كان على الذهن أن يجيب على سؤال ضمني وارد هو : لم كثر الرماد ؟ عندئذ يكون الجواب : لكثرة الإحراق . فيرد على الذهن سؤال آخر : ولم كثر الإحراق ؟ والجواب أنه كثر ضرورة كثرة الطبخ . فينتقل الذهن إلى سؤال غيره : ولم كثر الطبخ ؟ والجواب : لكثرة الآكلين . وأخيرا يرد سؤال يقول : ولم كثر الآكلون ؟ والجواب : لأن فلانا وسعهم بكرمه ، فهو كريم . فإذا عبرنا عن علاقة اللزوم برموز السهام هكذا (←) حصلنا على الصورة الآتية :

كثرة الرماد ← كثرة الإحراق ← كثرة الطبخ ← كثرة الآكلين ← الكرم

ولكن المرء يفضل دائما أن يضع المسألة في صورة معادلة طرفها الأول كل حالات اللزوم بالتفصيل السابق وطرفها الثاني (أي بعد علامة=) هو : كثير الرماد ← كريم . وهكذا تختصر معادلة اللزوم فيقال : «كثير الرماد أي كريم » . على أن ذلك إنما هو أقوى الاحتمالين في الكناية . أما الاحتمال الآخر فهو إرادة المعنى الأصلي (القريب) فيتحول المعنى إلى نطاق الحقيقة ويخرج من مجال الكناية ، وإدراك علاقة اللزوم لايفتقر إلى قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلي وسبب ذلك أن علاقة اللزوم عقلية والعلاقات العقلية مستغنية بنفسها عن القرائن . وإذا كان تحقق الإفادة هنا بالعقل (لا بالوضع) فقد حق لنا أن نعترض على إطلاق قول الجزولي : « المفيد بالوضع ».

وكذلك الحال بالنسبة إلى علاقات المجاز المرسل . فهي إما غائية (سببية أو مسببية) وإما كمية (كلية أو بعضية) وإما زمانية (ماكان أو مايكون) وإما مكانية (حالية أو محلية) . ومعنى أن هذه العلاقات عقلية أنها يمكن ردها إلى المقولات العشر المنطقية التي هي جزء من تركيب العقل . فالغائية يمكن ردها إلى مقولة « الإضافة » والكمية إلى مقولة (الكم) والزمانية إلى مقولة (الزمان) والمكانية إلى مقولة (المكان) . وهنا أيضا نعترض على عبارة : « المفيد بالوضع » .

ومع أن العلاقات العقلية تدرك دون حاجة إلى قرينة صارفة عن إرادة العلاقة العرفية (وقد مضت الإشارة إلى ذلك عند الكلام عن علاقة اللزوم ، نجد العلاقات في المجاز المرسل مدعومة على نحو ما بواسطة « المفارقة المعجمية المفتوحة » كما لو كانت هذه العلاقة صناعية . فإذا قلنا مثلا : « بنى الأمير المدينة » فليس من المقبول أن يشمر الأمير عن ساعديه في بناء المدينة (وهذه هي المفارقة بين «بنى» و « الأمير ») ولكن المتبادر إلى الذهن أن

يأمر الأمير عماله ببنائها (وهذه هي العلاقة العقلية أو علاقة السببية) . وإذا قلنا للسدن التي تعتمد على تحلية ماء البحر : « إن الناس شربوا ماء البحر » فلا يتصور من الناس أنهم استنفدوا ماء البحر (وتلك هي نقطة المفارقة) ولكنهم شربوا بعضه (وتلك هي العلاقة) . وإذا قلنا لطالب الطب : « يادكتور » فنحن نعلم أنه غير حامل لهذا اللقب (وتلك هي المفارقة) ولكننا نأمل أن يحصل على اللقب في المستقبل (وتلك هي العلاقة) . وإذا قلناه إن القصر العيني يقدم العلاج بالمجان » فالقصر بناء من أحجار لا يقدم علاجاً (وهذه هي المفارقة) وإنما يقدمه الأطباء الذين يتخذون من القصر مقراً لعملهم (وتلك هي العلاقة) . كل هذه المفارقات المعجمية واضحة في الذهن ترفد العلاقات العقلية وتجعلها أسرع إلى الفهم ، وإن كانت العلاقات العقلية كما سبقت الإشارة ليست بحاجة إلى قرينة .

والملاحظ الاعتراف للفظ بمعنيين أحدهما قريب والآخر بعيد إنما يكون في موضعين أحدهما الكناية والآخر التورية . فإذا قلنا : فلان مبسوط الكف فذلك كناية عن كرم فلان ، أما إذا أردنا بالكف « المنع » فإن العبارة تتحول إلى تورية عن البخل . والفرق بين الحالتين :

١ ــ أن لفظ الكف في الكناية قصد به راحة اليد لاغير . أما مع التورية فقد تحول لى مشترك لفظي يمكن أن يراد به راحة اليد والمنع .

٢ ــ أن الكناية تقوم على نسبة البسط إلى الكف (بواسطة التركيب الإضافي) وأن التورية تقوم على لفظ « الكف » فقط مع إمكان استبدال لفظ آخر بلفظ مبسوط مثل « طويل » مثلا .

٣ ــ أن الكناية يحكمها اللزوم العقلي فلا تحتاج إلى قرينة ولكن التورية يحكمها الاشتراك اللفظي ومن ثم تفتقر إلى القرينة .

نخرج مما تقدم بالحقائق الآتية :

أولا : أن تعريف الإفادة عند النحاة ليس جامعاً ولا مانعاً لأنه يربط الإفادة بعناصر غير عناصرها الحقيقية .

ثانياً : أن الإفادة لا تعتمد على « الوضع » فقط (أيا كان معنى الوضع) وإنما ترتبط بظواهر معجمية كالمناسبة والمفارقة لم ينتبه لها المتقدمون .

ثالثاً : أن الإفادة ذات درجات منها :

(أ) امتناعها بامتناع النمط نحو :

(على وقف الأمر زيد حلية) .

(ب) امتناعها بامتناع أصل الوضع نحو :
(حنكف الحعبور بقعاصة الكلابيص القيفانة) .

(ج) امتناعها بسبب المفارقة المغلقة نحو
(غضب الهواء على ضمير القسر)

(د) نقصها دون امتناع بسبب رداءة السبك نحو:

وما مثله فى الناس إلا مملك
أبو أمه حى أبوه يقاربه

ويقول الشاعر :

لن ما رأيت أبا يزيد مقاتلا
أدعَ القتال وأترك الهيجاء

للفصل بين (لن) و (أدع) بتركيب مصدرى ظرفى ولأن (لن ما) تسمع على صورة (لمّا) .

رابعاً : أن الإفادة يمكن أن تتم بغير المعنى الأصلى (الذى بأصل الوضع) للكلمات :

(أ) إما بواسطة علاقة عقلية لا تتطلب قرينة كما فى الكناية .

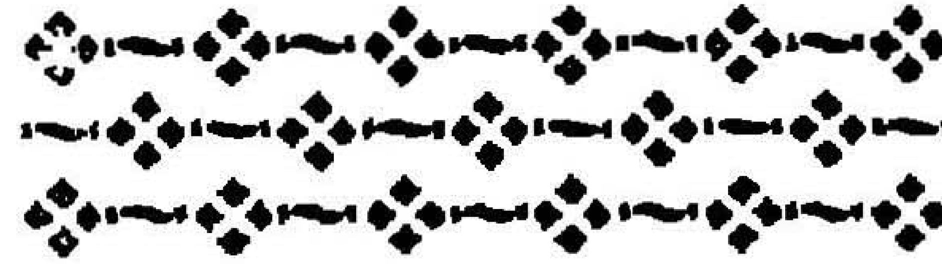
(ب) وإما بواسطة علاقة صناعية (المشابهة) تعتمد على قرينة تحل مشكلة اشتمال التركيب على مفارقة معجمية مفتوحة ، أو تحول بين التركيب وبين اللبس .

إذا أخذنا فى الحسبان كل ذلك أمكننا أن نقول مع ابن مالك : « كلامنا لفظ مفيد » أما إذا غفلنا عن هذه الأمور فإن الإفادة قد لا تتحقق فى الكلام .

والله ولى التوفيق .

تمام حسان

عضو المجمع



الأثر الإسلامي في شعر الهوسا
(الأثر القرآني)
للدكتور مصطفى حجازى

القرآن كتاب الله الكريم : أنزله على سيدنا محمد ﷺ ليكون نورا وهدى للعالمين . به تقام الصلوات : ويتعبد بقراءته : لذلك كان على كل مسلم ومسلمة أن يحفظ شيئا منه .

كما ينتشر حفظ القرآن فى غرب إفريقية عامة : وفى بلاد الهوسا بصفة خاصة ، فكثير منهم يحفظونه ، ويستوى فى ذلك من يعرف اللغة العربية ومن لايعرفها ؛ ويقوم العلماء بشرح معانى القرآن الكريم لمن لايعرف اللغة العربية : وقد قام الحاج أبوبكر جومى بشرحها بلغة الهوسا وقامت رابطة العالم الإسلامى بطبع الشرح وتوزيعه .

وينتشر حفظ القرآن بين من يتلقون العلم فى الكُتّاب .أو فيما يعرف بلغة الهوسا « مدرسة المنزل . Makarantar Gida » حيث يتلقى الطفل فيها القرآن الكريم ، وما تيسر من علوم الدين : ينتقل بعدها إلى المدارس الإسلامية التى تعادل المعاهد الأزهرية فى مصر . وتنتشر الكتاتيب والمدارس الإسلامية فى بلاد الهوسا انتشارا كبيرا ؛ وأكثر كتاب الهوسا وشعرائهم من خريجى هذه المدارس ، لذلك حفظوا القرآن وظهر أثره فى أسلوبهم وكتاباتهم .

ونلاحظ أن صور تأثر القرآن على شعر الهوسا يتنوع تنوعا كبيرا فهو أحيانا تأثر بالمعنى ، وفى أحيان أخرى تأثر ببعض المفردات القرآنية الباهرة ، وفى أحيان كثيرة يحتذى النسق القرآنى ، ويتفنن فى هذا الإحتذاء ، وقد يكون التأثر مجرد استلهام لبعض الآيات أو سور القرآن وأفكاره .

وفى كل الأحيان يبدو التأثر العميق بالروح الدينى العام الذى يتوهج فى شعرهم جمالا وروعة : ويظهر تأثر النسق البلاغى للقرآن الكريم .

ومن صور التأثر بالمفردات استعمال بعض الكلمات العربية التى يكاد استعمالها يكون مقصورا على القرآن مثل كلمة « تبارك » و « الكوثر » و « الثقلان » و « وقرن » .

ترد كلمة « تبارك » كثيرا فى القرآن الكريم بمعنى تعالى وتعاظم . صفة لله سبحانه وتعالى .

يقول تعالى فى سورة الملك « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير » آية — ١ .

ويقول تعالى « تبارك الذى نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا » الفرقان — ١

ويقول « تبارك الذى جعل فى السماء بروجا ، وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا » الفرقان — ٦١

ويقول « تبارك الذى له ملك السموات والأرض ومابينهما » الزخرف — ٨٥

ويستعمل شعراء الهوسا كلمة « تبارك » فى نفس المعنى الوارد فى القرآن الكريم ، فيقول الشاعر نائب سليمان والى فى قصيدة له بعنوان Wakar Damina (١) أى شعر الفصل المطير ، يصف الله سبحانه وتعالى بهذه الصفة فيقول :

Kome yana yi mai ma'ana

كل مايفعل ذو معنى

Don hikimominsa Rabbana

لأنه ربنا ، حكمه

Masu yawa ko a koina

كثيرة فى كل مكان

Tabaraka Sarkin sarakuna

تبارك ملك الملوك

Ya sa ni'imomi ga damina

جعل النعم فى الفصل المطير

ويقول فى نفس القصيدة (٢)

Na gode Allah ubangiji

أشكر الله الرب

Wanda ya ba ni gani da ji

الذى وهبنى البصر والسمع

Ya ba ni tunani aji-aji

وهبنى التفكر السليم

Tabaraka na roki agaji

تبارك أسأله العون

ka ba ni hazzi da damina

هبنى الحظ فى الفصل المطير :

ويقول صالح كونتاجورا فى قصيدة له بعنوان « شعر شئون الحياة » (٣)

Wakar Sha'anonin Duniya

Jama'a ku taho mu yi godiya

أيها الناس هيا نشكر

Gun wanda ya mallaki duniya

لدى من يملك الدنيا

Da kasa da ruwa da saman bakwai

(١) Wakokin Hausa p. 4

( ) Wakokin Hausa p. 9

(٣) Salihu Kwantagora Kimiyya Da Fasaha p. 29.

والأرض والماء والسموات السبع

Kome ka gani duk ɗuniya

كل ماترى فى كل الدنيا

Ba wanda ya yo shi ka tabbata

تأكد أنه لم يخلقه

Sai *Tabaraka* Sarkin Gaskiya

إلا ملك الحق تبارك

ووردت كلمة « الكوثر » فى القرآن الكريم مرة واحدة ، وقد سميت السورة باسمها ، وهى سورة الكوثر ، يقول تعالى « إنّا أعطيناك الكوثر : فصلّ لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر » .

والكوثر نهر فى الجنة امتن الله على سيدنا محمد بتخصيصه به وبأمته يوم القيامة . وقد ورد اسم هذا النهر على ألسنة كثير من شعراء الهوسا ، فيقول الشاعر على لسان «مادبو» —وهو من علماء الدين— فى معرض(١) ذكر المحرومين من ورود هذا النهر يوم القيامة :

Shi ne ya ce da maaje sha tara

هو الذى قال عن الرجال التسعة عشر

An hana musu shan *Alkausara*

الذين منعوا من شرب ماء الكوثر

Maki zumunta ya je za shi sha

ناكر الأخوة ذهب ليشرب

An ce tsaya can kada ka iso nan

فقيل له قف هناك لا تقرب هنا

Maki zakkan Fidiri an ce tsaya

ناكر زكاة الفطر قيل له قف

Ba naka ne ba wurin yau dangana

لامكان لك اليوم انتظر

Da mai zagin suruki nasa kun jiya

وتسمعون لاعن حماه

Sai shi zage nesa da *kausara*

وهو يطرد بعيداً عن الكوثر

وقال الله تعالى مخاطبا نساء النبى فى سورة الأحزاب يأمرهن بالإقامة فى البيت وعدم التبرج « وقرن فى بيوتكن ولاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى » آية ٣٣

ويخاطب الشاعر الهوساوى أهل البدعة : وهم فى نظره الذين يقرأون قوله تعالى مخاطبا النساء قائلا « وقرن » ولايفرضون الحجاب على زوجاتهم بحجة عدم وجود الجوارى اللاتى يجلبن الماء له من البئر أو يحتطبن له من الغابة يقول (٢) :

Sun ga aya sun ki fadi nata

يرون الآية ويرفضون قولها

Sun yi mata sun ki tsari nata

(١) Gangar wa'azu p. 13.

(٢) Gangar wa'azu P. 6

يتزوجون المرأة ويرفضون حجابها

Wanda ya ki tsarin mata tasa

من يرفض حجاب زوجته

Da shi da sarki suke gardama

يكون هو والملك فى خلاف

Ya ce *wakarna* ya kada kai nasa

قال وقرن ، فهز رأسه

Ba ni bawa ba na yin tsari

لا أملك العبد ، فلا أطبق الحجاب

Ba kuyanga da zata dauko ruwa

لا توجد الجارية التى تجلب الماء

Ta je ta dajita dauko min ice

وتروح الغابه لجلب الحطب

ووردت كلمة « الثقلان » فى القرآن الكريم حيث يقول تعالى فى سورة الرحمن « سنفرغ لكم أيها الثقلان » آية ٣١

والمقصود بالثقلين هما الإنس والجن ، وهى لم ترد فى القرآن إلا فى هذه الآية فقط ، ويندر استعمالها فى اللغة العربية ، ومع ذلك وردت فى شعر الهوسا ، حيث يقول معاذ هطيجا فى قصيدة (١) له يتحدث فيها عن النميمة واللواط والشر ؟

Allah ka ba ni fasaha mai yawan hikima

اللهم هبنى الفصاحة كثيرة الحكمة

Kai ne Hakimo Gwəni Hannanu Mannanu

فأنت الحكيم المبدع الحنان المنان

Baiwarka inda Kake so nan kake yinta

هبتك حيث تريد تضعها

A gare ka nan na fake ban roki *sakalanu*

إليك ألجأ ولا أسأل الثقلين

Sakalanu su ma gare ka suke bida Rabbu

الثقلان أيضا يطلبان الرزق لديك : ربّ

Duk ajizi wata rana zai yi Kaulanu

الكل عاجز ويوما ما يسألانك

In na bida a wurin *Sakalanu* don wata rana

إذا طلبت من الثقلين يوما ما

Suka ce da ni babu yaya zan yi Dayyanu ?

سيقولان لى — لا يوجد فكيف أفعل ياديّان

Tilas in roke ka don kai ba ka kasawa

لا بد أن أسألك لأنك لا تعجز

Kuma ba ka tabar da mai rokonka Rahamanu

ولاترد أبدا سائلك يارحمن .

* * *

(١) Wakokin Mu'azu Hadeja P. 35

وتسيطر عليهم فكرة تضمين أشعارهم مجموعة من التراكيب القرآنية ، ويؤكد هذا تأثرهم العميق بالقرآن الكريم : لا من حيث معانيه فحسب ؛ ولا من حيث صوره البلاغية ؛ ولكن بكل هذه الأشياء ، فهو الدستور الأسمى أمامهم الذي يضمن لشعرهم الرفعة والانتشار والتأثير .

والتأثير والتأثر في الشعر الهوساوي بالقرآن الكريم لا يقتصر على مجرد المعاني ، ولكن يصل الأمر إلى احتذاء الصياغة القرآنية وتراكيب الجمل ونسج العبارات :

ومن صور هذا التأثر استعمال العبارات القصيرة التي ترد في القرآن مثل « إن شاء الله» إذ على المسلم أن يقدم مشيئة الله قبل كل شيء ، يقول في سورة الكهف « ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله »آية — ٣

ويقول تعالى على لسان سيدنا أسماعيل في سورة الصافات « قال يا أبت افعل ماتؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين» آية — ١٠٢

ويقول في سورة الفتح « لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون » آية — ٢٧

ويقول سعد زنجر في قصيدة له بعنوان(١) « الشمال جمهورية أم ملكية »

"Arewa Jumhuriya Ko Mulukiya" داعيا الله أن يبقى الشمال على النظام الملكي في ظل أعلام رجال الشيخ عثمان بن فوديو :

Zaku rera fadar da na - sani

ستنطقون كلمة الندم

Da na bi jawabin Gaskiya

ويا ليتنا اتبعنا كلام الحق

Allah ya tsare ku fadar haka

وقاكم الله من هذا القول

Ya kiyaye Arewa gaba daya

وأن يحفظ الشمال جميعا

Tutocin shaihu Mujaddadi

أعلام الشيخ المجدد — عثمان

Dada ba su Zama jumhuriya

أبدا لن تكون جمهورية

In sha Allahu Mu tsarkake

إن شاء الله نتطهر

Bisa fatan zamu bi gaskiya

على أمل أن نتبع الحق

وترد عبارة « سبحان الله » في القرآن الكريم كثيرا يقول تعالى في سورة يوسف « وسبحان الله وما أنا من المشركين» آية ١٠٨

---

(١) Wakokin Sa'adu Zungur p. 21

ويقول فى سورة الأنبياء «فسبحان الله رب العرش عما يصفون » آية ٢٢ ؛

ويقول فى سورة الروم « فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون » آية ١٧ .

وعلى المسلم أن يسبح الله عقب كل صلاة ؛ ولذلك نجد هذه العبارات الدينية ترد كثيرا فى شعر الهوسا .

يقول نائب (١) سليمان والى فى مطلع قصيدة له بعنوان « تحذير للعامة »

Gargadi Don Falkawa
Subuhanalahi me za na ce

سبحان الله ماذا أقول .

Zamanin nan namu ya rikici

زماننا هذا تغير

Mahankalta sun haukace

العقلاء تجننوا :

Ma biya sunna sun dau fice

متبعوا السنة أتبعوا البدعة

Likitan cuta mai magani

طبيب المرض مالك الدواء

Cuta ta ka da shi zai mace

غلبه المرض وكاد يموت

وفى قصيدة طويلة للحاج مودى سفيكن يصف فيها رحلته ومروره بكثير من البلاد يقول :

Mun tashi mun jihar gabas ba karkace

؛ قمنا وتوجهنا شرقا مباشرة (٢)

Subuhanahu Allahu ba shi da Kishiya

سبحانه الله لاشريك له

Bayan magarba mun iso Birnin Masar

بعد المغرب وصلنا مصر

وردت عبارة « الحمد لله » فى القرآن الكريم كثيرا ، منها قوله سبحانه وتعالى فى سورة الأعراف « وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وماكنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » آية ٤٣ ؛

وقوله تعالى فى سورة ابراهيم « الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق إن ربى لسميع الدعاء » آية ٣٩ .

وقوله تعالى فى سورة الكهف « الحمد لله الذى نزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا » آية ١ ؛

(١) Wakokin Hausa, p.1
(٢) Tsofaffin wakoki Mudi Sipikin p. 36

ونجد هذه العبارة ترد كثيرا على لسان شعراء الهوسا يقول سعد زنجر في نهاية(1) قصيدة له بعنوان Wakar 'yan baka

Alhamdulillahi mun i da sako

الحمد لله بلغنا الرسالة

Muna garga din dangari har da bako

أنذرنا ابن البلد والغريب

ويقول معاذ هطيجا في قصيدة له (2) يتحدث فيها عن بعض العادات الخلقية السيئة المنتشرة في بلاده :

Alhamdu lillahi waka ta yi tasiri

الحمد لله ترك الشعر تأثيرا

Farko da karshe da sunan jalla Rahamanu

أولا وأخيرا باسم الرحمن جل

Na roki Allahu rizkan dini wadduniya

سألت الله رزق الدين والدنيا

Hatams sa'adati den mu cika da imanu

ختم السعادة نموت على الإيمان

Allah kiyaye mu sharrin masu yin sharri

اللهم احفظنا من شر الأشرار

Mutum da aljan da tsuntsaye da hayawanu

إنس وجن وحيوان

ويقول صالح كونتاجورا في نهاية قصيدة له يتحدث فيها عن قدرة الله وعظمته(3) بعنوان « الأرض خلق الله فاقت كل شئ غرابة .

Kasa aikin Jalla ta fi kome ba da mamaki

Alhamdu Lillah ya *Allahu*

الحمد لله يا الله

ka ba mu yalwarka ya Allah

هبنا ثراءك يا الله

Ka haskaka mana ya Allah

افتح علينا يا الله

ويقول الحاج مودي سفيكن في(4) قصيدة له يتحدث فيها عن رحلته إلى الأماكن المقدسة ووصوله إلى مدينة كانو بعد هذه الرحلة .

Alhamdulillahi na gode Allah

الحمد لله أشكر الله

Na kuma na gode Azza wa Jalla

وأشكره عز وجل

Ya sa na yiwo Hajji ba wahala

جعلني أحج بلا تعب

---

(1) Wakokin Sa'adu Zungur p. 13.

(2) Wakokin Mu'azu Hadeja p. 39

(3) Salihu Kwantagora p. 49

(4) Mudi Sipikin p. 58

Ba rigima Kuma ba wata illa

بلا مشاكل ولا خطأ

Alhamdulillahi sai godiya

الحمد لله لا يجب إلا الشكر

وقد ترد عبارة « الحمد لله » مسبوقة بالباء يقول على بن سيدى أمير « زَزّو » فى مطلع قصيدة (١) له بعنوان

Mu sha Falala

أى نال الفضل .

Bismil lahi na fara

بسم الله بدأت

Ga farko har zuwa kara

من البداية حتى النهاية

Bihamdillahi nai shukura

بحمد الله اشكر

Shi yai mu rahimum ya tara

رحيم خلقنا وجمعنا

وقد ترد عبارة « الحمد لله » مسبوقة بحرفى « الواو » والباء »

يقول الشاعر فى نهاية القصيدة (٢) السابقة

Tamat *wabihamdillahi*

تمت وبحمد الله

Salatu salam minallahi

صلاة وسلام من الله

wa husnul auni lillahi

وحسن العون لله

Su tabbata gun Rasulullahi

ثبتت لرسول الله

Da Alu da sahabu don falala

والأهل والصحب بفضل (الله)

ومن أهم أركان الإسلام « شهادة ألا إله إلا الله » وقد وردت فى القرآن الكريم كثيرا ، يقول تعالى فى سورة محمد « فأعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك » آية ١٩

ويقول تعالى فى سورة الصافات فى معرض حديثه سبحانه وتعالى عن الكافرين « إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون » آية ٣٥

وتتردد هذه الشهادة فى شعر الهوسا فيقول مودى سفيكين فى قصيدة له يتحدث فيها عن رحلته (٣) لأداء فريضة الحج :

Suna ce ku tashi ku ba da farilla

يقولون قوموا أدوا الفريضة

Ku tayar da himma ku daina kasala

أيقظوا لهمة ودعوا الكسل

Suna ta tsayaw a ku jeku yi salla

يستعدون للصلاة . اذهبوا وصلوا

(١) Wakokin Hausa p. 10

(٢) Wakokin Hausa p. 10

(٣) Mudi Sipikin p. 45

Ya 'yan'awa *La'ilaha illalla*

يا أخوتى لا إله إلا الله

Ai Makka nan ne garin gaskiya

ها هنا مكة مدينة الحق

ويقول فى قصيدة يرثى فيها الحاج عبدالله بايرو أمير « كانو »: (١)

Haske ya zo aka kori jahala

جاء نور العلم — وطُرد الجهل

Cikin Zamani nasa ba wata illa

فى عصره انعدمت الجرائم

Mu wo zikiri *La ilaha illala*

نذكر لا إله إلا الله

Mu mun ji dadi cikin zuciya

وشعرنا بالسعادة فى القلب

ويصف الله سبحانه وتعالى القرآن فى سورة الواقعة فيقول « إنه لقرآن كريم فى كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون » آية ٧٩

ويقول الشاعر الهوساوى (٢) أن كتاب الله إذا أخذه الجنب كان سببا فى حدوث المجاعة ونقص الأمطار لأنه لا يمسه إلا المطهرون

Daukan kitabi lahi da janaba

أخذ كتاب الله مع الجنابة

Shi ma yana sa ai tsananin fari

يسبب شدة القحط كذلك

Layamasu hu illa mudaharuna

لا يمسه إلا المطهرون

Ayan dalilin hanin dauka nasa

آية تدل على منع أخذه

ويحث الله المسلمين على ذكره كثيرا فيقول تعالى فى سورة الأنفال

« يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله لعلكم تفلحون » آية ٤٥

ويقول تعالى فى سورة الأحزاب « يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا » آية ٤١

ويقول تعالى فى سورة الجمعة « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » آية ١٠

ويقول معاذ هطيجا فى قصيدة له بعنوان « بر الوالدين » (٣) Birrul walidaini

Arziki ba shi baka'u

ليس للرزق بقاء

Sai da Kauna da raja'u

إلا بالمحبة والرجاء

Don mu raya su'ada'u

لكى نحيا سعداء

---

(١) Mudi Sipikin P.20

(٢) Gangar Wa'azu P. 9

(٣) Mu'azu Hadeja P. 21

Najidul haira jaza'u

نجد الخير جزاء

Na ga birrul walidaini

فى برالوالدين

Wazkurullaha Kasira

واذكروا الله كثيرا

Mai irada duk da kudura

ذا الإرادة والقدرة

Babu waye da basira

لاذكاء ولا بصيرة

Babu Kaifi da dabara

لا قوة ولا حيلة

Sai da ikon Rahmani

إلا بقدرة الرحمن

ويقول سبحانه وتعالى فى سورة الكهف « ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله » آية ٣٩

ويقول معاذ هطيجا فى نهاية (١) قصيدة له بعنوان « Karuwa » أى المومى

Tamat na kare wakata

تمت : انهيت شعرى

Na gargadi ja'irar mata

فى تحذير النساء الحائرات

Wala havla wala Kuwwat

ولا حول ولا قوة

Illa billahi ba wani ba

إلا بالله لا غير

ويقول تعالى فى سورة النور « الزانى لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك وحرم ذلك على المؤمنين » آية ٣

وفى هذا المعنى يقول الشاعر(٢) متحدثا عن جريمة الزنا :

Aibun zina da na tsafi daidai

جريمة الزنا والسحر متساويتان

Fada wa kowa ni na gaya maka

قل للجميع ، فانى قلت لك

Mai zina an yi masa mata

لو الزانى زوج امرأة

Matsafiy ita ce mata tasa

كانت الساحرة زوجته

In an ga mace mazinaciya

إذا رؤيت امرأة زانية

A can a nuna matsafi ne miji nata

هناك الساحر زوجها .

Azzaniyatu la yankihu her illa zani

الزانية لا ينكحها إلا زان

Au mushriki aya ta Alkur'ani ta fadi

أو مشرك تقول آية القرآن

* * *

(١) Mu'azu Hadeja P. 30

(٢) Gangar wa'azu P. 12

وكان هذا التأثير يأخذ صورا متعددة فلم يكن مقصورا على تضمين شعرهم آيات كاملة من القرآن الكريم . بل كانوا يأخذون بعض العبارات والتراكيب ويتفننون في صياغتها في شعرهم . ومن أمثلة ذلك قوله تعالى يصف نفسه في سورة الشورى « فاطر السموات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه : ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » . آية ١١

أخذ الشاعر الهوساوي من هذه الآية الكريمة عبارة «ليس كمثله شيء» وأوردها في شعره »(١) يقول معاذ هديجا في نهاية قصيدة له بعنوان

Tutccin shaiku da waninsu

Ya haliku Dayyanu

ياخالق ياديان

Ubangiji Rahamanu

رب رحمن

Mun bidar imanu

نطلب الإيمان

Fid duniya waddini

في الدنيا والدين

Bijahil abin biya

بجاه المتبع — الرسول

Tammat bi hamdillahi

تمت بحمد الله

summa bi fathillahi

ثم بفتح الله

summi bi aunillahi

ثم بعون الله

Laisa Kamislihi

ليس كمثله

ويقول في قصيدة أخرى بعنوان(٢) مدح الله

Yabon Ubangiji

Huwa Halikud dayyanu *laisa Kamisilih*

هو الخالق الديان ليس كمثليه

Shike da iko batu mai iko da shi

هو القادر ولا يوجد من يقدر عليه

Shike da girma babu wanda ya kai shi

هو العظيم الذى لا يصل لعظمته أحد

Dukkan mutum mutakabbiri karya shi ke

كل إنسان متكبر كاذب

Ya san da wanda ya fi shi wanda ya yi shi

لأنه يعرف أن من خلق يفوقه

Alkibriya'u li Rabbana sifatun bihi

الكبرياء لربنا صفة به

Duba cikin Ta'alimu a same shi

ابحث في تعاليمه تجد هذا

(١) Mu'azu Hadeja P. 10

(٢) Mu'azu Hadeja P. 23

ويقول تعالى فى سورة الحاقة فى معرض الحديث عن يوم القيامة « فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابى » آية ١٩

ويقول تعالى فى سورة الإنشقاق « فأما من أوتى كتابه بيمينه . فسوف يحاسب حسابا يسيرا » آية ٨-٧

أخذ الشاعر قوله « كتابه بيمينه » وصاغها فى شعره وجعلها مكملة للمعنى يقول معاذ هطيجا[١] فى قصيدة له بعنوان مدح الله "Yabon Ubangiji"

Kowa abin da ya aikata ran lahira

كل ما فعل الإنسان يوم الآخرة

Rannan ake jimla a ba shi abin shi

فى هذا اليوم يحصى ويعطى جزاءه

Wani za'a ba shi *Kitabihi biyaminihi*

شخص سيعطى كتابه بيمينا

Wannan rabon Alijanna ne a garc shi

هذا نصيبه الجنة :

Allahu ka Kaddara namu ma *biyamminina*

اللهم قدر كتابنا بيمينا

Wa bihurmatit Tijani don kakanshi

وبحرمة التيجانى وجده

ونفس الشاعر[٢] يستعمل كلمة « يمين » مسبوقة بالفاء فيقول :

Rabbana ran auna aiki

ربنا يوم وزن العمل

Ban takardata ta kirki

اعطنى كتابى الحسن

Fi yamini don Ma'aiki

فى يمينى لأجل الرسول

'Yan 'uwana da aboki

واجعل — أخوتى والصديق

Mu yi barci a Janani

ننام فى الجنان

ويقول تعالى فى سورة « الزلزلة » فى معرض حديثه عما يفعل الإنسان « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره : ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » آية ٨-٧

أخذ الشاعر من هذه السورة قوله تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة » وجعلها مكملة للمعنى حيث يقول معاذ هطيجا فى قصيدة له[٣] بعنوان « "Ilmin Zamani" » أى العلم الحديث

---

(١) Mu' .zn Hadoja P. 3

(٢) Mu'azu Hadeja P. 21

(٣) Mu'azu Hadeja P. 12

Ka sani duk abin da mutum ya yi

اعلم أن كل ما يفعل الإنسان

Kansa zai hau babu ruwan wani

عليه سيقع ولا شأن لأحد

In hairi' hairi zai gani

إن خيرا ، خيرا سيرى

In ko sharri, sharri zai gani

وإن شرا ، شرا سيرى

Famun ya'amal miskala zar

فمن يعمل مثقال ذرّ

rati can a Izazul kun sani

ة ، تعرفون — وردت — فى الزلزلة

Allah shi ne masanin abin

الله هو عالم بما

Da yake fili da na badini

يكون فى الظاهر والباطن

Kullu shai'in la yahafa alai

كل شئ لا يخفى عليه

hi Alimun ko da kankani

ه ، عالم بالأمر مهما صغُر

ويأخذ نفس الشاعر من نفس السورة قوله تعالى « فمن يعمل » فقط ويصيغها فى قصيدة له يتحدث فيها عن الخمر « شعر الخمر(١) wakar Giya

To am muku gargadi ko ku dauka

حسنا ، انذركم لعلكم تنتبهون

Ko ku ki Kan fadin gaskiya

أو ترفضون قول الحق

Lakin alhakku tazharu yauman

لكن الحق يظهر يوما

La malun wala duniya

لا مال ولا دنيا

Ga musulmi hasatan wanda addi

للمسلم خاصة الذين الد

ni ya hana su karbar giya

ين منعهم شرب الخمر

Kome suka aikata duniya

كل ما عملوا فى الدنيا

Faman ya'amal tana nan cikin

فمن يعمل وردت هنا فى

Kur'ani mai fadin gaskiya

القرآن قائل الحق

Ka bata kudi ka bata mutunci

تفسد المال وتفسد الإنسانية

ويقول تعالى فى سورة المائدة فى معرض وصفه للمؤمنين « يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم» آية ٥٤

يأخذ الشاعر قوله تعالى « لومة لائم » ويجعلها مكملة لحديثه عن الخمر ومن ينهون عنها فيقول معاذ هطيجا فى القصيدة السابقة(٢)

(١) Mu'azu Hadeja P. 48

(٢) Mu'azu Hadeja P. 44

Allah ka tsare musulmi ga anna

اللهم احفظ المسلم من نشرة

shuwar banza ta karbar giya

شرب الخمر الكاذبة

Ba shanta ba ko mu tara wurin

لا نشربها ولا نجتمع فى مكان

Hira da mutum mashayin giya

سمّر مع شارب الخمر

Mu ba mu kula da *laumata la*

ولانهتم بلومة لا

imu ، mai zargi mashayin giya

ثم ، ملعون شارب الخمر

وردت عبارة « حدود الله » فى القرآن الكريم كثيرا . منها قوله تعالى فى سورة البقرة « تلك حدود الله فلا تقربوها » آية ١٨٧ ويقول تعالى فى نفس السورة « تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » آية ٢٢٩

يأخذ معاذ هطيجا عبارة « حدود الله » ويستعملها فى معناها الوارد فى القرآن فيقول فى قصيدة له بعنوان « الحقيقة لا تغير شعْرها (١)

"Gaskiya Ba ta Saka Gashi"

Bin Allah shi ne babban bi

اتباع الله هو أعظم اتباع

Kuma sai ka bi wanda ya haife ka

ويجب أن تتبع من أنجبك

Ka kiyaye *hududullahi* suna

واحفظ حدود الله فهى

Nan amru da nahayu suna kanka

أمر ونهى واجب عليك

* * *

ومن صور التفنن فى استخدام كلمات القرآن الكريم ، أنهم يأخذون بعض الكلمات ويضعونها فى أوائل أبياتهم أو فى سياقها ؛ فتبدوا متناسقة مع سياق القصيدة ؛ ولكن لو قرأت الكلمات الأولى من القصيدة لأعطتك آية كاملة وهكذا .

وعلى الرغم من أن هذا التأثر لايعطى للقصيدة قيمة فنية أو جمالية . إلا أنه يدل على مدى التفنن والتأثر بالنسق البلاغى للقرآن الكريم . فمثلا قوله تعالى فى سورة الأعراف « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » آية ٢٠٤

يذكر الشاعر كلمة « فاستمعوا » فى صدر البيت ويشرح معناها ثم يذكر قوله تعالى « وانصتوا » فى صدر البيت الثانى ويشرح معناها يقول الشاعر فى "Gangar waazu" «بحث المسلمين على الإستماع والإنصات حين الجلوس فى المسجد والسير خلف الجنازة ، وقراءة(٢) القرآن .

(١) Mu'azu Hadêja P. 24

(٢) Gangar Wa'azu p. 8

Fitinu da za'a yi malam ya ce mana

قال لنا العالم عن الفتن التى ستحدث

Sai malamen sunna ba su saura ba

حيث يختفى علماء السنة

Allah ta'ala mun roke ka

اللهم تعالى نسألك

Kada ka kai mu wadannan kwanuka

ألا تريِنا هذه الأيام

Fastami'u kun ji Aya ta fadi

فاستمعوا سمعتم الآية تقول

Wansutu ka kawaita wuri uku

وانصتوا فى ثلاث أماكن

Cikin masallaci da jana'izai

فى المسجد وخلف الجنائز

Wurin Karatu ba a zantuka

وحيث قراءة — القرآن — لا يُتكلم

ويقول تعالى فى سورة « النساء » أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » آية ٥٩

وفى هذا المعنى يقول معاذ هطيجا فى قصيدة له بعنوان الحقيقة لا تغير شعرها (١)

Gaskiya Ba ta sake Gashi

Abin da ka shuka don ka sani

لتعلم أنه ما تزرع

Shi ne ka tsirowa gonarka

هو ما تزرعه فى مزرعتك

In hairi, hairi zaka gani

إن خيرا : خيرا سترى

In sharri, sharri zai bi ka

إن شراً . شرٌّ سيتبعك

Wa adi 'ullaha fadar Allah

وأطيعوا الله قول الله

Kuma girmama wanda ya girme ka

واحترم من يحترمك

Ka girmama Allah da Ma'aiki

وعظّم الله والرسول

Da iyaye duk da sarakinka

والوالدين جميعا والرؤساء

Wa'ulul amri minkum duba

وأولى الأمر منكم . انظر

Ka kiyaye fadar Mahaliccinka

واحفظ قول خالقك

ويقول تعالى فى سورة آل عمران « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم . فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » آية ١٧٣

ويقول تعالى فى سورة الأنفال « وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم : نعم المولى ونعم النصير » آية ٤٠

ويقول فى فاتحة الكتاب « إياك نعبد وإياك

---

(١) Mu'azu Hadeja P. 24 ، 25

نستعين » ويقول سعد زنجر فى قصيدة(١) له يتحدث فيها عن البدعة ، ويحث الناس على تركها .

To dan'uwa sai ka jure kuma ka dâu hakuri

حسنا ، يا أخى يجب أن تتحمل وتصبر

Bisa gargadin jama'ammu su daina yin bidi'a

على إنذار الناس ليتركوا البدعة

Dukan masibar da ta auka wa addini

كل مصيبة تحدث للدين

Tushenta ko yi da kakannin mutun bidi'a

أصلها عمل الأجداد . أهل البدعة

Duba ga nassi ka zam koyi da manzanni

انظر النص تتعلم من الرسل

A kan jidali da al'adu na 'yan bidi'a

المجادلة والرد على عادات أهل البدعة

Fa'in tawallau idan suka soma baudêwa

فإن تولوا : إذا بدأوا الإنحراف

Suka juya baya ga ma'anar kamilar dâ'a

وأعطوا ظهورهم لمعانى كامل الطاعة

Su je da niyyarsu mu dai hasbunal lahu

فليذهبوا بنيتهم ونحن حسبنا الله

Wani'ima ، madalla mai tanyon dukan jama'a

ونعم ، الحمد لله معين كل الناس

Ni'imal wakilu ، mu dogara gunsa ba tsoro

نعم الوكيل ، نعتمد عليه بلا خوف

Ni'iman nasiru ، bisa kan taimakon jama'a

نعم النصير : على مساعدة الناس

Iyaka na'abudu ، bauta wadda ba shirku

إياك نعبد ، عبودية بلا شرك

Iyaka kuma *nasta'inu*, a kan gudun bidi'a

وإياك نستعين : على هجر البدعة

* * *

ويتحول التأثير القرآنى إلى مجرد استلهام ، فالشاعر سعد زنجر تسبح قصيدته فى جو آية من سورة آل عمران ، فيتناول قوله تعالى « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شئ قدير ، تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى وترزق من تشاء بغير حساب » آية ٢٥ : ٢٦ ، ٢٧

يتناول سعد زنجر معانى هذه الآيات وينظمها شعراً فى قصيدة له بعنوان

"Arewa jumburiya ko Mulukiya" (٢)

أى الشمال جمهورية أم ملكية :

Ya malaki dukan talikai

يامالكا كل الخلائق

Na kwari da tudu da samaniya

فى الوادى والجبل والسموات

(١) Sa'adu Zungur ، P. 3

(٢) Sa'adu Zungur ، P. 14

Da mutum aljan da mala'ika

من إنس وجن وملاك

Dabbar sarari da ta maliya

وحيوان البر وحيوان البحر

Mulki ike daula duka

الملك والقدرة والسلطة كلها (لله)

Na ga sarki Allah shi dâya

أرى الله الملك ؛ هو الواحد

Shi yake ba wanda ya sa duka

هو الذى يهب من يشاء جميعا

Ya sarauta a lardin duniya

فيولى الملك فى الحياة الدنيا

Shi yake karba ta ga taliki

وهو الذى ينزعه من الخلق

Don ya dândana wahalar duniya

ليذوق مرارة الحياة الدنيا

Shi yake girmama wanda ya so duka

هو الذى يعز من يشاء جميعا

Shi ka sanya wadânsu su sha wuya

ويجعل البعض يذوق الصعاب

Shi ka cusa dare a cikin wuni

يخرج الليل من النهار

Kuma ya zaro hasken safiya

ويخرج نور الصبح — من الليل

Shi ka rayawar mamaci duka

يحى الأموات جميعا

Shi ke kashe mai rai dâya

وهو وحده يميت الحىّ

وهكذا يتناول الشاعر قوله تعالى «مالك الملك» ويشرح ملك الله وما فيه من واد وجبل وسموات وإنس وجن وحيوان فى البر والبحر ، ويذكر أن الله وحده صاحب هذا الملك ، وهو وحده يبسط سلطانه على الجميع ، ثم يذكر قدرة الله الواردة فى الآيات فهو الذى يهب من يشاء كل ما يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ليذوق ،مرارة الحياة الدنيا ، ويعز من يشاء ويذل من يشاء فيجعله يذوق الصعاب ، ويخرج الليل من النهار ويخرج نور الصبح ، ويحى الأموات جميعا ، وهو وحدة يميت الحى .

ويقول تعالى فى سورة الإخلاص
« قل هو الله أحد : الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد »

وفى هذا المعنى يقول معاذ هطيجا فى قصيدة له بعنوان « مدح الله»(١)
'yabon ubangiji''

Can suratul Ihilasi ga ayarsa nan

فى سورة الإخلاص ، ها آياته

---

(١) Mu'azu Hâdeja P. 4

Shi wahidul kaharu ba na biyunshi

هو الواحد القهار ، لاثان له

Sarkin da ba shi wakili ba shi Muka-ddashi

الملك الذى لا وكيل له ولا مساعد

Ba ya bidar wani taimako a gare shi

لا يطلب أية مساعدة له

Ba ya tuwo balle ya nemi na cefane

لا يطلب الثريد — ولا مكوناته .

وفى مجال معانى سورة الإخلاص كذلك يقول محمدالعربى عمر فى قصيدةله بعنوان(١)

"Batun Gaskiya"

Ku san Jalla Allahu shi ne Gwani

تعرفون الله جلّ هو المبدع

Da babu kama tasa sarki daya

ولا شبيه له ، ملك واحد

Bai haifi kowa ba Allah Gwani

لم يلد ، الله المبدع

Mu duka bayinsa ne shi daya

كلنا عبيده ، هو واحد

Shi Rabbana ba a haife shi ba

هو ربنا لم يولد

Shi ya yi kowanmu sarki daya

هو خالقنا جميعا ، ملك واحد

Shi Jalla ba shi da wa ko kane

هو جلّ : لا أخ كبير ولا صغير له

Shi bai da dangi batun gaskiya

هو ليس له قريب ، قول حق

shi shi kadai yake Allah Gwani

هو هو وحده : الله المبدع

* * *

وبعد فلعل القارئ قد تبين أن تأثير القرآن الكريم كان غالبا على هذا الشعر : وأنه أخذ هذه الصور التى أشرنا إليها فى البداية ، فهو تأثر بالكلمات . والمعانى واحتذاء للتراكيب القرآنية والنسق البلاغى لكتاب الله .

ولا أريد أن أغفل أن الحافز الأول لهذا التأثير هو عمق الروح الدينى فى نفوس هؤلاء الشعراء المسلمين .

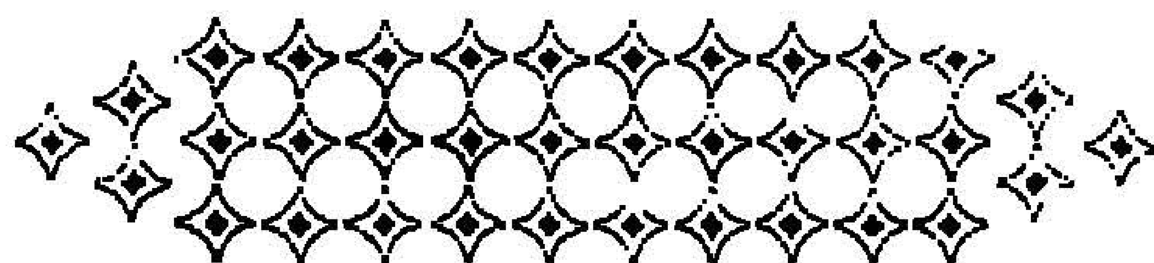
مصطفى حجازى السيد حجازى

استاذ لغة الهوسا وآدابها
بمعهد البحوث والدراسات الافريقية

(١) Wakoki Don yara Na Muhammad Balarabe Umar. P. I

مصادر البحث :

1. Gangar wa'azu N.N.P.C. 1970.
2. Kimiyya Da Fasaha na Salihu Kwantagora, N.N.P.C. 1972.
3. Tsofaffin wakoki Da Sababbin Wakoki, Na. Alhaji Mudi Sipikin N.N.P.C., 1971.
4. Wakokin Hausa, N.N.P.C., 1972.
5. Wakokin Mu'azu Hadeja N.N.P.C, 1972.
6. Wakokin Sa'adu Zungur, N.N.P.C., 1971.
7. Wakoki Don yara, Na Muhammadu Balarabe Umar, Hudu F.C. Huduhudu Publishers, Kano, 1979.



استكمال عبد الرحمن الأوسط لأسس الحضارة الأندلسية

للدكتور شوقي ضيف

— ١ —

تختلف الأمم القديمة فى الدور الذى أدته للحضارة الإنسانية فمنها أمم لها دور ممتاز مثل الأمتين اليونانية والرومانية اللتين أثرتا آثاراً واسعة فى الحضارة الأوربية الحديثة ، ومنها أمم تجدد لها هذا الدور مع ما اختلف عليها أو صادفها من أحداث وخطوب مثل الأمة المصرية أم الحضارات القديمة ، ومنها أمم كان دورها محدوداً مثل الأمتين البابلية والآشورية اللتين إنتهى دورهما مع إنتهاء تاريخهما القديم .

ولم يكن للأمة الإيبيرية دور حضارى فى الأزمنة القديمة إذ ظلت حقباً متصلة أمة عادية تستقبل الحضارات المختلفة دون أن تصطنع لنفسها حضارة متميزة ، وكانت أول حضارة استقبلتها الحضارة الفينيقية على أيدى الفينيقيين الذين غزوها فى القرن العاشر قبل الميلاد .

واتخذوا فيها مستعمرات لهم فى مالقة وقادش واستقبلت بعدهم بنحو خمسة قرون الحضارة اليونانية على أيدى اليونانيين الذين غزوها وأسسوا فيها مدينة برشلونة وهم الذين سموها إيبيريا ، ونشبت بينهم وبين الفينيقيين حروب استعان فيها الأخيرون بأبناء عمومتهم القرطاجنيين فنصروهم ، واستقبلت إيبيريا حضارتهم ، وأسسوا بها مدينة قرطاجنة على البحر المتوسط باسم مدينتهم فى إفريقيا واشتعلت الحرب بينهم بقيادة هانيبال وبين الرومان ، وانتصر الأخيرون فى مطالع القرن الثانى قبل الميلاد ، وتنبه الرومان حينئذ إلى ما فى إيبيريا من ثروة عظيمة ، فنزلوها بجيوشهم وضموها إلى ممتلكاتهم ونشروا فيها — بواسطة جنودهم ، ومن رحل إليها حين سمع بخيراتها من بلدهم لغتهم اللاتينية ، وحين اعتنقوا المسيحية

(•) ألقى فى الجلسة التاسعة يوم الثلاثاء ٢٩ من رجب سنة ١٤٠٩ هـ الموافق ٧ من مارس (آذار) سنة ١٩٨٩ م .

نشروها بها وهم الذين سموهاباسم إسبانيا الذى لا يزال باقياً إلى اليوم . وشاركت إسبانيا بعض المشاركة فى حياة روما السياسية والأدبية عن طريق من نشأوا فيها- أو ولدوا بها - لأسر إيطالية ثم رحلوا عنها إلى روما الأم كى ينالوا بها شيئاً من المجد أو الشهرة ؛ ومعروف ما بلغته الخطابة السياسية والقضائية فى روما من ازدهار ، وتشاركها إسبانيا فى هذا النشاط الخطابى باثنين من أبنائها القرطبيين هما سنيكا الأب الذى نشأ فى قرطبة وانتقل إلى روما وعلم فيها الخطابة وسنيكا الابن الذى ولد بقرطبة فى العام الرابع قبل الميلاد ، وجىء به إلى روما وتعلم بها الخطابة، على أبيه والفلاسفة على بعض من كان بها من معلميها ، وأصبح فليسوفاً رواقياً ومعلماً كبيراً للخطابة وعلمها القيصر نيرون . وقد أفنى الابن والأب جميعاً شخصيتهما فى الأدب اللاتينى الرومانى بحيث لا نجد عندهما ولا عند من بارح إسبانيا إلى روما مثلهما مشاركاً فى أدبها شيئاً يتميزون به كأدباء إسبانيين فما أنتجوه من الأدب لم ينتجوه فى إسبانيا إنما أنتجوه فى روما وهو بذلك أدب لاتينى رومانى خالص ، وإسبانيا بذلك لا يزال شأنها فى العصر الرومانى مثل شأنها فى العصور السابقة لا تضيف إلى الحضارة العالمية شيئاً إسبانياً له مميزات أو طوابع خاصة وبمجرد أن نصل إلى القرن الخامس الميلادى تغزوها القبائل الجرمانية المتبربرة التى قضت على الدولة الرومانية الغربية ، ويحكمها منهم القوط إلى أن استولى عليها منهم العرب ولم يكن للقوط حضارة ولا ثقافة وقد قضوا على ما كان بها من حضارة وثقافة رومانيتين ، وأخذت إسبانيا تعيش طوال حكمهم حياة شظف قاسية يرهقهم فيها ظلم لا حد له ، وضرائب فادحة .

— ٢ —

وواضح أنه حين فتح العرب إسبانيا لم يكن بها تراث حضارى لا مادى ولا معنوى وكان أول من التقوا بهم فى إسبانيا قبائل الواندال الجرمانية الذين كانوا ينزلون فى قسمها الجنوبى وكان يسمى نسبة لهم « ڤاندالوسيا » فسماه العرب الأندلس ، وأطلقوا هذا الاسم على إيبريا جميعها ومضوا يفتحون البقيــة من شماليها وهم يدوون بالقرآن الكريم دوى النحل ودخلت كثرة من أهل إسبانيا فى الإسلام ، لما وجدوا فيه من التعاليم السمحة الإنسانية المثالية وسرعان ما تعالت فى أركان إسبانيا وما أسس فيها من المساجد كلمة « الله أكبر » وكان ذلك أول أساس رسخ فى تلك البلاد النائية للحضارة العربية الأندلسية بكل ما يحمل من قيم روحية واجتماعية وعقلية وإنسانية قيم تسمو بالمسلم روحياً وسلوكياً وعقلياً مسوية بين أفراد المسلمين فى جميع الحقوق والواجبات دون أى نزعة عنصرية مع الاعتراف إلى أقصى حد بكرامة المسلم وحريته .

واقترن بهذا الأساس فى الحضارة الأندلسية منذ أول الأمر أساس تعلم العربية لإقامة شعائر الدين واستيعاب تعاليمه وتمثلها كما جاءت فى القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف : وأخذت كثرة من الفاتحين تقوم على تعليمها وتحفيظ القرآن فى المساجد والكتاتيب بحيث لا نغلو إذا قلنا : إنه لم تبق بلد فتحها العرب فى القرن الأول الهجرى إلا فتحتها معهم لغتهم . إذ تحل فى ألسنة البلاد المفتوحة محل لغاتها الأصلية سواء فى ذلك من أسلموا من أهلها ومن ظلوا على دينهم . أما الأولون فلكى يفقهوا الدين الحنيف فقهاً حسناً . وأما الثانون فلما راعهم من بيانها وأدائها البارع للمعانى . مما جعلهم مثل من أسلموا منهم يفرضونها على أنفسهم ويحاولون إتقان النطق بها وتعلمها حتى يستطيعوا أن يؤدوا بها عواطفهم وأفكارهم أداء لا يخلو من بعض الروعة .

وأخذته ترسخ مع أساس العربية والإسلام التقاليد العربية وخاصة مع حكم عبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية فى سنة ١٣٨ للهجرة إذ حاول أن يصوغ بقرطبة دولة كدولة آبائه الأمويين بدمشق . ويبنى لنفسه قصراً كقصر أبيه هشام المسمى بالرصافة فى صحراء تدمر ويسميه بنفس اسمه بناه خارج قرطبة ويعنى بالفقهاء واللغويين والأدباء. ويسير سيرته ابنه هشام وحفيده الحكم ، فيتمسكان بالتقاليد العربية ، وكما حقق عبد الرحمن الداخل للأندلس وحدتها السياسية حقق لها هشام والحكم وحدتها المذهبية فى الفقه الإسلامى إذ عملا على أن يكون المرجع فيه إلى مذهب مالك فقيه الحجاز المشهور وتوثقت هذه الوحدة المذهبية فى عهد عبد الرحمن الأوسط بن الحكم منذ تولى الإمارة سنة ٢٠٦ إلى نهاية حكمه سنة ٢٣٨ إذ كان لا يتولى القضاء فى أيامه إلا فقهاء المذهب المالكى ممن يختارهم مستشاره يحيى الليثى إمام المذهب فى قرطبة والناس سراع إلى ما يحقق مآربهم ويبلغون به أغراضهم فانتشر المذهب فى جميع أرجاء الأندلس وبلدانها وظل مزدهراً بها طوال عصورها إلى عصر الموحدين فى القرن السادس الهجرى وبمجرد انتهائه عاد إلى المذهب هناك نشاطه وازدهاره ويجمع المؤرخون على أن عبد الرحمن الأوسط الذى امتد حكمه إلى أكثر من ثلاثين عاماً أول من فخم السلطنة بالأندلس وكساها أبهة الجلالة بما شيد من القصور الباذخة وأكمل من أسس الحضارة الأندلسية المادية والمعنوية ، وقد استحالت قصوره قصوراً بغدادية بما ملأها به من الطنافس والتحف وأدوات الزينة والرياش المشرقية ، وكان قد تسامع به التجار فى أنحاء البلاد العربية وبالأخص فى بغداد فجلبوا إليه ذخائر منها بديعة أو اتفق أن ولى عقب انتهاب النفائس التى كانت بقصور الرشيد عند خلع

ابنه الأمين فجاءه التجار منها بكثير من التحف والطرف ، من ذلك عقد شهير من الجواهر الكريمة للسيدة زبيدة زوج الرشيد وقد أهداه لزوجه المحبوبة طروب ، وجاراه وزراؤه ؛ وأعيان قرطبة في اتخاذ نفيس الرياش والأثاث والتحف البديعة مما دفعه إلى إقامة مصانع في عاصمته لإنتاج الأقمشة والمنسوجات الفاخرة المشبهة لما كان يصنع ببغداد مما جعلها أختاً غريبة لها وطبعها بطوابعها العربية ، أو بعبارة أدق بطوابع حضارتها المادية ، وسنرى هذه الطوابع تزداد اكتمالا عما قليل .

— ٣ —

وكان من حسن طالع عبد الرحمن الأوسط أن وفد عليه في أول حكمه مغن مبدع من تلاميذ إسحق الموصلي أشهر المغنيين ببغداد هو زرياب علي بن نافع المولود سنة ١٧٢ للهجرة واحتفل به احتفالا عظيماً ، وأغدق عليه مالا كثيراً وأقطعه ضيعة وافرة الغلة ومنحه داراً واسعة ، ووفر له كل ما يمكن من معيشة كريمة طوال حكمه وكان زرياب شخصاً حضارياً على شاكلة عبد الرحمن الأوسط ، وتميز عنه بأنه جاء إلى قرطبة لا يحمل إليها تلاحين الغناء ببغداد فحسب ، بل أيضاً يحمل إليها حضارتها المادية و سرعان ما أخذ يفرض هذه الحضارة على المجتمع القرطبي في المسكن والملبس والمأكل ؛ أما في المسكن فأخذ القرطبيين بالتأنق في رياش منازلهم وأثاثها وأرائكها ووسائدها وطنافسها وكل ما يزينها من الطرفة البديعة حتى غدا كثير من المنازل والقصور بقرطبة لا يقل عن قصور بغداد ومنازلها فخامة وأناقة ؛ وأما من حيث الملبس فعلم القرطبيين أن فصل الشتاء فصل الثياب الصوفية والفراء ، وأن الصيف والربيع جميعاً موسم الثياب الحريرية والقطنية والكتانية ، ولا بأس من ارتداء الملابس المبطنة الملونة في الخريف ، وأخذهم بتقصير الثياب وتضييق الأكمام وتقصير الرجال لشعرهم في جانبي الرأس وكيفية إرساله وراء أذانهم وفرقهم له فرقتين بحيث لا تتهدل خصلاته فوق جباههم ، واستن للنساء بالمثل آداباً في زيهن وثيابهن وعلمهن كيف يصففن شعرهن وكيف يرسلنه على جباههن وبجوار أذانهن ، وتمثل للنساء والرجال في العطور فنفرهم من العطور الثقيلة كالعنبر والمسك والطيب وحببهم جميعاً في عطور الأزهار الخفيفة ، وأما في الأكل فعلم القرطبيين أن يتناولوه على الموائد وأن يستخدموا فيه الملاعق والسكاكين ، وعلمهم أن يبدأوا فيه بالحساء ، ثم تقدم اللحوم وألوان الطعام بشيء من الترتيب ؛ ويختمونه بالحلوى ؛ وما قد يكون من الأشربة وحبب إليهم أن يستخدموا في الطعام كئوس الزجاج وأكوابه بدلا من الأكواب والكئوس الذهبية والفضية كما حبب إليهم أن تكون مفارش المائدة

من الجلد الرقيق بدلا من المفارش الكتانية . وقد حبب إليهم أطعمة بغـداد من الخضر بأنواعها بدلا من الأطعمة البدائية مثل الثريد كما علمهم الطهى البغدادى من كل نوع وكل لون وما يضاف إلى الأطعمة من الأفاوية ومن التوابل المختلفة .

وكل هذه الجوانب من حضارة بغـداد والمشرق المادية رسخت فى قرطبة وحاكتها فيه المدن والبلدان هناك بحيث أصبحت سنناً أندلسية عامة . ولا ريب فى أن عبد الرحمن الأوسط كان له الفضل الأول فى رسوخهـا بتشجيعه لزرياب وخصه على أن يبلغ بهـا الغاية . ودفع الناس من حوله — من حاشيته وغيرهم — ليصدعوا لكل ما نصحهم به فى رياشهم وملابسهم وهيآتهم ومطاعمهم ومشاربهم وبذلك تغير المجتمع الأندلسى تغيراً حضـارياً مشرقياً واسعاً . وكان زرياب مغنياً موهوباً ، وقد تمثل كل ما ارتقى إليه الغناء العربى فى بغداد على يد أستاذه إسحق الموصلى : كما مر بنا من إيقاعات وتلاحين بديعة ، وأخـذ يضيف إليها تلاحين وإيقاعات جـديدة . واشتهر بإضافته إلى العود وتراً خامساً ، وأنه اخترع للعود مضرباً من قوادم النسر ، وليس ذلك كل ما نفذ إليه . فقدجعل للغناءبالأندلس تقاليد تميز بها إذ يبدأ المغنى بالنشيد بأى نقر ويخرج منه إلى البسيط ويختم بالمحركات ، والأهازيج . وأخذ عبد الرحمن الأوسط يشجعه بكل ما استطاع من صور التشجيع وأنشأ له معهداً موسيقياً لتعليم فتيان قرطبـة وفتياتها وجواريها الغناء والموسيقى . وعلم زرياب فيه أولاده من البنين والبنات وبعض جوارى الأمير والجوارى القرطبيات ويقول التيفاشى فى كتاب له لا يزال مخطوطاً :

« أخبرنى أبو الحسن على بن سعيد (الغرناطى صاحب كتاب المغرب المشهور) أن أهل الأندلس فى القديم كان غناؤهم إما بطريقة النصارى وإما بطريقة حداة العرب ، ولم يكن عنـدهم قانون يعتمدون عليه إلى أن تأثلت الدولة الأموية فى مدة عبد الرحمن الأوسط فوفد عليه الإمام المقدم فى هذا الشأن على ابن نافع الملقب بزرياب غلام إسحق الموصلى فجاء بما لم تعهده الأسماع » وابن سعيد بقوله : إنه لم يكن معروفاً فى الأندلس قبل زرياب سوى الحداء العربى البسيط وغناء النصـارى يقصد ترانيمهم الكنسية ، ويقول : إنه لم يكن لها قانون عندهم فقد كانت — مثل الحداء العربى — ترانيم أولية ؛ أما زرياب فقد كان لغنائه وموسيقاه قانون مضبوط بنسب زمنية مقدرة ، وبعبارة أوضح برقم (نوت) موسيقية ، على نحو ما نقرأ فى مجلدات الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى من رقم الغناء العربى وموسيقاه وهى رقم تعد بالآلاف فى تلك المجلدات الخمسة والعشرين إذ يذكر مع كل أغنية رقمها الموسيقى وظلت الأندلس بعـد زرياب تحظى بنهضة غنائية واسعة كان لها

تأثير بعيد فى إسبانيا وما وراء إسبانيا من الأمم الأوربية إذ لم يكونوا يعرفون جميعاً سوى ترانيم الكنائس. إلى أن تلقنت إسبانيا المسيحية الموسيقى وألحانها ورقمها (نوتها) الموسيقية عن طريق الأندلس وموسيقاه فهو الذى أعدّها لتنفذ إلى موسيقاها الحديثة كما تنفذ من ورائها أوربا إلى نظرياتها الموسيقية ، ولا يزال كثير من الآلات الموسيقية عند الإسبان إلى اليوم يحمل أسماءه العربية مثل العود : والقيثارة والرباب ، ولا يزال تأثير زرياب والموسيقى الأندلسية واضحاً فى الموسيقى المغربية وما يتصل بها من الغناء إلى اليوم .

* * *

وكان الأمير عبد الرحمن أديباً شاعراً ، ورعى الأدباء والشعراء فى زمنه وأصبح ذلك تقليداً لكل من ولى الأندلس من أسرته ، وأخذ الشعراء منذ زمنه يكثرون فى الأندلس ، ومن شعرائه الذين كانوا يكثرون من مديحه ويكثر هو من نوالهم وعطائهم مؤمن بن سعيد وعبد الله بن الشمر وسعيد بن الفرج المعروف بالرشاش ويحيى بن الحكم الملقب بالغزال ، وأرسله فى سفارتين إلى امبراطور بيزنطة : وملك الدانمرك أداهما على خير وجه. ومدحته الشاعرة حسانة بنت عاصم بن زيد وأجزل لها فى العطاء : وصنيعه معها يعد رمزاً لإعزازه للمرأة ، وكان واسع الأفق ، فرفع من شأن المرأة فى عصره ، وأتاح لزوجه طروب ، وغيرها من زوجاته منزلة رفيعة فى أوساط المجتمع القرطبى مما جعل الشعراء يتنافسون فى وصف جمالهن وثقافتهن وتقواهن وصلاحهن وكان يأخذ بناته — كما كان يأخذ أبناءه بالتثقف والتعليم ، وأخذ أهل قرطبة يحاكونه فى تعليم بناتهن مما جعل الأندلس تمتاز على مر العصور بكثيرات من العالمات بالحديث النبوى والقراءات وبفنون العلوم من طب وغير طب : وتكثر الشاعرات حتى ليترجم المقرى فى كتابه « نفح الطيب » لأكثر من عشرين شاعرة . وكان عبد الرحمن الأوسط قد وسع الجامع الكبير بمقدار سبعة صفوف من الأعمدة ، وما زال أبناؤه يعنون به وبأعمدته وزخارفه حتى غدا إحدى عجائب المعمار الأندلسى إلى اليوم وبنى عبد الرحمن جامع أشبيلية الكبير واندفعت زوجاته يبنين مساجد فى أحياء قرطبة : واشتهرت ابنته البهاء بتقواها وبنائها مسجداً بحى الرصافة ، وكانت تكتب المصاحف بيدها وتحبسها على مسجدها وغيره من المساجد القرطبية .

ومما يؤكد سعة أفق عبد الرحمن وعقليته ما حكاه ابن حيان فى المقتبس عنه من أنه كان قد اعتاد الركوب مع كريماته وبعض نسائه للنزهة ، واستمر هذا التقليد من خروج المرأة مع الأمراء فى مواكب بعده ، إذ يروى ابن حزم فى رسالة نشرتها تسمى نقط العروس أن عبد الرحمن الناصر (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ)

أركب فى أحد مواكبه امرأة مهيبة تسمى رسيس سافرة وعلى رأسها قلنسوة وقد تقلدت سيفاً جعلها على بغل خلفه بينه وبين أولاده وشق بموكبه قرطبة من باب العطارين والربض الغربى كله إلى مدينته التى بناها فى الشمال الغربى من قرطبة عند أقدام جبل العروس التى سماها باسم الزهراء . ولعل فى هذا كله ما يدل بوضوح على المكانة التى أنزل فيها عبد الرحمن الأوسط المرأة الأندلسية مما جعلها تتمتع فى الأجيال التالية بغير قليل من الحرية والكرامة ومحاولة التثقف ثقافة واسعة حتى لتصبح منهن فيما بعد سيدات صواحب ندوات أدبية يختلف إليها غير أديب نابه على نحو ما هو معروف عن ولادة ابنة الخليفة المستكفى ، وكانت شاعرة مطبوعة ، وكذلك عن السيدة حواء زوجة سير بن أبى بكر حاكم إشبيلية للمرابطين وكانت أديبة شاعرة سريعة البديهة مع جلالة ووقار : وكان يختلف إلى ندوتها شعراء إشبيلية وكتابها ومفكروها فتستمع إلى أحاديثهم وتحاورهم حواراً بديعاً والمرأة الأندلسية تسبق فى ذلك المرأة الباريسية وصالوناتها فى القرنين السابع عشر والثامن عشر بغير قليل من القرون وكل ذلك يعد من بعض الوجوه من أفضال عبد الرحمن الأوسط وما أتاح للمرأة الأندلسية فى عصره من منزلة كريمة .

* * *

— ٤ —

وعلى نحو مارعا الأمير عبد الرحمن الأوسط المرأة الأندلسية ورعا الشعراء كان يرعى العلماء من كل صنف وعلى كل لون ؛ وكان يفرد لهم أياماً للقائه ويداخل كل صاحب علم فى علمه ، ولم تقف رعايته للعلوم عند العلوم الدينية واللغوية فقد أخذ يطمح لأن تتقن قرطبة والأندلس علوم الأوائل ، وهى علوم الكيمياء والفيزيقا والرياضة والهندسة والطب والمنطق والفلسفة وكانت بغداد قد سبقت إلى ترجمتها عن اليونان والفرس والهند فرأى أن يرسل عباس ابن ناصح أحد قضاته إلى بغداد لالتماس كتب هذه العلوم وأكبر الظن أنه أرسله على رأس بعثة لجلب هذه الكتب أو بعبارة أدق لجلب ما يمكن منها فأتاه بكتاب السند هند وغيره من كتب تلك العلوم ومعروف أن كتاب السندهند مترجم عن الهندية وأنه فى علم الحساب والهيئة وكان جلب هذه الكتب إلى قرطبة فاتحة عصر علمى جديد ، عصر يعنى كل العناية بعلوم الأوائل من طب وغير طب وبمجرد أن وصلت هذه الكتب إلى الأندلس أكب عليها الأندلسيون وأخذوا يتمثلونها : وظهر بينهم فى عهد عبد الرحمن الأوسط نفسه من استوعبوا هذا العلم أو ذاك من مثل عباس ابن فرناس ، الذى حذق على التنجيم والكيمياء سريعاً ، ووصف بأنه حكيم الأندلس ،

واشتهر بكثرة ابتكاراته وكان موسيقياً يحسن الضرب على العود وصنع الألحان : ويقوله ابن سعيد إنه أول من اكتشف فى معماه بالأندلس صناعة الزجاج والبلور من الحجارة ومن أهم مبتكراته العجيبة ما اشتهر عنه من محاولته الطيران فى السماء واحتيال لذلك حيلة غريبة إذ صنع لنفسه كساء من ريش اتخذه من شمق حرير أبيض : وجعل له جناحين كبيرين وضع فيهما ذراعيه وقذف بنفسه فى الهواء من قمة تل عال واستطاع الطيران والسباحة فى الهواء ووقع على مسافة غير قليلة ومع أن المحاولة أخفقت فإنها تعد أول إرهاص مبشر للإنسان بتحقيق فكرة الطيران والتحليق فى الهواء . وإنما ذكرت عباس بن فرناس لأتخذ منه رمزاً لإكباب الأندلسيين على علوم الأوائل وما بث فى نفوسهم من رغبة قوية فى الابتكار وقد اشتهر بأنه فيلسوف الأندلس لما حاز لنفسه من دراسة الفلسفة واشتهر بكثرة تجاربه فى الكيمياء واستطاع النفوذ إلى طريقة صناعة الزجاج — كما ذكرت — من الحجارة ، وهى طريقة لم يسبقه إليها أحد. وأيضاً فإنه ابتكر آلة عرفت باسم المنقانة تعتمد على الظل فى معرفة الوقت :

ومما يصور بوضوح ما كان لإدخال عبد الرحمن الأوسط علوم الأوائل فى الأندلس من أثر بعيد حتى أصبح العلم بها مثل العلم بالعلوم الدينية واللغوية من الأسس الأساسية للحضارة الأندلسية إنه لا يمر على الأندلس نحو قرن حتى ينشأ فيها الصيدلى ابن جلجل ويؤلف كتاباً فى « طبقات الأطباء والحكماء » ، من قديم الأزمنة حتى زمنه وقد عرض لليونان فيهم خمس طبقات والأطباء المشرق العربى طبقتين ترجم فيهما لستة عشر طبيباً ولأطباء المغرب طبقة ترجم فيها لثلاثة منهم . وجعل للأندلس الطبقة التاسعة وترجم فيها لاثنين وعشرين طبيباً ويقول — « لم يكن الأندلسيين بصر بصناعة الطب فى أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم » وكأنما حدثت سريعاً نهضة كبيرة للطب هيأت لظهور العدد الوافر من الأطباء ولم تلبث تلك النهضة أن تُوّجب بالزهراوى فى القرن الرابع الهجرى الذى يعد أبا للطب العالمى الحديث . وبالمثل الفلسفة لم يكن للأندلسيين — كما يقول جلجل بصر بها فى أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط وقد مضوا يعكفون على كتبها حتى ظهر منهم عالميون مثل ابن رشد الذى ظلت الجامعات الأوربية تدرس كتبه وفكره طويلا مع اعترافهم بتأثيره العميق فى الفكر الأوربى الحديث . ويكب الأندلسيون على كل علوم الأوائل منذ وصلهم بها الأمير عبد الرحمن الأوسط ونبغ هناك على مر الزمن — علماء عالميون أثروا العلم العالمى ثراء عظيماً مثل الزرقالى الرياضى والبِطْرَوجى الفلكى وابن البيطار الصيدلى وكل ذلك بفضل عبد الرحمن الأوسط وعمله على إدخاله علوم الأوائل فى الأندلس إذ دفع الناس هناك لاستيعابها وقد مضوا لايكتفون باستيعابها بل ظلوا يضيفون إليها إضافات باهرة .

ومن أروع ما أرساه عبد الرحمن الأوسط فى الحضارة الأندلسية تنظيمه لأداة الحكم تنظيماً حضارياً مبتكراً لا فى الأندلس وحدها بل أيضاً فى العالم العربى جميعه إذ أنشأ هناك مجلس وزراء على نحو ما نعرف الآن من مجالس الوزراء الحديثة فى مصر وغيرها من الأمم العربية والغربية وسمى رئيس الوزراء باسم الحاجب ، واتخذ لهذا المجلس فى قصره بيتاً ، رتب اختلاف الوزراء إليه فى كل يوم كما رتّب لكل وزير اختصاصات بشأن من شئون الحكم ، فهذا وزير للأمن أو كما نقول الآن وزير للداخلية ، وذاك وزير للحرب ويسمى الوزير القائد ، أو للمال ويسمى الخازن ، وهكذا ، ولكل وزير مسئولياته وديوانه وكتابه. والوزراء يجتمعون يومياً فى بيت الوزارة ، ويجلسون فيه على أرائك أو مقاعد وثيرة ويعرض عليهم الحاجب الشئون المهمة ، ويظلون يتشاورون فى كل شأن أو مسألة من مسائل الحكم ، وحين يجتمع رأيهم فى أمر يعرضه الحاجب على عبد الرحمن الأوسط وإن لم يقره أعاده الحاجب إلى مجلس الوزراء للنظر فيه مرة ثانية وكان عبد الرحمن الأوسط يستدعيهم أحياناً جماعة للمشاورة فى بعض المسائل فيرأس الجلسة أو المجلس ويتفاوضون فيه ويتخذ المجلس القرار ، وأحياناً كان الأمير يستدعى الوزراء فرادى — للمراجعة فى بعض الأمور أو ليعرض على الوزير شكوى فى اختصاصه من بعض أفراد الرعية ، وكان ما تتفق عليه الوزارة ويقره الأمير يرسل إلى ديوانه ليصاغ الصياغة الديوانية الملائمة ويختم بخاتم الأمير أو خاتم الدولة ويصبح نافذاً من حين صدوره ويذكر ابن حيان فى المقتبس أن عدد الوزراء فى عهد عبد الرحمن الأوسط بلغ ستة عشر وزيراً ، وهم حاشيته ورجاله الأقربون ، وكان رئيسهم وهو الحاجب يُعَدّ الشخص الثانى فى الدولة بعد الأمير ، وينوه ابن حيان بوزراء عبد الرحمن فيقوله : « اجتمع له من سراة الوزراء أولى الحلوم والنهى والمعرفة والذكاء عصابة لم يجتمع مثلها عند أحد من حكام بنى أمية فى الأندلس قبله ولا بعده ، وفى ذلك ما يدل بوضـوح على مقـدرة عبد الرحمن الأوسط فى اصطفاء الرجال الذين يعاونونه فى شئون الدولة والحكم ، واستمر بعده هذا النظام الوزارى الذى أحكمه فى الأندلس .

ولم يكتف عبد الرحمن الأوسط فى ضبط الحكم وإدارته بهذا النظام الوزارى وحده فقد وزع المصالح العامة على هيآت سميت خططاً وأسند كل خطة لموظف كبير كانت تلى وظيفته وظيفة الوزير ، وأحياناً كانت تسند الخطة إلى بعض الوزراء ومن أهم الخطط خطة الخيل ويعنى صاحبها بخيل الحرب وما يلزمها من تنمية لها وأعلاف ،

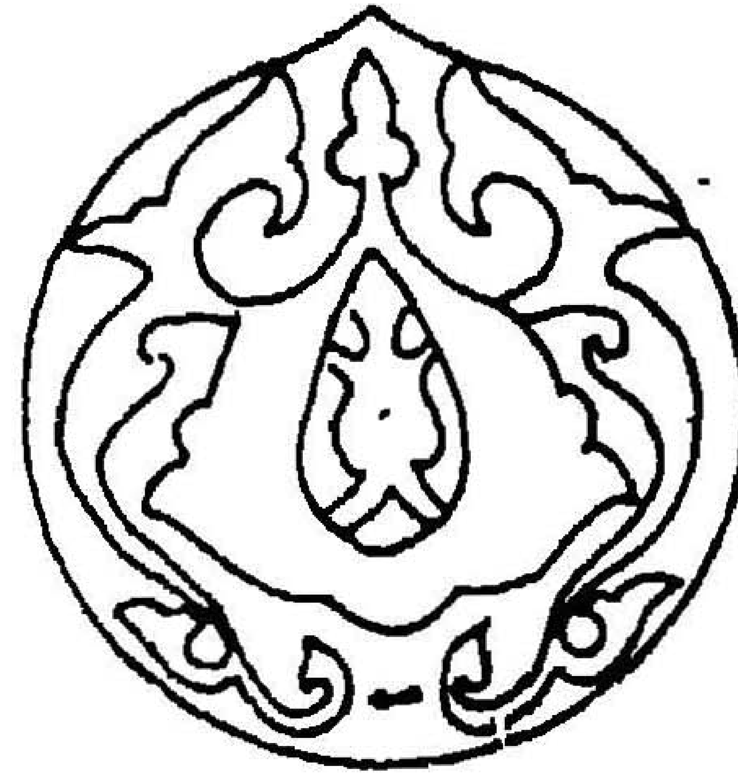
وبجانبها خطة الأعنة ويعنى صاحبها بإعداد كل ما يلزم الجيش من أدوات الحرب ، ومن الخطط المهمة أيضا خطة المظالم وينظر صاحبها فى الشكاوى المقدمة ضد امراء البيت الأموى ورجال الدولة ، كما ينظر فى تطبيق الأحكام على طبقات الأمة دون أى تفرقة بين طبقة وطبقة ، وبجانب ذلك خطة البحر وينظر صاحبها فى كل ما يتصل بشئون الأسطول فى البحر المتوسط ، وخطة القيادة ويشرف صاحبها على قيادة الجيوش وكثيراً ما يكون هو نفسه القائد ، وكانت قيادة الجيوش من أهم ما يناط بالحاجب إذ كانت تتوفر فيه غالباً خصال كثيرة منها أن يكون عسكرياً بارعاً وسياسياً محنكاً . وكانت للشرطة خطة مهمة إذ يقوم صاحبها على أمن قرطبة ، وكانت بجانبها خطة الحسبة إذ يشرف صاحبها على الأسواق فيراقب الأسعار ويفصل فى الخصومات التى تنشأ بين التجار والناس من مشترين وغيرهم . ومن الخطط المهمة خطة الكتابة وهى تقابل ديوان الإنشاء فى المشرق وقد يرقى صاحبها إلى مرتبة الوزراء .

ومن أهم الخطط الكبرى خطة القضاء : وقد اختار لها عبد الرحمن الأوسط هيئة استشارية من كبار الشيوخ كان يرجع إليها قضاة قرطبة والعواصم بالأندلس كلما أنبهم عليهم الحكم فى قضية كما كان يرجع إليها الأمير عبد الرحمن فى شئون الدولة وكان يرأسها فى أوائل أيامه عيسى بن دينار الذى فقه المذهب المالكى على عبد الرحمن ابن القاسم بالفسطاط فى مصر : ويقول ابن حيان « كان لا يعد فى الأندلس أفقه منه فى نظرائه » ويقول ابن وضاح هو الذى علم أهل الأندلس الفقه» وتوفى سنة ٢١٢ فخلفه على رياسة الهيئة الاستشارية يحيى الليثى إلى أن توفى سنة ٢٣٤ وكان يقوم من القضاة والأمير عبد الرحمن الأوسط مقام وزير العدل الحالى وعلت منزلته عنده ، وصار يلتزم من إعظامه — كما يقول ابن حيان وتكريمه وتنفيذ مايراه ما يلتزمه الولد لأبيه فلا يستقضى قاضياً ولا يعقد عقداً ولا يمضى أمراً فى الحكم إلا عن رأيه وبعد مشورته ، وبه انتشر مذهب مالك فى الأندلس . كما ذكرنا فى صدر هذا الحديث .

وواضح من كل ما عرضت عن عهد عبد الرحمن الأوسط أنه كان عهد استكمال رائع لأسس الحضارة الأندلسية المادية والمعنوية بطوابعها العربية المشرقية مع إرسائه فيها أسس نهضة عظيمة فى الغناء والموسيقى وعلوم الأوائل من فلسفة وغير فلسفة ، وهى نهضة

أفاد منها الغرب – فيما بعد – أيما فائدة ، وقد رأينا كيف نظم عبد الرحمن الأوسط وأداة الحكم فى الأندلس تنظيماً حضارياً مثل التنظيمات الحديثة ، فاتخذ مجلس وزراء يصرف شئون الدولة العامة ؛ كما اتخذ خططاً تدبر مصالح الرعية وكان يرجع فى أمور حكمه إلى هيئة استشارية من علماء الدين وشيوخه ، وبذلك كله جعل عبد الرحمن الأوسط الحكم الأموى فى الأندلس – منذ عصره – حكماً شورياً إلى حد كبير .

شوقى ضيف
الأمين العام للمجمع



ازدواجية اللغة وضرورة رسم سياسة لغوية

للدكتور البدراوى زهران

ازدواجية اللغة مشكلة تؤرق بال المشتغلين باللغة والقائمين على أمرها وفى الصفحات القادمة نشخص المشكلة ونقدم ما نراه من علاج ملائم لها ...

ونقصد بازدواجية اللغة ازدواجية العامية والفصحى فى ألسنة الناطقين بالعربية .. فان ذلك على حد عبارة للجاحظ « يجعل كل واحدة منهما تدخل الضيم على أختها »[1] .

والضيم الذى يصيب الفصحى من جراء العاميات هو المشكلة التى تؤرق البال ... فلا يقف خطر العاميات على مجتمع عربى واحد .. وإنما يشمل الناطقين بالعربية فى أنحاء الوطن العربى كله ... حيث تتشبث كل جماعة بما لديها من لهجة وما عندها من لغة[2] .

أما مصطلح (Diaglossia) الذى يطلق على ازدواجية اللغة فى الدرس اللغوى الحديث فقد عرفه فرجسون (C. A. Fargson) بأنه الحالة اللغوية الموجودة فى جماعة المتكلمين التى يستخدم فيها بعض المتحدثين نوعين أو أكثر من اللغة الواحدة فى ظروف مختلفة »[3] :

والمشكلة بالنسبة للدرس اللغوى الحديث أمرها هام ؛ فإن اتساع رقعة الناطقين باللغة الواحدة واختلاف طبقاتهم وثقافاتهم ودخول أجانب على اللغة من غير أبنائها ينطقون بها فاقم الأمر وجعل المتخصصين يبحثون عن علاج ويرسمون السياسيات ويضعون الخطط للوصول إلى لغة نموذجية مشتركة .. تترفع عن العاميات وتحافظ على سمات عامة فى ألسنة جميع الناطقين .. هى سمات اللغة الأدبية أو سمات الفصحى عندنا .

والمقصود بالسياسة اللغوية لمجتمع ما [فى الدرس اللغوى المحدث] : وضع خطط تقرها الجهات السياسية العليا إزاء مستوى لغوى معين بهدف الوصول إليه .. مع الاستفادة فى ذلك من الطرق

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ .

(٢) يطلق فى التراث مصطلح لغة ويراد به اللهجة... واللغات معناها اللهجات .. وهكذا .. إلى آخره .

(٣) انظر بحث مس آن رويال . كتاب دراسات فى اللهجات من ص ١٧١ إلى ص ١٨١

والإمكانيات العلمية الحديثة بناء على دراسات يقوم بها اللغويون المتخصصون فى مجالات متعددة يكون عمادها فى الدرجة الأولى التجارب الميدانية فى المجالات اللغوية ما بين نظرية وتطبيقية يجريها الباحثون فى العلوم الاجتماعية والنفسية والتربوية من خلال الواقع اللغوى .

وذلك لأن المشكلة فى واقعها عميقة تفرضها طبيعة اللغة وتحتمها الملابسات القائمة بين اللغة والمستعملين لها .

وهى نتاج تفاعل اللغة داخل طبقات المجتمع .

فاللغة مطلب ضرورى للمجتمع يتحقق بها التعاون بين أبنائه ويتم عن طريقها الاتصال الروحى والترابط الوجدانى ، وهى أساس إحساس الناس بانتماء بعضهم إلى بعض واشتراكهم فيما يؤلف بينهم من روابط ثقافية ووجدانية وتاريخية وسياسية .

ومن خلال دورها فى تنظيم التفاهم والتعبير عن الخواطر بين أفراد الجماعة الواحدة تتم وحدة الآمال والأمانى ، ويتحقق الانسجام وتتحدد الأعراف وتنهض الجماعة .

وعلى الرغم من أن أعراف الجماعة تنشأ باللغة وتتحدد بها إلا أنها بعد ذلك تحكم اللغة فطبيعة اللغة لها أثرها على المجتمع والمجتمع له أثره على اللغة .. والظواهر الاجتماعية تحكم حياة اللغة ، وإن انشعاب لغة المحادثة فى المجتمع الواحد إلى لهجات ضرورة اجتماعية تنشأ بسبب اختلاف طبقات المجتمع ، وبسبب

(١) انظر بحث مس آن رويال السابق . وعنوانه علم اللغة والسياسة اللغوية فى مصر ١٧١ / ١٨٣ فى كتاب دراسات فى اللهجات العربية المؤتمر العلمى عن دور الجامعات فى دراسة اللهجات والعمل على تقريبها من الفصحى .

واقرأ دور الإذاعة كوسيله إعلام فى تقريب اللهجات إلى الفصحى بحث من إعداد الدكتور يوسف مرزوق من ص ١٣١ / ١٤٤

واقرأ الأطلس اللغوى المصرى وملاحظات حول لهجات مصر بقلم مانفرد فويدش وبيزبنيشتيت من ص ١٤٩ / ١٧٠

واقرأ بحث كلام الناس بقلم الأستاذ الكبير محمد شوقى أمين عضو مجمع اللغة العربية من ص ٩ / ١٦

واقرأ ثلاث مصطلحات فى علم اللهجات بقلم د . أحمد علم الدين الجندى من ص ٥٩ / ٧٥

تفاوت الثقافة ومناحى التفكير .. واختلاف حياة الناس داخل أسرهم وتنوع طبقاتهم وما يترتب على ذلك من عادات وتقاليد تنشأ عنها أنماط من السلوك تستجيب لها اللغة .

وقد دلت بحوث اللغويين على أن هناك تيارين متعارضين يوجهان لغات البشر فى اتجاهين متباينين :

اتجاه نحو التفتيت اللغوى .

وآخر نحو التوحيد(١)

ومن المعلوم أن عوامل التفتيت قد تكون هى عوامل التوحيد .. فالتفتيت بالنسبة للغة الأم يتبعه توحيد تحت مظلة اللغة المستقلة .

وعلى سبيل التمثيل فإن بعض العوامل الاجتماعية التى قد يكون مبعثها نزعات سياسية تتعلق باستقلال بعض المناطق التى تحتلها لغة الجماعة الكبرى تجعل سكان هذه المناطق ينزعون نحو استقلال لغوى يعضده ما بينهم من روابط وعلاقات ؛ فهو نزعة توحيد لمنطقة ما لكنه تفتيت للسلطان المركزى للغة الجماعة الكبرى . تنمو بسببه ظواهر لغوية تباعد بين اللغة المستقلة ولغة الجماعة الكبرى .

ومثلها عوامل الجنس أو العرق التى تتمثل فيما بين سكان بعض المناطق من وحدة فى الجنس أو اللون أو التكوين الطبيعى ... مما يتردد صداه نزعة تفريق فى اللغة من جانب .. وتوحيد لبعض المناطق من جانب آخر تنمو فى ضوئه ظواهر لغوية تباعد بين اللغة المستقلة واللغة الكبرى .

وكذلك العوامل الجغرافية التى قد تتمثل فى الفواصل الطبيعية من بحار أو صحار واسعة أو جبال أو وديان أو سهول أو غيرها من حواجز طبيعية يعززها الموقع .. أو فروق

---

(١) اقرأ : كتاب : اللغة ج فندريس : تعريب أ : عبد الحميد الدواخلى ؛ ود. محمد القصاص مكتبة الأنجلو المصرية من ص ٣٧٠

واقرأ : مبحثنا اللغة النموذجية فى كتاب دراسات فى اللهجات العربية - كلية الآداب بسوهاج ١٩٨١ م من ص ١٠٩ .

واقرأ : اللغة وعلوم المجتمع : د. عبده الراجحى ١٩٧٧ م .

واللغة والمجتمع . د. على عبد الواحد وافى دار نهضة مصر للطبع والنشر .

واللغة بين الفرد والمجتمع أوتويسبرسن ترجمة د. عبد الرحمن أيوب مكتبة الأنجلو المصرية .

وكتاب قضايا لغوية : د. كمال بشر .

واللغة فى المجتمع تأليف م . م لويس .ترجمة د. تمام حسان مراجعة د. إبراهيم أنيس : عيسى البابى الحلبى ١٩٥٩ م .

واللغة والمجتمع رأى ومنهج . د. محمود السعران ط ٢ - ١٩٦٣ م دار المعارف .

البيئة أو الجو .. أو غيره مما يقوى فى ضوئه عوامل التفتيت اللغوى فتقوى لغة الجماعة المستقلة .. وتضعف لغة الجماعة الكبرى .

والعوامل النفسية والأدبية على غرار ما سبق فإنها قد تأخذ شكل ظاهرة تتمثل فيما بين سكان بعض المناطق فى النظم ومناحى التفكير والوجدان والعادات والتقاليد ودرجة الثقافة.. وغير ذلك مما قد تنشأ بسببه فروق تباعد بين لغة الجماعة المستقلة ولغة الجماعة الكبرى .

وهكذا تتمكن عوامل متعدده من أن تعمق مسارها فى استقلال عن اللغة المشتركة .. وتتعزز العزلة اللغوية للهجات المستقلة وتعينها مظلة الاستقلال السياسى أو التمييز الاقتصادى .أوغير ذلك.. ثم تأخذ كل لهجة

فى العمل على تقوية كيانها والاحتفاظ بشخصيتها .. ومقاومة ما يحاول أن ينال منها.

ثم تسلك منهجاً فى التطور والاستقلال .

ومن ثم تتسع مسافة الخلاف بين اللهجات..

وبين الناطقين بها .. وقد تصير كل واحدة غير مفهومة لأبناء اللهجات الأخرى .

ونتيجة لطبيعة كل إقليم وعادات وصفات الناطقين فيه .. تأخذ كل لهجة فى التفرع داخل نفسها إلى لهجات وينشأ عن الانقسام انقسام . . وهكذا :

ومما أثبتته بحوث اللغويين أن الخلافات المتفرعة بين اللهجات تأخذ اتجاهين أساسيين :

أحدهما : يتعلق بالجانب الصوتى .

والآخر : يتعلق بالجانب الدلالى .

ومعناه أن عناصر الخلاف تشمل الشكل والمضمون معاً .

وهذا ما حدث للغة العربية فى عصرنا هذا الذى نعيشه :

وحدث للغة العربية من قبل فى عصور التاريخ المختلفة .. غير أن عوامل مضاده كانت تنبعث من وجدان هذه الأمة فتذكى فى تيار التوحيد اللغوى القوة وتعيد للفصحى مكانتها .. ويتقبل أبناء كل جماعة لغوية ما يصدر عن الفصحى من نماذج فى طواعية .. ويتخلون عما يتصل بلهجاتهم عن اقتناع مبعثه كتاب الله الكريم ولغته[1] .

---

(١) سوف نحاول الاستفادة من عوامل التوحيد اللغوى فى تاريخ اللغة العربية ونحن بصدد رسم السياسة اللغوية .

اقرأ عوامل انتصار اللغة العربية فى عصر الحروب الصليبية فى كتابنا : فى علم اللغة التاريخى دراسة تطبيقية على عربية العصور الوسطى ط دار المعارف ١٩٨١ والطبعة الثالثة ١٩٨٨

غير أن ما حدث فى عصرنا هذا وأكبته ملابسات لم يحدث لها نظير من قبل : حيث تعرضت العربية لغزوات الاستعمار الأوربى التى تروج للغتها وثقافتها وفق تخطيط مدروس مستفيدة مما خلفته عصور الجمود . .

ولذا فان تيار ازدواجية اللغة يقوى فى ظل اعتبارين :

اعتبار التيار اللهجى وما يصاحبه من تفرق لغوى .

واعتبار تيار الثقافة الوافدة وما يصاحبه من ترسيخ قيم مخطط لها على الرغم مما تحمله من مبادىء منافية لما ترسخه الثقافة الاسلامية وتحمله اللغة العربية .

فإن ما تحمله اللغات الوافدة وثقافاتها من تقدم علمى ومعارف حضارية تتلاشى أمامه القيم .

وانعكس ذلك كله واضحاً فى ضعف مستوى اللغة العربية حتى بين طبقات مثقفى الأمة .. فإن المثقفين فى أنحاء الوطن العربى لا يملكون زمام التحدث بالفصحى دون أخطاء ، بل هم لا يملكون زمام التحدث بالعربية الميسرة دون أخطاء .

ذلك شأن المثقفين .. أما العامة فلا سبيل لهم إلا لهجاتهم المحلية .

وتتضح هذه الحقيقة فى الإذاعة المرئية والمسموعة . . فما أكثر المحادثات التى يبدأ فيها اللقاء متميزاً بلغة مثقفة من حيث حسن صياغة التعابير وجدية الأفكار والمحافظة على سمات الفصحى ولكننا ما نلبث أن نجدهم ينزلون إلى شكل ما من أشكال العامية أو صورة من صورها : ثم نبحث فنجدهم يسيرون على أساس أو سنن نحو عامى[1] .

فسلطان اللهجات المحلية له السيطرة على الناطقين بالفصحى حتى المتخصصين منهم : وهذا من الناحية العلمية له مبرراته من وجهة نظر الدرس اللغوى الحديث[2] فان

---

(١) هناك دراسات للغة إذاعات القاهرة قام بها ر.س.هاريل وبين سماتها العامة وقد تحدث مس آن رويال هذه الحقيقة. اقرأ بحث : علم اللغة والسياسة اللغوية فى مصر كتاب دراسات فى اللهجات العربية السابق من ص ١٧٧ ومن المعلوم أن للعاميات نظمها المختلفة الخاصة بها وكذلك أنحاءها التى تسير على أنظمة دقيقة مخالفة للفصحى .

(٢) اقرأ روبرت لادو فى كتابه : اللغة عبر الثقافات .

R. Lado Linguistics Across Cultures

وانظر كتابنا فى علم اللغة التقابلى . نشر دار المعارف

واقرأ س – بيت كور در. فى كتابه : تقديم لعلم اللغة التطبيقى

S. Pit Corder introducing Applied Linguistics.

العادات اللغوية المخزونة تخرج بطريقة لا واعية على غير إرادة من صاحبها .

يتضح ذلك فيما يتصل بالجانب الصوتى مما هو خاص بمخارج الحروف وخصائص نطقها من حيث الشدة والرخاوة .. والترقيق والتفخيم .. والجهر والهمس .. وغيره ومما يتصل بتشكيل الأصوات داخل الكلمات والجمل مما ينشأ عنه خلاف فى الصيغ والأبنية تحت تأثير النظام المقطعى الذى تختطه كل لهجة لنفسها فى ظل خصائص نطق تتصل بنظام التراكيب من حيث مواضع الارتكاز والنبر وطرق التنغيم داخل سلسلة الكلام مما ينتج عنه خصائص تباعد بين كل لهجة وأختها وبين الفصحى ولهجاتها .

ويتضح كذلك فيما يتعلق بالدلالة وجانب متن اللغة ومفرداتها حيث تختلف دلالة بعض المفردات أو دلالة بعض العبارات والجمل بسبب ما تتقبله بعض اللهجات من مفردات تضيفها إلى معجمها سواء عن طريق الاقتراض أو النحت أو القياس الإبداعى أو غيره .

أو عن طريق تطوير بعض الجوانب الدلالية لبعض المفردات أو غير ذلك من وسائل الإثراء اللغوى مما يؤثر على المعجم المستخدم لكل لهجة تأثيراً يباعد بين الفصحى وبينها .

أضف إلى ذلك ما ينشأ عن التطور اللغوى بقوانينه وعلله من امتداد ينزع نحو الحوشية ويباعد بين الفصحى ولهجاتها .

لهذا وغيره يسرى الشعور القوى بين المهتمين إزاء ضعف مستوى اللغة العربية العام .

فنحن أمام ظاهرة يجب أن تعالج فى ضوء التقدم العلمى وفى ضوء إمكانيات العصر ولا يكون ذلك إلا بناء على :

تخطيط دقيق منبثق عن سياسة لغوية هدفها الوصول إلى لغة نموذجية تقرب اللهجات فى الوطن العربى من الفصحى لغة القرآن الكريم .

ومن المعلوم لدى اللغويين أن فى اللهجات ظواهر أصيلة تحتفظ بها رغم مرور القرون .. فوجب أن يستفاد منها فى ضوء دراسة ميدانية شاملة[1] .

---

(١) يهتم مجمع اللغة العربية بدراسة هذه الظواهر الأصيلة فى اللهجات المحلية ويصدر بها قرارات وتقدم للمتخصصين ليستفيدوا منها فى تأليف بعض النصوص والكتب الخاصة بالتعليم العام فى مراحله المختلفة

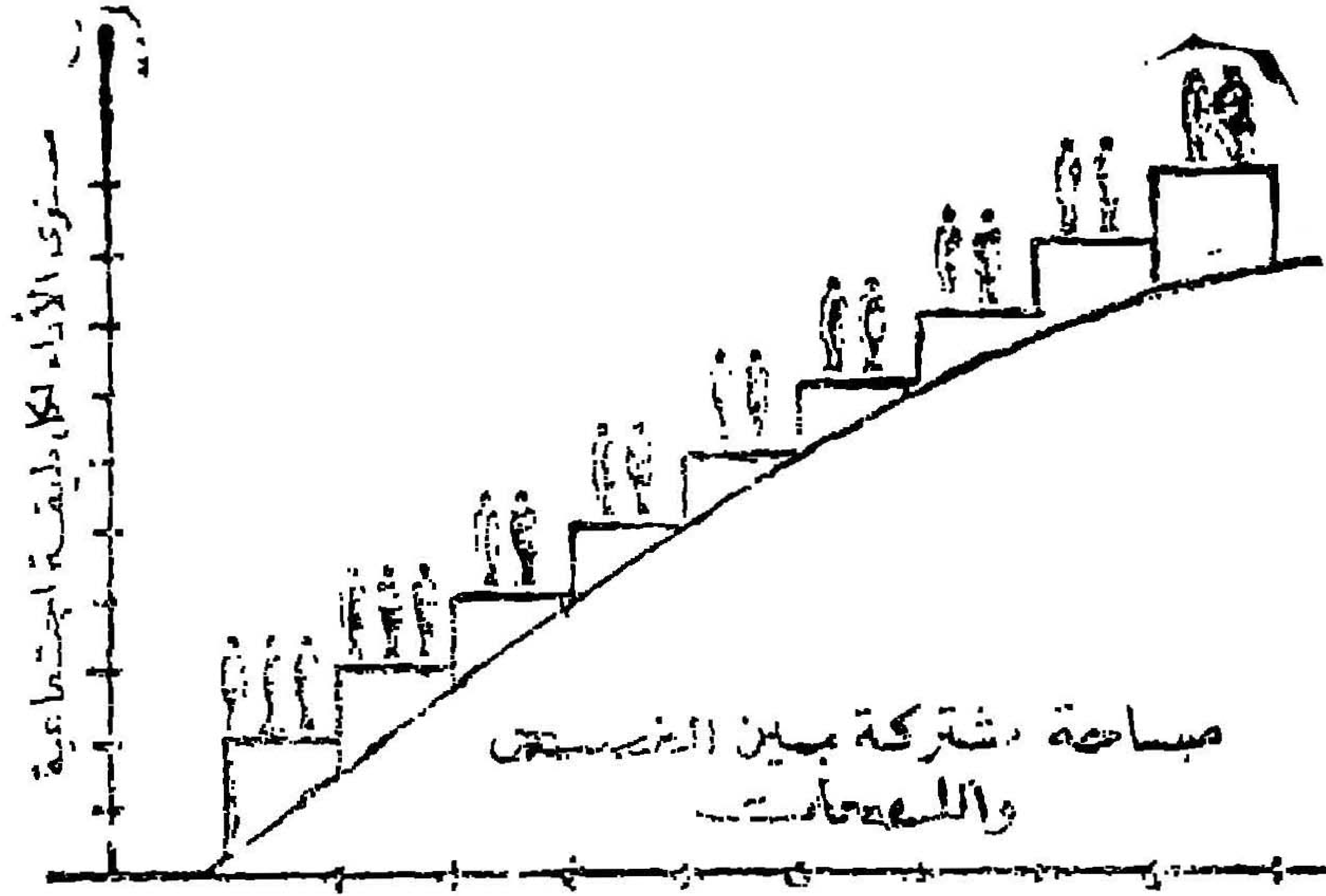
إقرأ على سبيل التمثيل مبحث الأستاذ محمد شوقى أمين عضو مجمع اللغة العربية تحت عنوان كلام الناس فى كتاب دراسات فى اللهجات العربية (السابق) من ص ٩ إلى ص ١٦ وانظر كتاب الألفاظ والأساليب الذى أصدره المجمع فى إعداده المختلفة .

واقرأ أبحاث متفرقة فى مجلة المجمع فى أعدادها المختلفة .

واقرأ كذلك قرارات المجمع .

كذلك من الثابت علمياً أن العاميات تقوم في لحمتها وسداها على العربية الصحيحة وهي متفرعة عنها إذ غيرا أن تطوراً ما أصابها في الجانب الصوتي وجانب المتن(١)

فالمساحة المشتركة بين الفصحى والعاميات المنبثقة عنها مساحة ضخمة على نحو ما يتضح ذلك من الرسم البياني الآتي :



فإذا كان التطور الذي أصاب كل لهجة يمثل ما هو خارج خط المنحنى فإن ما هو داخل خط المنحنى هو المشترك وهو المساحة الكبرى .

وهنا يجيء دور التخطيط ورسم السياسة اللغوية لرفع مستوى العاميات من خلال عمل دراسات وصفية تقابلية بين اللهجات الدارجة والفصحى .

يمكن أن يستضاء بها في الارتقاء بالعامية وتقريبها من الفصحى .

---

(١) في حوار مع الأستاذ شوقي أمين عضو مجمع اللغة العربية ومقرر لجنة اللهجات بمجمع اللغة العربية قال لي : في بادئ الأمر كنت أبحث عن العربية الصحيحة في العاميات واليوم صرت أبحث عن غير الفصيح في العاميات ومن الأمثلة السريعة على ذلك التي تؤكد ما يراه ما يقوله العامة من كلمات نحو :

إعزن – أصلها أعزوأن – عزوت كذا إلى كذا .

وكلمة شفط العامية لو بحثت في القواميس ما وجدتها ولكن سرعان ما تجد سفط وتسفطه يعني تشربه واستفط الشيء : اشتفه والإسفنط : ضرب من الأشربة فارسي معرب قال الأصمعي : هو بالرومية ... الخ

على أن يسخر فى ذلك التعليم العام [1] .

وكذلك وسائل الإعلام [2] .

أما الجامعات فإن دورها من خلال رسم السياسة اللغوية فهو حمل راية النقاء اللغوى داخل المجتمع بأسره وليس المجتمع الجامعى فحسب [3] ، فعن طريق هذه الجهات مجتمعة وفقاً لسياسة لغوية مخطط لها نسير فى طريق علاج الازدواجية اللغوية .

وذلك من خلال دراسة ميدانية شاملة تمد اللغة النموذجية بما يجعلها تفرض نفسها على الألسنة وهى تتداولها فى حياتها اليومية .

فمن الثابت لدى اللغويين أن اللغة النموذجية لديها قوة فرض نفسها ومما يقوله فندريس فى هذا الشأن عن اللغة النموذجية .

« هى الصورة المثالية التى تفرض نفسها على جميع الأفراد فى مجموعة واحدة » [4]

وذلك بسبب ترفعها عن خصائص اللهجات : حيث إن سامعها لا يعرف المنطقة الأصلية التى ينتمى إليها المتكلم بها » [5] .

وإن السياسة اللغوية كما هو ثابت هى وضع خطة للوصول إلى مستوى لغوى معين وهى فى تفصيلاتها الدقيقة وفى هيكلها العام تجىء بناء على دراسات يقوم بها المتخصصون فى المجالات اللغوية العامة النظرية والتطبيقية ويسهم فيها رجال العلوم اللغوية الاجتماعية والنفسية وتمر بدراسات واختبارات يتأكد بها الباحثون والمتخصصون .. من سلامة احتمالاتها .

وتضطلع بها جهات متعددة .

---

(١) على نحو ما سيتضح .

(٢) سيأتى ذلك مفصلا .

(٣) انظر : اللغة النموذجية وواجب الجامعات إزاء العمل على تثبيت هيكلها وتحديد خصائصها دراسات فى اللهجات من ص ١٠٩ / ١٣٠ واقرأ كتاب ظواهر قرآنية فى ضوء الدراسات اللغوية بين القدماء والمحدثين .

(٤) انظر كتاب اللغة : لفندريس .

(٥) انظر : أصوات الإنجليزية لهنرى سويت .

H. Sucet ; Sound of Language

وانظر : اللغة بين الفرد والمجتمع : ترجمة د . عبد الرحمن أيوب ص ٩٤ .

ومستقبل اللغة المشتركة للدكتور لإبراهيم أنيس — ط ١٩٦٠ من ص ٥ / ٩ .

وانظر مقدمة لدراسة فقه اللغة د . محمد أحمد أبو الفرج ص ٩٢

وهذا ما كانت عليه الفصحى قبل نزول القرآن فقد ترفعت عن الخصائص البارزة للغات القبائل مثل عنعنة تميم وعجعجة قضاعة وتلتلة بهراء وكشكشة سعد : وطمطمانية حمير ؛ وعجرفية ضبة ؛ وتضجع قيس وفشفشة تغلب إلى آخره انظر التفصيلات الخاصة بهذه الظواهر فى كتاب : لهجات العرب — لأحمد تيمور باشا — سلسلة المكتبة الثقافية العدد ٢٩٠ .

وانظر المزهر فى علوم اللغة وأنواعها : جلال الدين السيوطى .

وقد أوضح س : بيت كوردر (S, Pit Corder) الهيكل العام للسياسة اللغوية وأسماه العملية الشاملة .

ودور الجهات المختلفة فى السياسة اللغوية .

وجعله مستويات على النحو الآتى :

١ – المستوى الأول : سياسى	تضطلع به الدولة بناء على ما يقدمه اللغويون المتخصصون	وهو تحديد المستوى اللغوى المطلوب الوصول إليه . ولمن يقدم
وهذا المستوى عندنا واضح وهو العربية الفصحى فهى اللغة الرسمية وهو متفق عليه بالنسبة للغويين النظريين أو التطبيقيين وكذلك الاجتماعيين والنفسيين فهو أمر متفق عليه سواء على مستوى مصر أو على مستوى الدول العربية مجتمعة أو كل دولة على حدة .		
٢ – المستوى الثانى : لغوى ولغوى اجتماعى	يضطلع به رجال علم اللغة العام وعلم اللغة التطبيقى	ويتحدد فى ضوئه : نوع المادة التى تقدم والكم المطلوب . وعند أى مستوى تقدم
٣ – المستوى الثالث : لغوى نفسى تعليمى	وتضطلع به التربية والتعليم التربويون – والمدرسون	ويحدد فى ضوئه المادة المطلوبة وكيفية التقديم

(١) انظر كتابه : مدخل إلى علم اللغة التطبيقى واقرأ مقدمته وأبوابه المختلفة وانظر ص : ١٣ .
S . Pit Corder ; introducing Applied linguistics P. 13.

ويستعان عند وضع الخطط بعلماء اللغة فى المجالات المختلفة ما بين اجتماعية ونفسية . فمن المسلم به أن علم اللغة جزء من طائفة العلوم الاجتماعية تلك التى تمتاز بالصلة الشديدة فيما بينها والتى ترتبط فروعها بعضها ببعض ... وفروع علم اللغة التطبيقى بأنواعها المختلفة لا يستغنى عنها عند التخطيط أو التنفيذ[1] سواء عند رسم السياسة أو فى مراحل التنفيذ . وتوضع خطط السياسة اللغوية على محورين كبيرين :

أولهما : الاستفادة من النظريات اللغوية الحديثة على اختلاف أنواعها ومعطياتها وفى مقدمتها نظرية الطيف .. أو نظرية الموجة .

والاستفادة من الدراسات التحليلية التقابلية بما قامت عليه من نظريات لغوية سواء فى المجال التحليلى التقابلى بين اللغات .

Contrastative Analysis Linguistics

أو المجال التقابلى فى تحليل الأخطاء Errors

وثانيهما : الاستعانة بكل ما قدم للغة العربية الفصحى من جهود على امتداد تاريخها الطويل جهود أفراد أو جماعات .. فى عصر واحد أو فى عصور مجتمعة وبكل ما قدمته المؤسسات المتخصصة فى هذا الصدد من عون ...

ويراعى عند التخطيط الدور التى تضطلع به كل جهة من الجهات الثلاث[2] صاحبة التأثير على المتعلمين للغة من حيث الكم والكيف والتخطيط لطريقة التأثير .

توضيح ذلك :

بالنسبة للمحور الأول

الفكرة الخاصة بنظرية الطيف اللغوى (linguistic Sp ctrum) أو نظرية الموجة تعد النظرية القادرة على أن تقدم تصوراً كاملا مبنياً على أسس علمية من خلال نظرية متكاملة فى ضوئها يمكن أن تفسر النظاميات (R gularitis) التى توجد فى الصور المختلفة للاستعمالات المتنوعة داخل الازدواجية اللغوية والتى تحدها من جهة لغة عامية خالصة ، ومن جهة أخرى

---

(١) إقرأ : كوردر (السابق (— فى أبوابه المختلفة وكذلك المقدمة .

S.Pit Corder Introdcing Applied linguistics

(٢) المشار إليها بمحور النفوذ اللغوى القادرة على تحقيق النقاء اللغوى وحمل رايته داخل طبقات المجتمع والنفوذ بين فئاته وأولها : التعليم العام بمراحله المختلفة — وثانيها : أجهزة الإعلام بكل مستحدثاتها وإمكانياتها — وثالثها : الجامعات ببعدها الفعال داخل المجتمع .

اللغة العربية الفصحى الخالصة عندما تتم من خلال مهارات الاستعمالات الفعلية .

وفى ضوء هذا التصور يوضع التخطيط العملى للارتقاء التدريجى بالمستوى الفعلى للاستعمال اللغوى إزاء الازدواجية من أدنى مراحلها إلى المستوى المنشود .

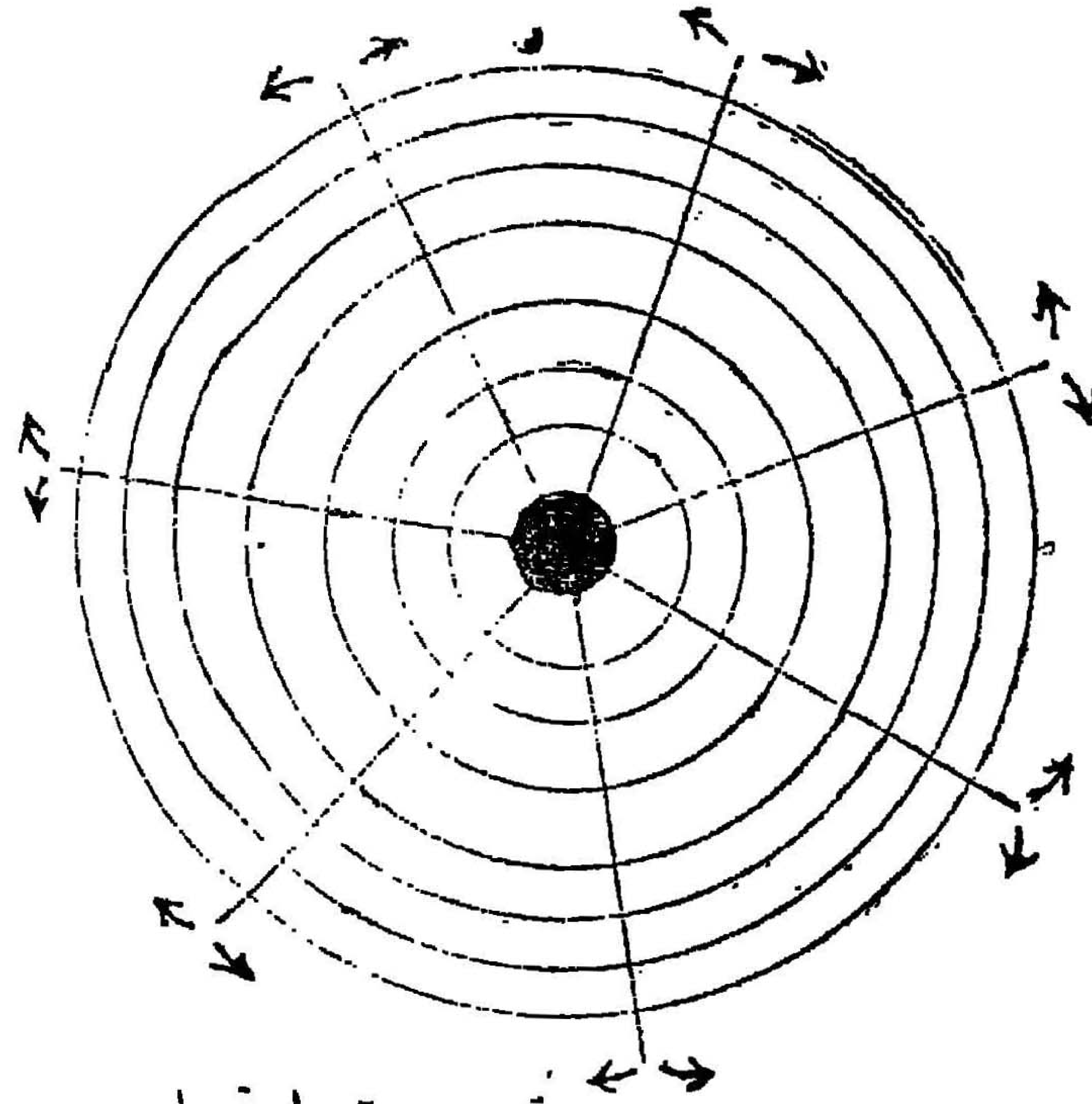
وتتضح أبعاد نظرية الطيف على النحو الآتى :

مثلما يعطينا شعاع من الشمس من خلال منشور زجاجى حزمة كاملة من ألوان الطيف السبعة تتدرج فى تسلسل وتداخل من البنفسجى إلى الأحمر مروراً بالنيلى والأزرق والأخضر والأصفر والبرتقالى وانتهاء بالأحمر .. كذلك تداخل اللهجات بين طبقات المجتمع هو تداخل تدريجى .. فإذا حللنا حزمة من الاستعمال اللغوى داخل مجتمع ما فإننا نجد أن لهجات طبقات المجتمع الواحد تتدرج فى تداخل ويظهر تدرج ألوان الطيف من خلال المنشور كما يظهر تدرج اللهجات من خلال التحليل ولكن إذا أدرنا قرص الطيف مسرعين عادت الألوان لوناً واحداً وهو الأبيض كما بدأت — فهى لهجة واحدة وإلى لهجات الإقليم ككل فهى لغة واحدة . ومن خلال الاستعمال اللغوى للهجة محلية من اللهجات داخل طبقات مجتمع واحد نحصل على حزمة مكونة من لهجات متعددة تتدرج فى الاستعمال اللغوى داخل طيف ينتقل فى تدرج من نقطة إلى أخرى بأنظمة لغوية مميزة سواء من حيث الصيغ أو خصائص النطق أو القواعد أو المعجم إلى آخره يحدها من الجهة عامية حوشية ومن جهة أخرى مستوى لغوى أعلى داخل هذه الحزمة وقد يقترب فى عمومه من العربية الميسرة أو الفصحى .

ولو حولنا ذلك الافتراض إلى تطبيق عملى اقتطعنا على سبيل التوضيح والتمثيل جزءاً من المجتمع المصرى — وليكن حى — السيدة زينب مثلا فاننا نجد داخل هذا الحى طبقات لغوية متنوعة — (— فى تداخل تتميز فيه كل لهجة أو طبقة) تميزا اجتماعياً وثقافياً تستجيب له اللغة فى صورة طبقات لغوية أيضاً تحددها المهنة والوظيفة الاجتماعية ولكن فى تداخل من خلال دائرة لا يدرى أين طرفاها .

فالمتحدث أيا كانت طبقته — هو مصرى — قاهرى — من حى السيدة زينب مثلا ولكن المستمع يميز لهجة المثقف من لهجة العامل من لهجة الطالب والمحامى والمدرس .:. من لهجة البائعين الجائلين من لهجات طبقات أخرى .:. ولكن فى تدرج داخل طيف .:

ولو افترضنا أن الذى اقتطعناه دائرة فهى دائرة داخل دائرة داخل دائرة .. إلخ .



طبقات لغوية متنوعة داخل
جزء متكامل من المجتمع

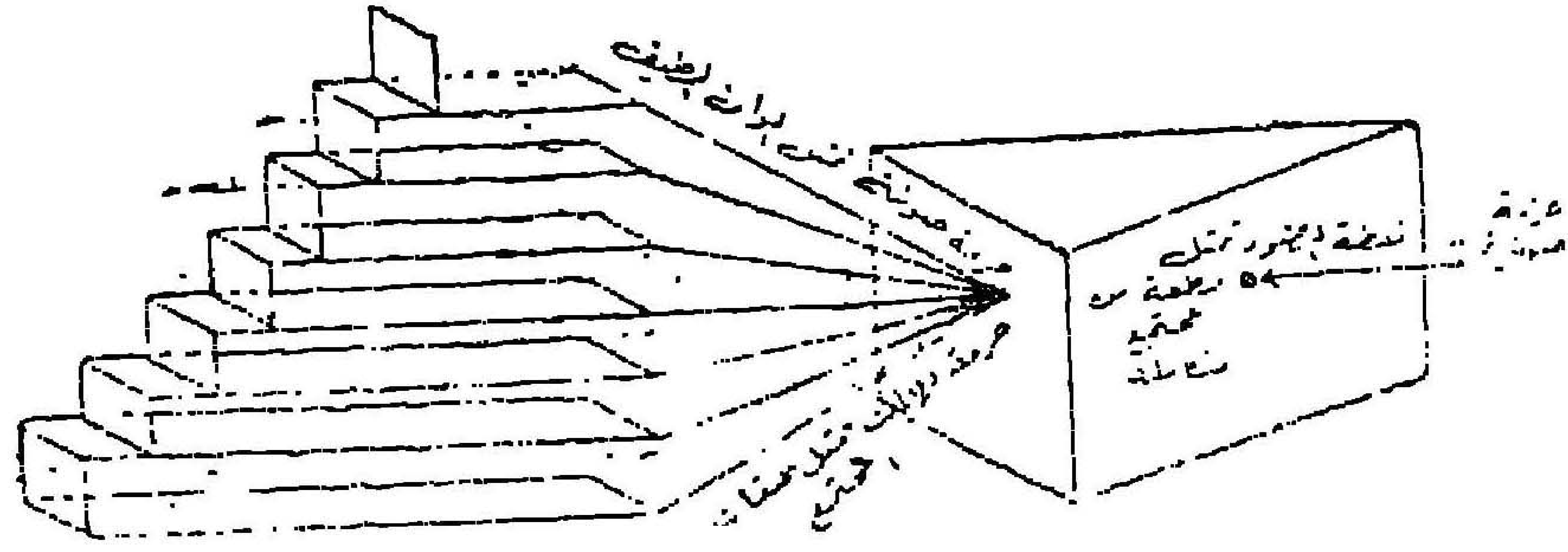
ولكن المتكلم لا ينتقل من دائرة العامية الحوشية إلى دائرة المثقفين بقدر ما يكون انتقاله تدريجياً إلى الدائرة التي تليه .

أي أنه يمكن أن يتحرك داخل دائرة طيف من نقطة إلى أخرى في أي من الاتجاهين على نحو ما توضح ذلك الأسهم وإن أراد أن يصل إلى ما هو أبعد فإن عليه أن يمر بالمنطقة التي تليه ... وهكذا إلى أن يصل إلى النقطة التي يريدها ولو أردنا أن نستوضح ذلك عملياً فإننا نلاحظ بالنسبة للشخص الواحد فنجده لا ينتقل من لهجته إلى لهجة أعلى من لهجته وإنما ينتقل إلى لهجة أقرب منها فيه ولا يقفز من قاع إلى قمة وإنما يتحرك داخل طيف .

وإن كان بوسع المتحدثين الذين يسيطرون على حيز واسع من الطيف تحديد مواقفهم بوسائل من التعبير تختلف فيما بينها باختلاف المستويات التي يتقنونها .

أي أنه بالإمكان افتراض سلسلة متصلة من التحويلات Transformational تربط الصور اللغوية من طبقة إلى طبقة أي من الأقل فصاحة إلى الأكثر فصاحة وهكذا .

ويمكن التأكد من ذلك من خلال دراسة الحديث الفعلي للمتكلمين بالعربية على مختلف مستويات أحاديثهم — فإننا نجد مستويات الحديث تتدرج في تداخل من طبقة إلى طبقة مثل تداخل ألوان الطيف من لون إلى لون وإن كانت من خلال النظرة الكلية لغة واحدة في مجتمع واحد .



فإذا ما وضعنا صورة المنشور وحزمة الضوء الداخلة فإننا نجدها لوناً واحداً هو الأبيض [أى حزمة واحدة ولكن المنشور حللها إلى ألوانها المتعددة (سبعة) (١).

وكذلك حزمة اللهجات المقتطفة من حى هى حزمة واحدة أصحابها يتكلمون لغة واحدة (عربية) ولهجة واحدة (قاهرية) ولكن التحليل اللغوى بينها لهجات متعددة.

وعلى نحو ماهو هنا تدرج فى تداخل هناك تدرج فى تداخل ...

وقد أجريت دراسات على مواقف اجتماعية خاصة بهذه الظاهرة فلم يحدث أن انتقل المتكلم من أحد الطرفين إلى الطرف الآخر بقدر ما أنه يتحرك داخل منطقة طيف من نقطة إلى أخرى فى أى من الاتجاهين ولكن بوسع المتحدث الذى يتقن مستويات متعددة

---

(١) وتحليل الطيف من خلال المنشورين أنها ألوان متداخلة فى تدرج .

بنفسجى ٣٩٠ — ٤٣٠

نيلى ٤٣٠ — ٤٦٠

أزرق ٤٦٠ — ٥٠٠

أخضر ٥٠٠ — ٥٧٠

أصفر ٥٧٠ — ٥٩٠

برتقالى ٥٩٠ — ٦٥٠

أحمر ٦٥٠ — ٧٧٠

وكما لا يمكن أن تكون عند البنفسجى مثلا وتقفز إلى الأحمر إلا مرورا ببقية الدرجات كذلك لا تكون عند قاع الموجة وتتحدث بالحوشية ثم تجده يقفز إلى لغة المثقفين فى طلاقة لكن قد تساعده قواعده التحويلة أن يتدرج إلى لهجة الطبقة التى تليه وقد يسيطر على حيز واسع من الطيف فينتقل إلى مستويين أو أكثر، ولكن فى تدرج من خلال مهارات استعمال فعليه يحددها تفاعله داخل المجتمع .

أن يسيطر على حيز واسع من الطيف .. فمثلا من بين طبقات المثقفين من يقدر على التحرك من نقطة إلى أخرى فى أى من الاتجاهين العامية أو العربية العصرية .. وهذا هو الذى يعلل سبب ارتداد المتحدث بالفصحى إلى لهجته فهو يتحرك فى تدرج بين منقطقتين من الطيف ...

والفكرة الخاصة بنظرية الطيف Linguistic Spicrtum أو نظرية الموجــة تعد حتى الآن النظرية التى تفسر النظاميات (R gularitits) التى توجد فى صور الاستعمال أو المهارات اللغوية التى تحد من جهة بالمستوى الحوشى ومن جهة أخرى بالفصيح .

وهى التى عللت الصعوبات التى يعانى منها المبتدئون فى تعلم العربية بسبب تمكن عاداتهم اللهجية من عادات اللغة التى يكتسبونها ولبعد المسافة بعين القاع والقمة أو بين بداية أول ألوان الطيف ونهايتها ــ بالنسبة للمبتدئين وما يتمناه المعلمون ... ومن هنا جاءت أهمية التدرج فى المحتوى الذى يقدم لهؤلاء وأن يكون على أيدى متخصصين ...

وهى التى فسرت عدم استقامة السنة المثقفين بالفصحى على الرغم من أن بعضهم قد يكون نال قسطاً كبيراً من الدراسة التقليدية الخاصة بالفصحى [(١)] .

وهى أيضاً التى فسرت عدم إقبال الجماهير من المشاهدين أو المستمعين على الأعمال الفنية المختلفة فى ثوبها الأدبى الرفيع الذى يفهم بالفصحى فى عروض مسرحية أو تمثليات أو حتى مسلسلات حيث ينفض عامة الجمهور ؛ على حين يقدمون على أعمال باللهجات المحلية ولا سيما اللهجة المصرية[(١)] .

ومن هنا تذهب صيحات الذين ينادون بالإصلاح دون أن يبنوه على دراسة علمية تخصصية مخطط لها .. أدراج الرياح .

---

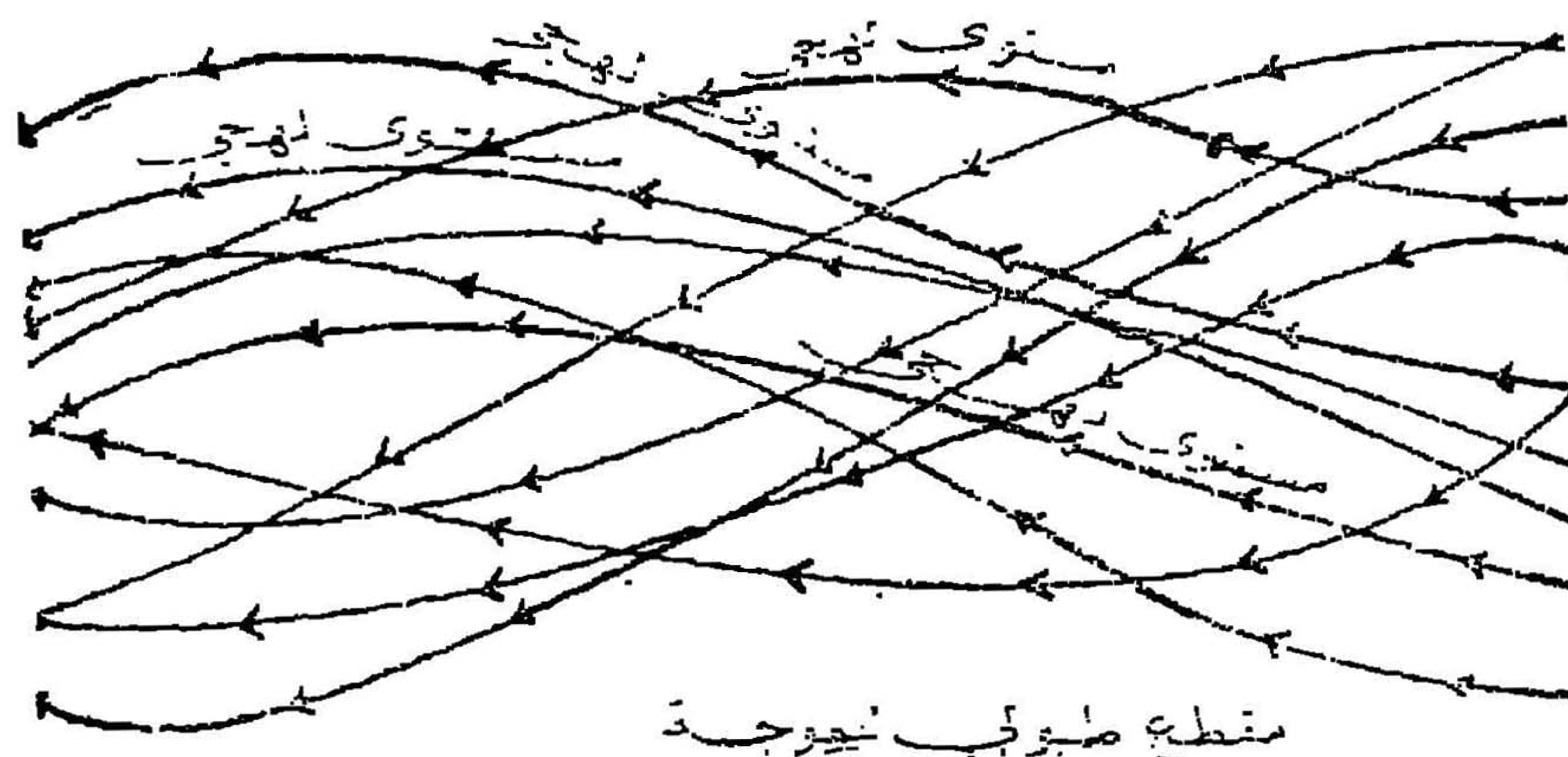
(١) تقدمت إلى جامعة الأزهر كلية الدراسات الإنسانية رسالة دكتوراه من الباحثة سهير على عزت نيــوجى تتناول بحث مشكلة الترجمة للمسرح من خلال ترجمة مسرحيات موليير .

وتوصلت الباحثة إلى ضرورة نقل مسرح موليير باللغة العامية بدلا من الفصحى والإبقاء على المضمون الكوميدى بمعنى أن تتم بالاقتباس وليست بالترجمة وتكونت لجنة المناقشة من أندريية تيسبيه أستاذ المسرح الفرنسى بجامعة السوربون ود . رجاء ياقوت رئيسة قسم اللغات والترجمة وآدابها بجامعة الأزهر ود . زينب منيب الأستاذ بكلية الألسن .

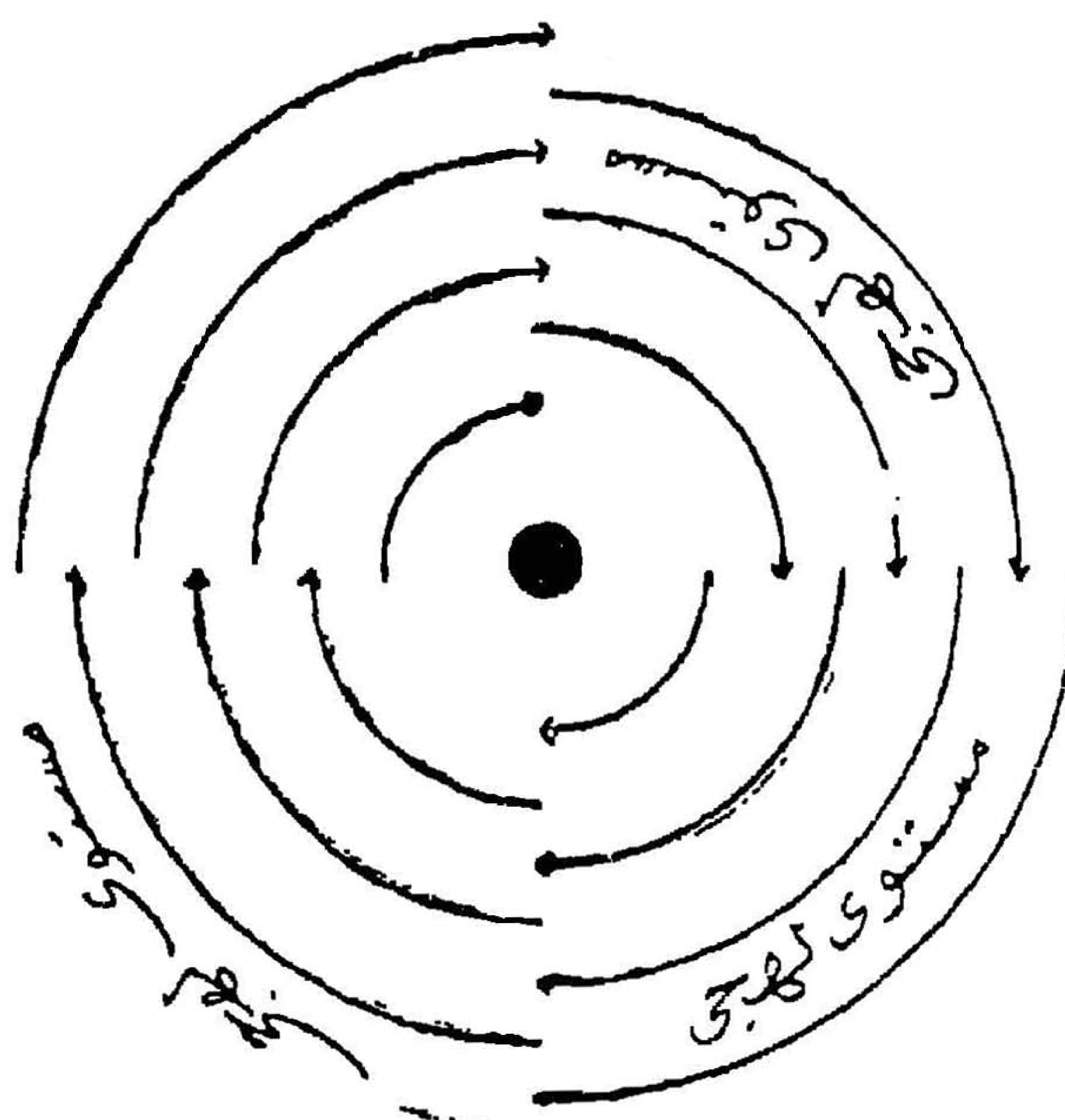
ونشرت هذا الخبر جريدة « أخبار اليوم » القاهرة فى ٢٨ / ٣ / ١٩٨٧ عدد ٣٢١٣ ــ الصفحة السادسة . انظرجامعة الازهر حصن اللغة (نقل المسرح أى الترجمة بالعامية لا بالفصحى) المسألة مسألة رسم سياسة لغوية ومراعاة نظرية للطيف .

وتوضح صورة الموجة التى أمامنا الفكرة . فالذى أمامنا صورة موجة ذات قاع وقمة وبين القمة والقاع طبقات فى تداخل وليست فى تراص :

وكذلك الموجات تتتابع فى تداخل وليس فى تراص —



مقطع طولى للموجة



مقطع رأسى للموجة

عند أى مستوى داخل الموجة اللغوية نجد جماعة تتحدث فيما بينها فى داخل هذا المستوى.

وتبين أن يوسع المتحدث التحرك إلى أعلى أو إلى أسفل داخل المجال أى الانتقال فى تدرج من نقطة إلى نقطة — وفكرة الموجة هى التى أوضحت بصورة مؤكدة أن القواعد قواعد تداخل (interferance) أى أن اللغة متداخلة وليست متراكبة .

فلا تنتقل من مستوى نقطة وليكن القاع دون أن تمر ببقية المستويات .

عن طريق التحول أى أن القواعد قواعد تحويلى (Transformational) واستمع على سبيل التمثيل إلى أى متحدث بالفصحى وليكن فى مؤتمر علمى عام تحكم مباشرة على أن المتحدث من مصر أو من العراق أو السعودية أو الكويت أو المغرب إلى آخره وقد تحكم على أن المتحدث مصرى من إقليم كذا أو كذا على الرغم من أن كل واحد من المؤتمرين يصطنع الفصحى لغة حديثة ولكنها قواعد التداخل طبقاً لنظرية الطيف أو الموجة .

وهذا يؤكد أن الخلافات بين العربيـــة الفصحى واللهجات المتفرعة منها كبيرة

وذلك لأن الخــلافات مبعثها الأنظمة Systemes اللغــوية وهى متعددة ما بين نظام صوتى ونظام صيغ ونظام نحوى ونظام معجمى ونظام دلالى إلى آخره .

هذا ما أثبتته الدراسات اللغوية المتعددة(١)

* فتعدد الأنظمة واختلافها .

* ودبلجة هــذه الأنظمة فى اللاوعى والمخزون العقلى . .

* وسيطرة اللاوعى على المتكلم أثناء تحدثه .

كل هذا يفسر ارتداد المستعمل للغة إلى نقطة مستواة اللهجى والعودة إليه من خلال انفعاله فى الحديث وغفلته عن قواعد التحويل (Transformational) التى تنقله من مستوى إلى مستوى داخل الطيف أو الموجة .

ومن هنا جاءت الفكرة الداعية إلى الاستفادة من نظرية الطيف أو الموجه ؟

ويعد عمل ر . شميدت (R, Schimidt)

وبحث ديفيد شولز (D, Schulz)

دراستين وصفيتين لتلك اللهجات المتوسطة للغة المصرية تميلان إلى تأييد هذا التصور النظرى للغة(٢)

وعلى الرغم من وجود نقاط خلاف كثيرة بين العاميات والفصحى على نحو

---

(١) من بينها على سبيل التمثيل :

دراسة . ج ستيتكيفتش (J. stetkevych) للغة النثر العربى الحديث .

ودراسة . ر . س . هاريل (R.S. Harrel) للغة إذاعات راديو القاهرة والسمات العامة للاختلاف بينها وبين اللغة العربية الكلاسيكية .

وتحليل . هـ . بلانك (H. Blanc) للغة العربية المستخدمة من جانب متحدثين متعلمين من مناطق لهجات مختلفة عندما يتحدثون معا .

وأبحاث س . كلين (C. Killean) ود . سولز D. schulz عن لغات الإذاعات التليفزيونية مع المتعلمين المصريين .

وانظر بحث مس آن رويال علم اللغة والسياسة اللغوية فى مصر (السابق (من ص ١٧١ / ١٧٤ .

واقرأ قائمة مراجعة ص ١٨٢ / ١٨٣ .

(٢) انظر علم اللغة والسياسة اللغوية فى مصر . مس آن رويال (السابق) من ص ١٧١ / ١٨١ .

ماسبق أن أوضحنا ذلك وبينا أسبابه إلا أن نقاط الالتقاء فى ضوء الدرس التحليلى التقابلى تمثل مساحة فسيحة على نحو ماتبين من منحنى ظاهرة الموجة السابق حيث أتضحت المساحة المشتركة وهى مساحة كبيرة

ويتضح من الرسم البيانى الآتى :

كيف نستفيد من الدرس اللغوى التقابلى التحليلى فى تقريب العاميه من الفصحى .

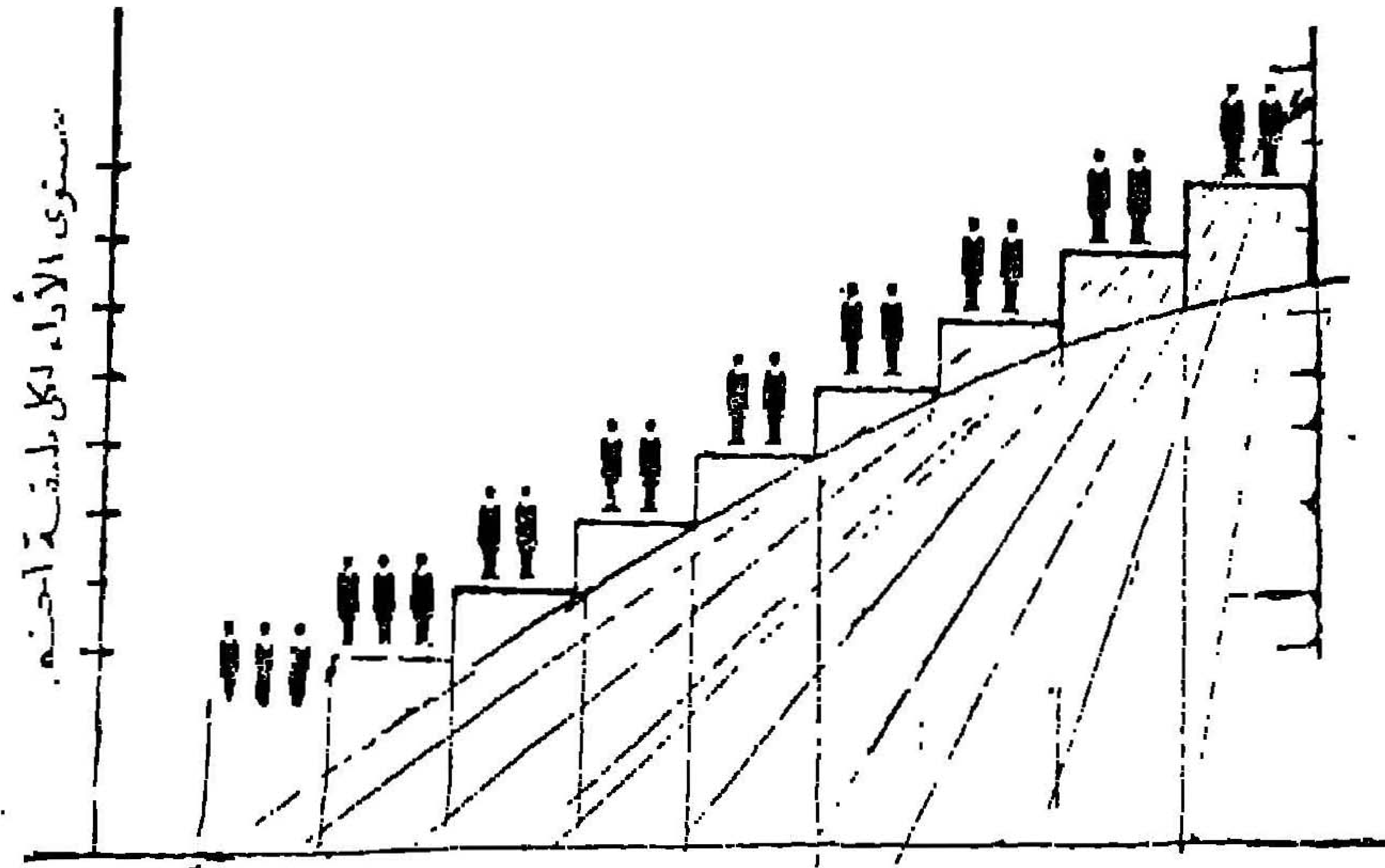
حيث يتضح من خلاله كيف يحدث التداخل اللهجى بين العامية والفصحى على نحو مايحدث التداخل بين أجزاء الموجة داخل حركتها .

أى أن الدراسات التحليلة التقابلية اللغوية بين الفصحى والعاميات هى العمل العلمى الذى يعتمد عليه المخطط للسياسة اللغوية إزاء ظاهرة الازدواجية .

والرسم البيانى الآتى يوضح دور الدراسة التقابلية فى تحليل عناصر الاتفاق والاختلاف

محور المستويات اللغوية

محور يمثل المستوى اللغوى للهجات داخل طبقاتها الاجتماعية



محور جماعات المتكلمين (اللهجات)

المساحة الكبيرة المشتركة من الداخل هى الحلقة التى تعزز نفسها بنفسها وتفرض سلطانها ولا تسمح بامتلاك الحديث لغيرها إذا اعتبرنا أن كل نقطة على محور جماعات المتكلمين لهجة .

فإنه يمكن الاستفادة من خلال الدراسة التقابلية لتحليل المستويات اللغوية لكل لهجة على حدة لأن لكل لهجة مستواها وخصائصها .

ولانه كما توجد بين كل اللهجات ظواهر مخالفـــه كذلك بينها ظـــواهر مشـــتركة

أى أن هناك ظواهر لغوية واحدة فى جميع اللهجات وهى التى تمثلها المساحـــة للمواسعة داخل الرسم من خلال التحليل البيانى وتلك هى الظواهر المشتركة التى تفرزها الدراسة التقابلية التحليلية .

والتى من عندها تبدأ نقطة الانطلاق فى فى وضع مناهج مشتركة صالحة للتطبيق على مستوى الناطقين بالعربية فى انحاء الوطن العربى .

وقد أثبتت البحوث الميدانية والدراسة التحليلية لواقع الاستعمال اللغوى أننا أمام حلقه داخـــل الطيف تعزز نفسها بنفسها وتفرض سلطانها ولا تسمح بامتلاك الحديث لغيرها فلا تسمح أبدا للعربية الفصحى . . . : على حين أنها تسمح وتشجع على امتلاك العامية أو عامية مشوبة بالفصحى .

غير أن ميزة لغة هذة الحلقة أنها تتسم بالمرونة والحيوية .

وهذه الحلقة هى التى تستخدم فى المدارس فى مراحل التعليم المختلفة يستخدمها الطلاب والمدرســـون ابتداء بأولى مراحلة وانتهاء بأعلاها وهى تستخدم فى الجامعات وتدور على ألسنة المثقفين . .

يعزز ذلك ويقويه أنها المستخدمة فى أجهزة الأعلام[1] ووسائل الاتصال اللغوى الحديثة .

---

(١) على الرغم مما يوجه إلى هذه اللغة من انتقاد على أعلى المستويات وعلى الرغم من مهاجمة مستعمليها إلا أنهم لا يستطيعون التخلى عنها .

على سبيل التمثيل فى حوار مع الدكتور إبراهيم مدكور رئيس مجمع اللغة العربية فى صحيفة الأهرام القاهرية بتاريخ ١٢ / ٣ / ١٩٨٧ فى الصفحة الحادية عشرة .

قرر أن وسائل الإعلام ونظام التعليم وراء هبوط مستوى اللغة العربية ، وأوضح فى حواره مدى إساءة العامية إلى العربية الفصحى .

وأشار على الأدباء الشبان ألا يلجأوا إلى العامية فيما يكتبون ونصحهم بالارتقاء نحو الفصحى لا النزول إلى العامية .

كما أخذ على وسائل الإعلام أنها تفسح المجال فى ندواتها الأدبية لهؤلاء الشبان الذين يولعون بالعامية . وأن هذا يسىء ، وطالب بالنهوض بالعربية الحديثة وأن نسير فى هذا الطريق .

ما بين إذاعة مسموعة ومرئية[1] وصحف ومجلات ودوريات . . إلخ وهي مستويات تتدرج في تداخل تدرج ألوان الطيف . .

وتعتبر هذه الحلقة بين مستويات الأداء اللغوى (Linguistics Leveles) قمة المهارات اللغوية الموجودة في العربية على مستوى الاستعمال بين طبقات المثقفين لأن التخطيط القائم لايوصل إلى أفضل منها ولم تجئ عفوا وانما جاءت لعوامل[2] ولئن أردنا الوصول إلى ما هو أفضل لا بد من من رسم سياسة لغوية جديدة .

ووضع خطط كاملة مبنية على أسس علمية وتتخذ في تحقيق أهدافها المحورين اللذين المحنا اليهما . . مع تسخير العوامل المعينة التي ذكرناها من قبل بكل طاقاتها وإمكانياتها .

في حديثنا السابق اشرنا إلى المحور الأول من المحاور التي توضع على أساسها خطط السياسة اللغوية . . وهو محور النظريات اللغوية الحديثة وتسخيرها في خدمة السياسة اللغوية والتخطيط لها . وفي مقدمتها نظرية الطيف أو الموجة . والنظرية اللغوية العامة . . وتسخير الدراسات اللغوية التحليلية بمناهجها المختلفة ما بين وصفي وتاريخي ومقارن وتقابلي في خدمة هذه السياسة .

وتنفيذها . . . بان نبدأ بدراسة وصيفية تحليلية على الممارسات اللغوية بين أصحاب الثقافات ولا سيما في المستويات الرسمية .

وداخل شئون الحياة بين طبقات الناس حيث نجد نوعا من الدارجة المطعمة ببعض سمات الفصحى غير أنها بين الحين والحين تنحدر إلى حوشية العامية .

في مراحل التعليم العام بين طوائف المدرسين على مختلف مستوياته . .

وكذلك في الجامعات حيث تستخدم في قاعات الدرس عربية عصرية قوامها العامية

وكذلك بين بقية طبقات المثقفين حيث تتم ممارسات لغوية بعامية مطعمة ببعض الفصحى بين أصحاب المكانة المرموقة داخل طبقات المجتمع بين الصحفيين والإعلاميين بعامة والأطباء والمحامين ورجال الأعمال والمهندسين . . . بل حتى بين

---

(١) مما يضفي على هذه اللغة المرونة والحيوية المتصفة بها ما تتضمنه تلك البرامج من مواد شيقة من بينها الأغاني بألحانها الشجية بأعذب الأصوات .

(٢) تفصيل هذه العوامل والحديث عنها موضح في الصفحات القادمة .

الأدباء . . بل وبين المتخصصين أنفسهم .

تتم معظم الممارسات اللغوية من خلال هذه المستويات كلها بعامية مطعمة بفصحى تتدرج داخل مناطق الطيف كل منطقة حسب إمكانيات طبقتها على أساس نحو عامي . تحدده مستويات التحليل اللغوى المختلفة ما بين الجانب الصوتى . وجانب المشتقات والصيغ والتراكيب وجانب الدلالة والمعجم.

فتجرى على الأوضاع اللغوية القائمة دراسات وصفيــة تحـدد خصائص كل مستوى من خلال الممارسات الفعلية على أن يوضع فى المقابل الجانب اللغوى الفصيح عن طريق المنهج التحليلى التقابلى ويخطط للكيفية التى يمكن ان يتم فى ضوئها طريقة الممارسات التى تحقــق للفصحى ما نرجوه فى ضوء الاستفادة من قوانين التطور من خلال المنهج التاريخى .

وفى ضوء دراسة المواقف الاجتماعية الخاصة بهذه الظاهرة نجد التحرك فى أى من الاتجاهين داخل منطقة الطيف من منطقة إلى أخرى حسب ما يملك المتحدث من قواعد التحويل (Trans Formatinal) التى يستطيع أن يسيطر بها على حيز من أحياز الطيف . .

ومن المعلوم أنه عنــد التخطيط للسياسة اللغوية يجب أن يوضع التصور الكامل للحركة اللغوية للغة المنشودة داخل طبقات المجتمع بفئاته المتنوعة والمراحل التى تحتاجها كل فئة . . وكيفية اجتيازها . . والمادة اللغوية التى تقدم لها ووسائل تقديمها . . ويعرض التخطيط كذلك التصور لمهارات الاتصال الضرورية التى يتحقق فى ضوئها الصالح العام للعمل من حيث الممارسات اليومية بحيث يتحقق التقدم داخل الطيف بطريقة لاواعية ويخطط للاستفادة من مهارات الاستماع والاستجابة من خلال مجالات الاستعمال المتنوعة داخل طبقات المجتمع وفئاته . .

* المجالات التجارية . .

والمجالات الصناعية . .

ومجالات المهن المختلفة . .

مع عرض التصور الكامل للغة داخل المجتمع فى تفاعلها بين طبقاته فى نطاق الاستعمال الواسع ونطاق الاستعمال الضيق فى الأدوار المتعددة وفى مختلف الأدوار بين الفئات المختلفة بحيث يقدم التخطيط» العربية المتخصصة لكل مهنة .

عربية الأطباء . . .

عربية المهندسين . .

عربية المحامين ورجال القضاء والقانون .

عربية البنوك والمعاملات الاقتصادية . . .

ومثلها العربيــة الخاصــة بالمؤسسات والشركات مثل شركات البترول . . .

وشركات الطيران : :

وغير ذلك من المؤسسات والشركات التى تتطلب لغة خاصة بها ولها دورها للتفاعل المتأثر داخل طبقات المجتمع . .(١)

على أن يخطط كذلك لتعليم غير الناطقين باللغة العربية من أبناء الأمم الأخرى مادة . . و . . ومستوى

ولأبناء المغتربين العائدين . .

أى يكون التخطيط واسعا . . والهدف واضحا . .

بحيث يتم إتقان مهارات اللغة من خلال السيطرة على قواعدها وأنظمتها . . . وفقا لبرامج دقيقة يحدث نتيجة لها التأثير المطلوب بحيث يجيدها المستعمل بطريقة لاواعية .

وقد صارت اليوم اللغة المكتوبة منافسة للغة المنطوقة فقد صارت من لوازم العصر . .

وساعد على ذلك :

انتشار التعليم وتعميمه(٢)

وانتشار الصحف والمجلات وتداولها على أوسع نطاق . .

وانتشار المكتبات .

وكثرة الكتب وتنوعها . . . نتيجة لكثرة النتاج الفكرى الذى تفيض به العقليات المتخصصة .

وبسبب تقدم الطباعة . . وتنوع وسائل النشر وتعدد جهاتها وغير ذلك كثير . . .

لذلك وجب أن يوضع فى السياسة اللغوية .

محور اللغة المقروءة . . والمستوى المنشود الوصول إليه . .

وأن يخطط لنشرها بين الأجيال المتعاقبة

على أن يوضع فى الاعتبار الأجهزة المنفذة .

فمحور اللغة المقروءة يوازى محور اللغة المنطوقة .

أى أن اللغة المنشود الوصول إليها لغة مقروءة ومنطوقة على مستوى معين من المهارة فى الحالتين . . .

من خلال سياسة لغوية يصاغ فى ضوئها الأهداف العامة والخاصة

وتوضع لها الخطوط المساعدة على التحديد والتنفيذ .

على أن يجىء التخطيط شاملا واضعا فى حسبانه الزمان والمكان على أوسع نطاق وأن تكون الاستفادة فى حالة تجدد واستمرار تقع مدى الحياة أى يكون تعلما مدى الحياة بطريق غير مباشر . .

---

(١) فى مجمع اللغة لجان تصدر معاجم خاصة بالتخصصات المتنوعة .

(٢) بل هناك محاولة جادة للقضاء على الأمية وهناك برامج لتعليم الكبار .

أما المحور الثانى الذى يقام عليه السياسة اللغوية .

فهو محور الاستفادة من أعمال المتخصصين وجهود السابقين . . . ومعطيات العصر وملابساته وما أحرزه العلم من تقدم . .
وأول مايجب أن يوضع فى الأعتبار — جهود مجمع اللغة العربية — وبقية المجامع

ويجب أن يوضع فى السياسة اللغوية مساهمات مجمع اللغة العربية بجهوده الهادفة فى مجالات نشاطه المتنوعة فى كل مايقوم به لاسيما مايتصل :

بقوائم المصطلحات التى أعدها وأقرها . .

وقوائم المفردات التى تدخل فى مقررات الدراسة فى مراحل التعليم المختلفة من أول المراحل إلى أعلى مستوياتها بما فى ذلك القواميس العلمية المتخصصة . . وكذلك ماقدم من قواميس تخدم مجالات متعددة الأغراض مثل الوجيز والوسيط والكبير ومعاجم التخصصات المختلفة ومصطلحاتها مثل الحشرات والكيمياء والفيزياء : وعلم النفس والفلسفة . . إلى آخره

وأعماله خاصة بالألفاظ والأساليب . . . :

وكذلك جهوده الخاصة بتيسير النحو وتبسيط قواعده ومصطلحاته .

وكل ما أخرج من قرارات . وتوصيات .

على أن يوضع ضمن التخطيط الاستفادة مما تنتجه المجامع اللغوية الأخرى فى ضوء تنسيق يفيد من منجزاتها فى تعاون فيما بينها .

على أن يوضع فى الاعتبار المصادر اللغوية الموجودة التى يمكن توفيرها فى الحاضر والمستقبل . . والتى تمد الخطط بالمادة المطلوبة[1].

وينبغى الاستفادة مما وضعه الإسلام الحنيف من نظم دقيقة ضمنت للعربية حيويتها ومنحتها التجدد عبر العصور وتلك واحدة من معجزات كتابه الكريم . .

فتتضافر مظاهر النشاط العقلى والثقافى والوجدانى التى تحافظ على كتاب الله وتنشر ثقافيته وترفع لواءه .

---

(١) من المفيد فى هذا الاطلاع على أعمال المركز القومى للبحوث التربوية بوزارة التربية والتعليم ما يتصل بالمناهج المطورة للغة العربية فى التعليم العام . وغيرها

— المناهج المطورة الخاصة بالإدارة العامة لدور المعلمين والمعلمات .

— اللوائح الخاصة بأقسام اللغة العربية بالجامعات

— لائحة كلية دار العلوم واللوائح الخاصة بأقسام اللغة العربية فى كليات الآداب والجامعات المختلفة .

مع ما بذله المتخصصون عبر العصور من معارف وعلوم من أجل المحافظة على سلامة كتاب الله نطقا وترتيلا وحسن أداء . .

وما تقدمه معاهد العلم ومؤسساته التى تعمل فى وعى محافظة على قواعـــد لغته ومتنها .

وما ينظمه الناظمون على ضوء بيانه متلمسين الفصحى فى أعلى مستويات أدائها . .

وما تقدمه قرائح الناطقين بالعربية من مصنفات فى مجالات الآداب والعـــلوم بأسلوب عربى مبين . . كل أولئك يدخل ضمن خطط السياسة اللغوية .

فالواقع أن الجهود تتعاون فى نشاط زعقلى حول غاية هى الحفاظ على لغة كتاب الله . . فوجب أن يستفاد من هذه الجهود من خلال سياسة لغوية يخطط لها فتحسن الاستفادة من الجهود الحاضرة . . ومما بذل من جهد عبر العصور . . .

وقد استطاع علماء العربية فى عصورها الأولى على الرغم من إمكانياتهم المتواضعه فرادى وجماعات أن يحفظوا للعربية سلامتها وأن يعبروا بها الأزمان على نحو ماوصلتنا .

وقد استطاع ديوان الإنشاء أن يضع فيما يشبه فى عرف اليوم سياسة لغوية استثارت فى الأمة العوامل التى ترسخ مبادىء الإسلام وقيمة وتنشر ثقافته وتحمى لغته وتنمى علاقات الأخوة بين أبنائه فى أقطار الأمة الواحدة[1]

فلا أقل من أنه يجب علينا ونحن نعيش فى عصر يملك إمكانيات علمية متقدمة . . ولدينا مؤسسات متخصصة أن تستفيد منها وأن نقدم للغتنا مثل ما يقدم أبناء اللغات الأخرى للغاتهم . وأن نضع سياسة لغوية مستفيدة من كل ماتقدم ومن النظريات اللغوية .

الدكتور البدراوى عبد الوهاب زهران
الخبير بالمجمع
وأستاذ اللغويات ورئيس قسم
اللغة العربية وعميد كلية الآداب
بجامعة أسيوط

---

(١) اقرأ صبح الأعشى للقلقشندى .
واقرأ ما جاء على لسان القاضى الفاضل عندما قدم للالتحاق بديوان الإنشاء .
واقرأ كتابنا فى علم اللغة التاريخى دراسة تطبيقية على عربية العصور الوسطى .
ومن المفيد فى هذا قراءة :
– مستقبل اللغة العربية المشتركة للدكتور إبراهيم أنيس القاهرة ١٩٦٠ م .
– اكتساب اللغة لمارك ريشل : ترجمة د. كمال بكداش .
– منهجية الترجمة التطبيقية . د – جوزيف ميشال شريم
– كتاب العوامل المائة النحوية فى أصول علم العربية : تحقيقنا ونشر دار المعارف بمصر .
– كتاب العمد فى التصريف لعبد القاهر الجرجانى تحقيقنا ونشر دار المعارف بمصر .

= – كتابنا من قضايا المتون – مبحث فى قضية الرمزية الصوتية . . . والمراجع الأفرنجية الآتية :

— Applied Linguistics :

A Survey for language teachers :

Edited by Dr. Monika Kehoc Professor of English .

Chairman, Applied linguistics

Marcanopolis College, Montreal.

— Language Teaching.

A Scientific Approach.

Robert lado.

Dean Institute of languages and Linguistics Georgetown university.

— Language and Language Learning Theory and Practice .

Nelson Brooks yale university.

— Linguistics in language teaching.

D.A. Wilkins

Lecturer in the Department of linguistic Science university of Reading.

— The linguistics Sciences and language Teaching

M.A. K. Halliday Professor of general linguistics university of london

Angus Mcintosh Forbes Professor of English Language University of Edinburgh

Peter Strevens Professor of Applied linguistics University of Essex

— Common Errors in language learning insights from English .

H.V. George.

— Linguistics Across Cultures

Applied linguistics for language teachers.

by Robert Lado.

— Outline of Stratificational Grammar.

by Sydney M. Lamb.

with an Appardix by Leanard E. Newell.

— Fundamentals of Language

Roman jakobson - Morris Halle 1971 Mouton the Hague Paris

الاستئناف النحوى ودوره فى التركيب

للدكتور مصطفى النحاس

الملخص

يتعرض البحث لموضوع الاستئناف فى النحو ، وتأثيره فى التركيب ، سواء من ناحية الاعراب ، أو من ناحية بناء التركيب نفسه ، وما يتبع ذلك من حذف أو تقدير او توليد جمل جديدة ، أو تقنين للقواعد فى بعض الجمل .

ويبين البحث أن من الاستئناف ما هو ظاهر ، تنبىء عنه الحركة الاعرابية وحرف العطف الذى يتحول الى معنى وظيفى جديد ، ومنه ماهو خفى ، يحتاج فى معرفته الى ادراك وفهم عميق للأساليب .

ويشير البحث الى أهمية الاستئناف فى تخريج بعض القراءات أو الضرورات او تعليل بعض اللهجات ، ويفرق بين الاستئناف البيانى والاستئناف النحوى .

مدخل :

يجدر أن نفرق هنا بين نوعين من الاستئناف

الاستئناف البيانى

والاستئناف النحوى"

فالأول : ما كان جوابا لسؤال مقدر نحو قوله تعالى (٥١ / ٢٤ ، ٢٥) :

«هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين : إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما ؛ قال سلام قوم منكرون » :

« فإن جملة القول الثانية جواب لسؤال مقدر ، تقديره : فماذا قال لهم ؟ ولهذا فصلت عن الأولى : فلم تعطف عليها »(ابن هشام ٢ / ٣٨٣) .

ومثله قوله تعالى (١٥ / ٥١ ، ٥٢) :

« ونبئهم عن ضيف إبراهيم ؛ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما . قال إنا منكم وجلون» .

فجملة « قال » جواب لسؤال مقدر ، هو : فماذا قال لهم ؟

ومعنى هذا أن الاستئناف البيانى يلزمه أمران :

سؤال مقدر ← فماذا قال لهم ؟

فعل مأخوذ من السؤال المقدر ← قال : ..

والثانى : وهو ما يعنينا هنا : يقصد به عدم تعلق الجملة نحويا بما قبلها . تعلق إتباع أو إخبار أو وصف أو حال أو صلة ؛ أى أنه يؤدى إلى انفصال الجملة المستأنفة عن الجملة السابقة عليها إعرابيا . وقيام حركة إعرابية جديدة تعبر عن معنى الاستئناف كما سيأتى . وقد اجتمع النوعان فى قول الشاعر :

زعم العواذل أننى فى غمرة
صدقوا ، ولكن غمرتى لاتنجلى

فجملة « صدقوا » استئناف بيانى ؛ لأنها جواب لسؤال مقدر : أصدقوا أم كذبوا ؟ فقيل صدقوا (ابن هشام ٢ / ٣٨٣) وجملة « غمرتى لاتنجلى » استئناف نحوى بـ « ولكن » .

وقد قالوا : إن كل استئناف بيانى هو نحوى : وليس العكس .

والمتتبع لمفهوم الاستئناف فى كتب النحو يلحظ أنه يأتى بألفاظ مختلفة : وبأسماء متعددة . فسيبويه — مثلا — يطلق عليه : « الابتداء والقطع » جاء فى الكتاب (١ / ٦٠) :

« وتقول : ما عبد الله خارجا ولا معْنٌ ذاهب : ترفعه على ألا تشرك الاسم الآخر فى « ما » ولكن تبتدئه » وفى موضع آخر يقول (١ / ٦١) : « فترفعه على الابتداء والقطع من الأول » .

والكسائى يطلق عليه « القطع والمخالفة » فكلمة (ظريفا) فى جملة : رأيت زيدا ظريفا : منصوبة عنده على القطع : ثم يعرّف القطع قائلا : « أن يكون أراد النعت فلما كان ماقبله معرفة : وهو نكرة : انقطع منه وخالفه » (ابن السراج أ — ١ / ٢٦١)

والفراء (٢ / ١٨٧) يطلق عليه : الاستئناف ، فقوله تعالى : « لاتخاف دركا ولا تخشى » (٢٠ / ٧٧) ورد فى قراءة حمزة : « لاتخف دركا ولاتخشى » بجزم (تخف) على الجزاء . ورفع (ولاتخشى) على الاستئناف .

فالمصطلحات — إذن — أربعة : الابتداء — القطع — المخالفة — الاستئناف .

وقد يطلق عليه : الفصل .

والذى يبدو أن سيبويه يساوى بين القطع والابتداء : كما أن الكسائى يساوى بين القطع والمخالفة ، وكلها بمعنى الاستئناف

وقد جمع ابن هشام بين الجملة الابتدائية والجملة الاستئنافية فقال (٢ / ٣٨٢) : « . . الابتدائية ، وتسمى أيضا المستأنفة وهو أوضح ؛ لأن الجملة الابتدائية تطلق أيضا على الجملة المصدرة بالمبتدأ ، ولو كان لها محل » . ويبدو أن ابن هشام اعتمد على المعنى اللغوى للاستئناف ، ففى اللسان (مادة أنف) الاستئناف : الابتداء ، . . . يقال :

استأنفت الشيء إذا ابتدأته . والابتداء بهذا المفهوم يشمل الجمل الاسمية والجمل الفعلية الواقعة في بدء الكلام . وهذه الجمل لا محل لها من الإعراب . لأنها لاتحل محل المفرد . ويرى ابن هشام أن مصطلح « الاستئناف » أوضح ؛ لأن الجملة الابتدائية تطلق أيضا على الجملة المصدرة بالمبتدأ ، ولو كان لها محل . وأيضا الابتدائية يتوهم قصرها على المفتتح بها النطق » (ابن هشام ٣٨٢/٢ ، الأمير ٤٦/٢) .

والحق أن يفصل بين المفهومين ؛ فالاستئنافية هي الجملة التي تأتي في أثناء الكلام منقطعة عما قبلها صناعياً ، أي أن الاستئناف يؤدى إلى انفصال الجملة المستأنفة عن الجمل السابقة عليها . ولا يضر الارتباط معنى بين الجملتين في هذه الحالة : لأن الارتباط المعنوى لا يستلزم محلية الإعراب ، كما ذكر الأمير في حاشيته (٤٦/٢) .

وإذا نظرنا إلى ماذكره سيبويه في هذه المسألة نجد أن مفهوم الابتداء لديه كان مرتبطاً دائما بقطع الكلام عما قبله ، ولم يتعرض لما سماه ابن هشام « الجملة الابتدائية » فالاستئناف عند سيبويه يعنى : قطع الجمل عما قبلها نحوياً ، كما يفهم من كلامه .

و هذا هو ما يهمنا في الاستئناف النحوى ؛ لأنه هو الذى يترتب عليه تغيير في حركة الإعراب ، وقد يؤدى إلى إنتاج جمل جديدة كما سنرى .

تأثير الاستئناف في الحركة الاعرابية :

إن دراسة الاستئناف تهدينا إلى جوانب مهمة في التركيب : بعضها يتعلق بالحركة الإعرابية : وبعضها الآخر يتعلق بالتركيب نفسه .

فمما يتعلق بالحركة الإعرابية نجد أن الكلمة التي يحكم عليها بأنها بداية الجملة المستأنفة تخرج عن حركتها التي كانت عليها إلى الضمة حسب ، فإذا كانت مرفوعة أو منصوبة أو مجرورة أو مجزومة : فإنها لاتخرج إلا إلى الرفع .

ومن أمثلة ذلك :

١ – قوله تعالى في سورة الحج (٥/٢٢) :
« لنبينَ لكم ونقرُّ في الأرحام ما نشاء »

وقوله (١٨٦/٧) :

من يضلل الله فلا هادى له ويذرُهم في طغيانهم يعمهون » .

وقوله (٢٨٢/٢) :

« واتقوا الله ويعلّمُكم الله » .

بالرفع على الاستئناف في ذلك كله ، إذ لو كانت الواو للعطف لانتصب (نقرّ) ، ولجزم (يذر) وللزم عطف الخبر على الأمر في الآية الأخيرة :

٢ ــ قول الشاعر :

على الحَكَمِ المأتيِّ يوماً إذا قضَى
قضيته ألا يجورَ ويقصدُ
(ابن هشام ١/٣٥٩)

قالواو خرجت عن معناها النحوى ، وهو العطف : وركبت تركيباً جديداً ، ورفع الفعل بعدها . ولم ينصب عطفاً على ما قبله ، وصارت جملة (ويقصد) لامحل لها من الإعراب . يقول ابن هشام (١/٣٥٩) : « وهذا متعين للاستئناف ، لأن العطف يجعله شريكاً فى النفى ، فيلزم التناقض » .

٣ ــ « كذلك قولهم : دعنى ولا أعودُ : لأنه لو نصب كان المعنى : ليجتمع تركك لعقوبتى وتركى لما تنهانى عنه ، وهذا باطل ؛ لأن طلبه ترك العقوبة إنما هو فى الحال ، فإذا تقيد ترك المنهى عنه بالحال لم يحصل غرض المؤدب » . (ابن هشام ١ / ٣٥٩) ولذا فالضمة هى الحركة المناسبة للمعنى المراد ، أما الفتحة من حيث هى علامة النصب على المعية بعد الواو فتؤدى إلى فساد المعنى ، ويكون الاستئناف هو المعول عليه فى تغيير الحركة الإعرابية من : دعنى ولا أعودَ إلى : دعنى ولا أعودُ :

٤ ــ وقول جميل بثينة :

ألم تسألِ الربعَ القَواءَ فينطقُ
وهل تُخبِرَنْكَ اليومَ بيداء سَمْلَقُ
(البغدادى ٣/٦٠١)

« أى : فهو ينطق ؛ لأنها لو كانت عاطفة لجزم ما بعدها ، ولو كانت للسببية لنصب ، ومثله : « فإنما يقول له كن فيكونُ » بالرفع . أى : فهو يكون حينئذ .

وقول الحطيئة :

الشعر صعب وطويل سلّمه
إذا ارتقى فيه الذى لا يعلمه
زلت به إلى الحضيض قدمُه
يريد أن يُعربَه فيُعْجِمُه

أى : فهو يعجمه ، ولا يجوز نصبه بالعطف لأنه لا يريد أن يعجمه « ابن هشام ١٦٨/١ » .

٥ ــ ومن أمثلة الفراء فى الاستئناف :

« أعطيتك ألفاً ثم أعطيتك قبل ذلك مالا ، فيكون ... » .

فـ « ثم » هنا حرف استئناف ؛ إذ لا يصح العطف ، لفقدان الترتيب .

ومنه ماذكره ابن هشام (١ : ١١٨) : « أعجبنى ما صنعت اليوم ، ثم ما صنعت أمس أعجب « وذلك لأن ما صنعه أمس لا يمكن أن يكون فى الترتيب بعد ما صنعه اليوم :

ومن ذلك قول الشاعر :

إن من ساد ، ثم ساد أبوه

ثم قد ساد ، قبل ذلك ، جده[1]

(المرادى : ٤٢٨)

وقال ابن عصفور : ما ذكره الفراء من أن المقصود بـ « ثم » ترتيب الإخبار لا ترتيب الشيء فى نفسه ، وكأنه قال : اسمع منى هذا الذى هو : بلغنى ما صنعت اليوم ، ثم اسمع منى هذا الخبر الآخر الذى هو : ما صنعت أمس أعجب – ليس بشيء ؛ لأن « ثم » تقتضى تأخر الثانى عن الأول بمهلة ، ولا مهلة بين الإخبارين » (المرادى : ٤٢٨) .

٦ – ومن هذا القبيل قول جرير :

فمازالت القتلى تمجُّ دماءَها

بدجلة ، حتى ماءُ دجلةَ أشكَلُ

(ابن هشام ١٢٨/١)

وقول الفرزدق :

فواعجبا ، حتى كليب تسبُّنى

كأن أباها نهشلٌ أو مُجاشِعُ

(ابن هشام ١٢٩/١)

يقول ابن هشام (١ / ١٢٩) : « ولابدَّ من تقدير محذوف قبل (حتى) فى هذا البيت يكون ما بعد (حتى) غاية له ؛ أى : فواعجبا ، يسبنى الناس : حتى كليب تسبنى » .

وتدخل (حتى) على الجملة الفعلية ، سواء كان فعلها ماضياً ، نحو قوله تعالى (٩٥/٧) :

« ثم بدّلنا مكان السيئة الحسنة . حتى عفوا وقالوا .. »

أو مضارعاً ، نحو قول حسان .

يُغْشَوْنَ حتى ما تَهِرُّ كلابهم

لا يَسْألون عن السَّواد المقبل

(ابن هشام ١٢٩/١)

ومن التعبيرات الشائعة فى اللغة المعاصرة : حتى أنت (يافلان) ويؤخذ على هذا التعبير أنه لم يرد قبله كلام ؛ لكن يمكن حمله على تقدير محذوف قبل حتى ، مثل : يقسو علىَّ الناس حتى أنت يا (فلان) .. أو يعيرنى الناس حتى أنت .. أو نحو ذلك ، بحسب ما يمليه المقام .

تأثير الاستئناف فى التركيب :

عرضنا فيما سبق نماذج من تأثير الاستئناف فى الحركة الإعرابية ، ورأينا كيف تخرج الكلمة الواقعة فى بداية الجملة المستأنفة عن

---

(١) البيت لأبى نواس ، وروايته ، كما ذكر السيوطى (٥ / ٢٣٦) :

قل لمن ساد ثم ساد أبوه قبله ، ثم قبل ذلك جده

حركتها التي كانت عليها إلى الضم . وهذا النوع من الاستئناف يعتمد فيه غالباً على ظاهر العبارة : وما فيها من روابط لغوية (مثل الواو – الفاء – ثم – حتى ..) حيث تخرج عن معناها الوظيفي وهو العطف ، إلى معنى نحوى جديد . هو الاستئناف .

وقد أشرنا في صدر هذا البحث إلى أن تأثير الاستئناف لايقتصر على الحركة الإعرابية ، بل قد يمتد إلى التركيب نفسه ، وطريقة تأليف الكلام ونظمه ، وهذا النوع من الاستئناف لاينبغي الاعتماد فيه على ظاهر العبارة . وما فيها من روابط لغوية ، بل يحتاج – مع ذلك – إلى قوة إدراك ، وفهم للأساليب العربية ، واحتكام إلى المعنى الذى يتضمنه التركيب .

وقد أشار ابن هشام إلى هذا النوع من الاستئناف ، وقال (٢ / ٣٨٣) : « ومن الاستئناف ما قد يخفى » وله أمثلة كثيرة ، منها

١ – قوله تعالى (٧/٣٧، ٨) : « وحفظاً من كل شيطان مارد . لا يسّمّعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب . . . » فإن الذى يتبادر إلى الذهن أن جملة (لا يسمعون) صفة لكل شيطان أو حال منه : وكلاهما باطل ، إذ لامعنى للحفظ من شيطان لايسّمّع . وإنما هي للاستئناف النحوى .

« وإذا توهمت أنها حال مقدرة فلتعلم أنك مخطئ أيضا ، لأن الحال المقدرة تعنى أن صاحبها هو الذى يقدر ما تتضمنه ، والشيطان في هذه الآيات ليس هو المقدر لعدم التسمّع ، بل الله هو الذى حجبه ومنعه »(قباوة : ٣٧) فجملة (لا يسّمّعون) لا يصح أن تعرب صفة أو حالا ؛ لأن هذا لا يتسق مع المعنى المقصود من الآية الكريمة . وهنا يؤدى النحو وظيفة مهمة ، تتمثل في الحكم على تلك الجملة بأنها مستأنفة . فالكلام قد استؤنف بعد توقف .

٢ – ومن يقف عند الآية الكريمة : « فلا يحزنك قولهم ، إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون» (٧٦/٣٧) فإنه ربما يتبادر إلى ذهنه أن جملة « إنا نعلم . . . » مقول القول ، وليس كذلك ؛ لأن القول ليس للكفار ، وإنما هو لله عز وجلّ ، فهى في الحقيقة جملة استئنافية .

كذا قوله تعالى (٦٠ / ٦٥) : «ولا يحزنك قولهم ، إن العزة لله جميعا » قال ابن هشام (١ / ٣٨٤): « وهى كالتى قبلها » لأنهاليست من قول الكافرين ولا يحتمل أن تصدر عنهم وهم الذين يحاربون الله ورسوله ، وإنما هى استئنافية يثبت الله بها قلب النبى ﷺ ومن معه ، ولذا لابد من إحداث سكتة لطيفة قبل الجملة المستأنفة .

٣ – وزعم أبو حاتم السجستانى أن من الاستئناف (تثير الأرض) في قوله تعالى (٧١/٢) « قال إنه يقول : إنها بقرة ، لاذلول ، تثير الأرض ولا تسقى الحرث

مسالمة لاشية فيها » وادعى أن ذلك من عجائب هذه البقرة ، فهى ليست مذللة للحراثة والسقى ، ولكنها تثير الأرض كالمذللة والحق أن الأخبار لم تأت بأن تلك البقرة كان فيها عجائب ، وإنما جاءت بأنهم كلفوا بأمر ممكن وجوده ، لابأمر خارق للعادة

ولهذا فإن جملة (تثير) ليست استئنافية : وإنما هى فى محل رفع صفة لـ « ذلول » وجملة (تسقى) معطوفة على « لاذلول » ، والتقدير لاذلول مثيرة الأرض ، ولا ساقية للحرث . ولو كانت كما زعم أبو حاتم لوجب تكرار

(لا) بعد (لاذلول) لأن القياس يقتضى ذلك ، خلافا للكوفيين والمبرد « (قباوة : ٣٨) إذ لا يقال « مررت برجل لاشاعر » حتى تقول « ولا كاتب » (ابن هشام ٢/٣٨٤) . وقد يقال إن (لا) تكررت بقوله تعالى (ولا تسقى الحرث) والرد : أن ذلك إنما وقع بعد الاستئناف على زعم أبى حاتم .

ولكن إذا قصد بالاستئناف الاعتراض جاز فى الصناعة ما ذهب إليه أبو حاتم وإن كان المعنى يدفعه وينكره .

٤ — ومن هذا النوع من الاستئناف : « جملة العامل الملغى لتأخره ، نحو : « زيد قائم أظن » فأما العامل الملغى لتوسطه ، نحو « زيد أظن قائم » فجملته أيضا لا محل لها إلا أنها من باب جمل الاعتراض » (ابن هشام ٢/٣٨٢).

وعند التحليل النحوى للجمل فى هذه المسألة نجد أن الجملة الأساسية « قد أصابها التقدير الذى أدى إلى إلغاء بعضها : والحكم على بعضها الآخر بالاستئناف : فالجملتان :

(أ) زيد قائم أظن

(ب) زيد أظن قائم

مأخوذتان من جملة أساسية ، هى :

(ج) أظن زيدا قائما

وتلك الجملة الأساسية قد أصابتها عدة « عمليات نحوية » على النحو التالى :

(د) زيدا قائما أظن : تأخير (أظن) بوضعها فى آخر الجملة .

(هـ) زيد قائم أظن : إلغاء العمل النحوى للفعل (أظن) .

(و) زيدا أظن قائما : توسط (أظن) بين معموليها .

(ز) زيد أظن قائم : إلغاء العمل النحوى للفعل (أظن) .

والجملتان (أ) ، (ب) أصلهما المقدر هو الذى نجده فى (ج) ، ومن هنا فإن التقدير متصل فيما بينه : وعند ابن هشام أن الجملة (ب) تندرج تحت قضية تقديرية أخرى تخص إلغاء العامل النحوى لتوسطه . أما الجملة (أ) فيمكن أن تكون (أظن) جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب » (ياقوت : ٧٤، ٧٥) .

٥ – وتعد الجملة الواقعة بعد « أم » المنقطعة من الجمل الاستئنافية ؛ لاستقلالها عما قبلها . وقد وقع خلاف بين النحاة حول المواقع التركيبية لـ « أم» المنقطعة فقالوا :

– تقع بعد الأخبار المحضة : نحو قوله تعالى (٢/٣٢ ، ٣) .

« تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين : أم يقولون افتراه »

– وتقع بعد همزة لغير الاستفهام : نحو قوله تعالى (١٩٥/٧) :
«ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها»

– أو الاستفهام بغير الهمزة ، نحو قوله سبحانه (١٦/١٣) :

« هل يستوى الأعمى والبصير ؛ أم هل تستوى الظلمات والنور»

« واختلف فى معناها ؛ فقال البصريون هى بمعنى « بل» ؛ أى للإضراب ، وبمعنى الهمزة مطلقاً . وقال الكسائى وهشام : هى كـ « بل» وتاليها . أى ما بعدها كمتلوها أى كما قبلها ؛ فإذا قلت : قام زيد أم عمرو فالمعنى : بل قام عمرو . وإذا قلت : هل قام زيد أم عمرو . فالمعنى : بل هل قام عمرو . . . »

(السيوطى ٥/ ٢٤٢) .

ورد بقوله تعالى (٢٧/٣٨ ، ٢٨) :

« وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا ؛ ذلك ظن الذين كفروا ؛ فويل للذين كفروا من النار ؛ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار »

« فأم» لم يتقدمها استفهام ؛ وقد استؤنفت بـ « أم» السؤال على جهة الإنكار والرد . ولا يمكن أن يكون ما بعدها موجبا ؛ فليس مثل ما قبلها .

وقال الفراء : هى كـ « بل» إذا وقعت بعد استفهام ، كقوله :

فو الله ما أدرى أسَلْمَى تغوّلتْ

أم النوم أم كلٌ إلىّ حبيبُ

أى : بل كُلٌ (السيوطى ٢٤٣/٥) .

ورد بأن المعنى على الاستفهام : أى : بل أكُلٌ إلى حبيب ؛ لأنها لما تمثلت لعينه لم يدر أذلك فى النوم أم صارت من الغول ؛ لأن العرب تزعم أنها تبدو متزينة لتفتن ، ثم لما جوز أن تكون تغولت داخله الشك ، فقال بل أكُلٌ إلىّ حبيب؛ أى الغول وسلمى كلٌ منهما إلى حبيب ؟

« وقال أبو عبيدة : هى كالهمزة مطلقا قال : ومنه قوله تعالى (١٠٨/٢) : « أم تريدون أن تسألوا رسولكم » وجاء فى الهمع (٢٤٣/٥) : « هى كالهمزة إن لم يتقدم عليها استفهام »

ويتضح من عرض الآراء السابقة أن الاتفاق قائم على معنى الاستئناف فى «أم» المنقطعة. لكن الخلاف فى مواقعها التركيبية؛ فأكثر النحاة على أن «أم» المنقطعة هى الواقعة بين جملتين غير مسبوقتين بالهمزتين ؛ أى همزة الاستفهام وهمزة التسوية المختصتين «بأم» المتصلة . أو هى الواقعة بعد الخبر أو أداة استفهام غير الهمزة أو بعد همزة لغير استفهام.

ويمكن رسم الصور التركيبية لـ «أم» المنقطعة على الوجه الآتى :

الشكل الظاهرى للتركيب		البناء الداخلى للتركيب
قام زيد أم عمرو	←	قام زيد بل قام عمرو (خبر) .
هل قام زيد أم عمرو ؟	←	هل قام زيد بل هل قام عمرو؟ (استفهام بغير الهمزة) .
أزيد قائم أم عمرو	←	أزيد قائم بل أقائم عمرو (إنكار)
أزيد قائم أم عمرو ؟	←	أزيد قائم بل أقائم عمرو ؟ (استفهام بالهمزة)

وفى جميع الحالات وقعت « أم» بين جملتين . وتظهر قيمة هذا الاختلاف فى إعطاء صور تركيبية متعددة للجملة المستأنفة بـ « أم » . هذا إلى جانب ما تضيفه هذه التراكيب من توسعة فى الاستعمال . .

ويلاحظ أن الصور الثلاث الأولى تكاد تكون موضع اتفاق : أما الصورة الأخيرة فموضع خلاف واضح ؛ ويظهر الفرق بين الصورة الثالثة والصورة الرابعة من وضع علامة الاستفهام (؟) فى حالة السؤال ؛ أما فى الإنكار فلا حاجة إلى هذه العلامة . ويقوم التنغيم مقام العلامة فى حالة النطق .

٦ - ويبلغ هذا النوع من الاستئناف قمته فى قول سيبويه (٦١/١) :

« وتقول : ما زيد ذاهبا ولا عاقل عمرو لأنك لو قلت : ما زيد عاقلا عمرو . لم يكن كلاما ؛ لأنه ليس من سببه . فترفعه على الابتداء والقطع من الأول ؛ كأنك قلت وما عاقل عمرو » .

فالواو فى : ما زيد ذاهبا ولا عاقل عمرو ليست عاطفة ، وإنما هى للقطع من الأول ولذا يرفع ما بعدها على الابتداء «ولم يجز نصبه على « ما» لأنك لو ذكرت « ما» ثم قدمت الخبر لم يكن إلا رفعا »(سيبويه ٦١/١) .

ويمكن توضيح ما جاء فى هذا النص بالشكل الآتى :

ما زيد ذاهبا ولا عاقل عمرو (الجملة الأساسية)

↓

مازيد عاقلا عمرو (جملة غير نحوية)

↓

ما عاقل عمرو (جملة نحوية)

فالتركيب الأول تركيب نحوى ، بنى عليه سيبويه تغيير الحركة الإعرابية من النصب عطفا ؛ إذ لا توجد علاقة تربط ما بعد الواو بما قبلها — إلى الرفع ابتداء ، والتركيب الثانى فاسد لأنه بنى على النصب ، والنصب لا يجوز لما ذكرنا من عدم وجود علاقة تجعل ما بعد الواو يشترك فى «ما» ، أما التركيب الثالث فهو نتيجة لما تبين من فساد التركيب الثانى . ومعنى هذا أن القطع يؤدى إلى إنتاج بعض الجمل النحوية من تلك التى تكون غير نحوية ، كما يفهم من كلام سيبويه .

والأصل فى هذه المسألة أن الاسم الظاهر متى احتيج إلى تكريره فى جملة واحدة كان الاختيار ذكر ضميره ، نحو : ما زيد ذاهبا ولا محسنا ، أى هو . أما إذا أعدت لفظه فقلت : ما زيد ذاهبا ولا محسنا زيد فذلك جائز أيضا ، لكن رفع « محسن » أجود من نصبه فى هذه الحالة ، حتى يكون التركيب مكونا من جملتين ؛ وإن كان المراد بالاسم فى الجملة الثانية نفس الاسم فى الجملة الأولى . أما إذ جئنا بأجنبى كما فى المسألة التى معنا (ما زيد ذاهبا ولا عاقل عمرو) فعمرو أجنبى من زيد ، فإن الرفع واجب : على القطع والابتداء .

وفى هذا يقول سيبويه (١ / ٦٢) : « وتقول : مازيد ذاهبا ولا محسن زيد ، الرفع أجود ، وإن كنت تريد الأول ؛ لأنك لو قلت : مازيد منطلقا زيد[١] ، لم يكن حد الكلام ، وكان ههنا ضعيفا ، ولم يكن كقولك : مازيد منطلقا هو ؛ لأنك قد استغنيت عن إظهاره ، وإنما

---

(١) مازيد منطلقا زيد = ما زيد ذاهبا زيد ؛ وهى مأخوذة من المثال الأساسى : مازيد ذاهبا ولا محسن زيد. وهذه طريقة سيبويه فى الكتاب ، يستخدم النموذج اللغوى من خلال أمثلة مختلفة ؛ فمرة يقول : ما زيد ذاهبا ولا عاقل عمرو ، ومرة يقول : ما زيد منطلقا ، ولا قائم عمرو . فالمهم عنده النموذج ؛ وذلك دليل على أن النحو عنده تراكيب .

ينبغي لك أن تضمره ؛ ألا ترى أنك لو قلت: مازيد منطلقا أبوزيد ، لم يكن كقولك : مازيد منطلقا أبوه ؛ لأنك قد استغنيت عن الإظهار . فلما كان هذا كذلك أجرى مجرى الأجنبي ، واستؤنف على حاله . . » .

ويختلف الأمر لو كانت الأداة المصدر بها التركيب : «كان» أو «ليس» حيث «يجوز فيها النصب وإن قدمت الخبر ، ولم يكن ملتبسا ؛ لأنك لو ذكرتها كان الخبر فيها مقدما مثله مؤخرا ؛ وذلك قولك: ماكان زيد ذاهبا ولاقائما عمرو » (سيبويه ١ / ٦١) .

ويرجع ذلك إلى أن «كان» و «ليس» كل منها أصل فى بابه . ويجوز تقديم الخبر على الاسم معها . أما «ما» الحجازية ، فمن شروط إعمالها : ألا يتقدم خبرها على اسمها» وذلك لضعفها فى العمل ، فلا تتصرف فى العمل بأن تعمل النصب قبل الرفع» (الرضى ١ / ٢٦٧) .

وبالمقارنة بين التركيبين :

مازيد ذاهبا ولاعاقل عمرو

ماكان زيد ذاهبا ولاقائما عمرو

يظهر لنا التحليل الآتى :

(أ)

مازيد ذاهبا ولاعاقل عمرو

↓

مازيد عاقلا عمرو (غير نحوى)

↓

ماعاقل عمرو (نحوى)

(ب)

ماكان زيد ذاهبا ولاقائما عمرو

↓

ماكان قائما عمرو (نحوى)

ومن هنا وقع الاستئناف فى النموذج (أ) وأدى إلى إنتاج جملة نحوية من تركيب غير نحوى ، كما أدى إلى تغيير الحركة الإعرابية من النصب إلى الرفع .

الاستئناف والتقعيد :

للاستئناف أهميته فى تقنين بعض القواعد الخاصة بالتركيب ، أو تخريج بعض القراءات أو الضرورات : أو تقدير بعض أجزاء الجملة .

ومن ذلك - مثلا - :

١ - تخريج (لاتخشى) فى قوله تعالى (٢٠ / ٧٧) :

« لاتخاف دركا ولاتخشى »

على الاستئناف فى قراءة حمزة : « لاتخفْ دركا ولاتخشى » حيث جزم (لاتخف) على الجزاء فى جواب الأمر : « فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا » : ورفع (لاتخشى) على الاستئناف . كما قال سبحانه (١١١/٣) : « لن يضروكم إلا أذى ، وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ، ثم لاينصرون » « فاستأنف بـ « ثم » فهذا مثله » (الفراء ٢ / ١٨٧) .

« فالواو » و « ثم » فى الآيتين السابقتين ليستا للعطف ، وإنما هما للاستئناف ، وإلا لجزم مابعدهما عطفا على الجزاء .

٢ – تأويل معانى بعض الحروف ، مما يؤدى إلى الاستئناف ، ويتبع ذلك الاختلاف فى تقدير حركة الإعراب ، فقول الشاعر :

ألقَى الصحيفة كى يُخفّفَ رحلَه
والزادَ حتّى نعله ألقاها

فكلمة (نعله) تحتمل :

(أ) الرفع على أساس أنها مستأنفة مرفوعة :

(ب) الجرّ إذا قدرنا (حتّى) مثل (إلى) فهى تعمل الجرّ .

(ج) النصب بالفعل . (ابن السرّاج ب / ٥٧) .

والنصب بالفعل هنا يقصد به : النصب على الاشتغال ؛ أى بفعل محذوف وجوبا يفسره الفعل المذكور .

٣ – تخريج بعض الضرورات الشعرية ، مثل :

(أ) قول الأخطل :

وقال رائدهم ارسوا نزاولها
فكل حتف امرىء يمضى لمقدار

فالمعنى على الاستئناف : أى : ارسوا ، نحن نزاولها :

(سيبويه ٣ / ٩٦)

(ب) قول عمرو بن الإطنابة :

يامال والحق عنده فقفوا
تُؤْتَوْن فيه الوفاء معترفا

فكأنه قال : قفوا ، إنكم تؤتون فيه الوفاء معترفا .

(سيبويه ٣ / ٩٦)

(ج) قول معروف الدبيرى :

كونوا كمن واسى أخاه بنفسه
نعيشُ جمعا أو نموتُ كلانا

أى : كونوا هكذا ، إنا نعيش جميعا أو نموت كلانا إن كان هذا أمرنا

(سيبويه ٣ / ٩٦)

ولكى يفهم السامع معنى الاستئناف فى هذه النصوص لابد من إحداث سكتة خفيفة قبل النطق بالجملة المستأنفة : وعمل التنغيم المناسب .

٤ – تفسير بعض القواعد الخاصة بالجملة : ومن ذلك :

« لا يفصل : بين الموصوف وصفته بإلا » .

فلا يقال : « جاءنى رجل إلا راكب » لأنهما كشىء واحد ، فلا يفصل بينهما بها ، كما لا يفصل بين الصلة والموصول ، ولا بين المضاف والمضاف إليه . ولأن « إلا » وما بعدها فى حكم جملة مستأنفة ، والصفة لا تستأنف ، ولا تكون فى حكم المستأنف (السيوطى ٣ / ٢٧٥) .

ومن هنا كانت جملة : جاءنى رجل إلا راكب ، لا تجوز عند النحاة . .

وتكون جملة الاستثناء فى مثل : حضر القوم إلا زيدا ، ذات بنيتين :

بنية خارجية : حضر القوم إلا زيدا

وبنية داخلية : حضر القوم واستثنى زيدا .

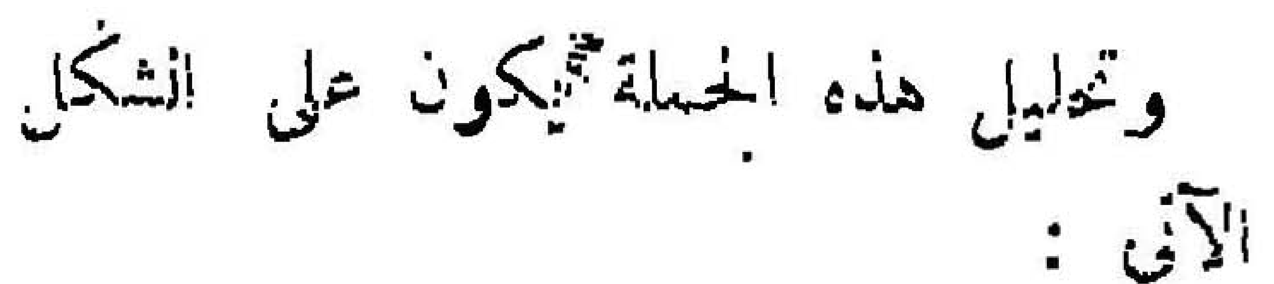
ولذلك يمكن اعتبار (إلا زيدا) جملة مستأنفة : على تقدير « إلا » بـ « استثنى » .

٥ – وقد يقتضى الاستئناف تقدير ضمير يعرب مبتدأ فى بعض الجمل . وبعده جملة خبر : نحو قوله تعالى (٤٨ ، ١٦) :

« ستُدْعَوْن إلى قوم أولى بأس شديد . تقاتلونهم أو يسلمون » .

أى : أو هم يسلمون : على رأى ابن يعيش (٧ / ٢٣)

وتحليل هذه الجملة يكون على الشكل الآتى :



ومن ذلك قطع النعت إلى الرفع ، على تقدير ضمير يعرب مبتدأ ، بعده خبر مفرد ، نحو قولنا :

اللهم ارحم عبدك المسكينُ

أى : هو المسكين ، على الاستئناف والقطع

أما النعت المقطوع إلى النصب : نحو قول الشاعر :

ويأوى إلى نسوة عطّل
وشُعثا مراضيعَ مثل السعالى

فقد أجاز بعض النحويين قطع النعت بالواو ، مستدلا بهذا البيت ، حيث أتبع النعت الأول ، وهو « عطل » وقطع الثانى وهو « شعثا » فنصبه بفعل محذوف تقديره : أخصّ أو أذمّ .

يقول الرضى : (١ / ٣١٦)
« والأعرف مجيء نعت النكرة المقطوع بالواو الدالة على القطع والفصل ؛ إذ ظاهر النكرة محتاج إلى الوصف ، فأكد القطع بحرف هو نص فى القطع ، أعنى الواو .. »

ويجوز فى المعرفة القطع أيضا بالواو : نحو :

لايَبْعَدَنْ قومى الذين هم
سمُّ العُداة وآفة الجزر
النازلين بكل معترك
والطيبون معاقد الأزر

بنصب الأول (النازلين) بإضمار « أمدح أو أذكر » ورفع الثانى (والطيبون) بإضمار « هم » على القطع فيهما . ويجوز العكس بإتباع الأول لقومى على الرفع ، وقطع الثانى بإضمار « أمدح أو أذكر » ، كما يجوز رفعهما معا ، ونصبهما معا .

(الأزهرى ٢ / ١١٦)

ويمكن وضع الصور الممكنة فى هذين البيتين على النحو التالى :

لايبعدن قومى .... النازلين والطيبون / على القطع فيهما

لايبعدن قومى .... النازلون والطيبون / على الإتباع فيهما لقومى

لايبعدن قومى .... النازلون / على الإتباع لقومى — والطيبين / على القطع

لايبعدن قومى . . . . النازلين والطيبين

على القطع فيهما

هذا بناء على أن مفهوم الاستئناف قطع الجملة المستأنفة وفصلها عما قبلها نحويا ؛ بمعنى عدم تعلقها بما قبلها تعلق إتباع أو إخبار أو وصف أو حال أو صلة . كما ذكر الأمير فى حاشيته (٢ / ٤٦) .

وبذلك يدخل مفهوم القطع أو المخالفة عند الكسائى الذى أشرنا إليه فى صدر هذا البحث فى الاستئناف . فقد مثل الكسائى للقطع بقوله : رأيت زيدا ظريفا . ثم عرف القطع قائلا : « أن يكون أراد النعت ، فلما كان ما قبله معرفة ، وهو نكرة ، انقطع منه وخالفه »[1] (ابن السراج أ — ١ / ٢٦١) .

مسائل خلافية :

ذكر ابن هشام فى المغنى (٢ / ٣٨٥ ، ٣٨٦) أن من الجمل ما جرى فيه خلاف بين النحويين ، أهو مستأنف أم لا ؟ ومن أمثلة ذلك :

١ — جملة « أقوم » من نحو قولنا : « إن قام زيد أقوم » .

أ — فالمبرد يرى أنه على إضمار الفاء ، وأن الكلام فيه حذف ، والأصل المقدر هو :

إن قام زيد فأنا أقوم

وهذا يؤدى إلى تقدير أمرين :

(أ) الفاء .

(ب) مبتدأ محذوف « أنا » .

— وسيبويه يرى أن « أقوم » فى جملة « إن قام زيد أقوم » مؤخر من تقديم ؛ فكأن :

إن قام زيد اقوم

أصلها :

أقوم إن قام زيد

وجواب الشرط محذوف ، ويؤيده التزامهم فى مثل ذلك كون الشرط ماضياً ، وعليه تكون جملة « أقوم » مستأنفة ؛ لعدم تعلقها بما قبلها .

وينبنى على هذا الخلاف مسألتان :

أ إحداهما : هل يجوز : زيدا إن أتانى أكرمهُ ، بنصب (زيدا) ؟

---

(١) الصفة فى المثال : رأيت زيدا ظريفا ، جعلها الكسائى على القطع ، ولم يجعلها « حالا » لأن الصفة المشبهة فيها معنى الثبوت واللزوم ، والحال وصف منتقل غالبا . قد تقع الحال لازمة، لكن فى مواضع معينة ، كأن تدل على خلقة ، و « فجاءت به سبط العظام . . . » أو تكون مسموعة (دعوت الله سميعا) . . إلخ .

فسيبويه يجيزه ، كما يجيز : زيداً أكرمه إن أتاني ؛ لعدم ارتباط (أكرمه) بالشرط قبلها ، فيمكن أن تفسرّ عاملا يعمل النصب في « زيداً » . والمبرد يمنعه ؛ لأنه في سياق أداة الشرط ، فلا يعمل فيما تقدم على الشرط ، ولايفسرّ عاملا فيه .

والثانية : إذا جيء بعد هذا الفعل المرفوع بفعل معطوف ، هل يجزم أم لا ؟ فعلى رأى سيبويه لايجوز الجزم ؛ وعلى قول المبرد ينبغي أن يجوز الرفع بالعطف على لفظ الفعل ؛ والجزم بالعطف على محل الجملة المقدرة بعد الفاء .

ويمكن تصور ذلك على النحو الآتى :

إن قام زيد أقوم

↓

إن قام زيد أقوم وأكرمُه (على رأى سيبويه)

↓

إن قام زيد أقوم وأكرمْه (على رأى المبرد)

لأن الأصل عند سيبويه

أقوم وأكرم زيداً إن قام

وعند المبرد :

إن قام زيد فأنا أقومُ وأكرمُه

ولذلك جاز عنده الرفع على اللفظ ، والجزم على المحل .

٢ — « منذ ومذ » ومابعدهما ، في نحو : « مارأيته مذ يومان »

— فالسيرافى يرى أن « مذ » ومابعدها في موضع نصب على الحال ، يقول ابن هشام (٢/ ٣٨٦) : « وليس بشىء لعدم الرابط » .

— ويرى الجمهور أن الجملة مستأنفة جوابا لسؤال :

(أ) بتقديره عند من قدر (مذ) مبتدأ : ما أَمَدُ ذلك ؟

(ب) وعند من قدر (مذ) خبرا : مابينك وبين لقائه ؟

وذلك على النحو الآتى :

مارأيته مذ يومان

↓ ↓

مبتدأ خبر (جوابا لسؤال مقدر : ما أمد ذلك ؟)

مارأيته مذ يومان

↓ ↓

خبر مبتدأ (جوابا لسؤال مقدر : مابينك وبين لقائه ؟)

ويكون المعنى على الأول : الأمد يومان

وعلى الثانى : يومان بينى وبين لقائه .

٣ – ومن مسائل الخلاف التى ذكرها ابن هشام (٢ / ٣٨٦) : جملة أفعال الاستثناء (ليس ولايكون وخلا وعدا وحاشا)

– فالسيرافى يرى أنها حال ؛ إذ معنى :

« قام القوم ليس زيدا » قام القوم خالين عن زيد

وجوز السيرافى مع ذلك الاستئناف .

– وأوجب ابن عصفور الاستئناف فى هذه الجملة . فإن تغير تركيب الجملة ، بأن قلنا : جاءنى رجال ليسوا زيدا –

بتنكير المستثنى منه ، وظهور الضمير مع ليس ، خرجت الجملة عن الاستثناء ، ولامانع من إعرابها صفة ؛ لاستيفاء الجانب الشكلى لجملة الصفة .

الاستئناف النحوى والاستئناف البيانى :

تقدم أن كل استئناف بيانى هو نحوى ، وليس العكس ، وذلك لأن الاستئناف البيانى يقوم على عنصرين مهمين :

(أ) سؤال مقدّر .

(ب) فعل مأخوذ من السؤال المقدّر .

ولايتحقق هذان فى الاستئناف النحوى :

– فمثلا فى قوله تعالى (١١ / ٦٩) :

« ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ، قالوا سلاما ، قال سلام » .

سؤال مقدّر : فماذا قال لهم ؟

والفعل المأخوذ من هذا السؤال : قال . .

وجملتا القول استئناف نحوى .

– وفى قوله تعالى (٢٤ / ٣٦ ، ٣٧) :

« يسبَّح له فيها بالغدو والآصال ، رجال »

بفتح باء « يسبح » على قراءة بعضهم .

السؤال المقدر : من يسبِّح ؟

والفعل المأخوذ منه : يسبِّح (وهو غير مذكور) .

والجملتان استئناف نحوى .

من هنا خص البيانيون الاستئناف بما كان جوابا لسؤال مقدّر ، ويعدّه النحويون استئنافا نحويا ، لأنه منفصل ومقطوع عما قبله إعرابيا ، ولاتضرّ العلاقة المعنوية ، « لأن الارتباط المعنوى لايستلزم محلية الإعراب » (الأمير ٢ / ٤٦) .

ومما تقدم يتضح :

١ – أن الاستئناف النحوى نوعان :

(أ) نوع يتضمن الجمل المقطوعة عما قبلها بوساطة حرف من أحرف العطف الآتية : أو – الواو – الفاء – ثم – حتى – أم المنقطعة – بل – لكن .

ويمكن تسميتها : أحرف القطع ، لأنها تقطع الجملة عما قبلها ، بمعنى أنها يستأنف بها كلام جديد ، وإن كانت فى الأصل للعطف .

وهذا المعنى قريب من المعنى الذى قصده أبو جعفر النحاس من كتابه : « القطع والائتناف » فهو يقصد بالقطع : الوقف . وبالائتناف : الابتداء . وذلك لأن أحرف القطع تقطع الكلام عما قبله صناعيا (نحويا) فهى تقوم مقام (السكت) فى الوقف الاختيارى ، الذى سماه أبو جعفر القطع . فالواو — مثلا — فى حالة الكتابة تقوم مقام السكت فى حالة النطق . وقد تعرضنا لهذا الموضوع فى مكان آخر[1].

(ب) ونوع يحتاج إلى فهم وإدراك وتعمق ؛ سواء تضمن حرف عطف أو لم يتضمن .

وقد أشار إليه ابن هشام بقوله (٢ / ٣٨٣) :

«من الاستئناف ماقد يخفى» وله أمثلة كثيرة ».

٢ — أن للاستئناف دورا كبيرا فى تخريج بعض القراءات القرآنية مثل قراءة :

« يسبَّح له فيها بالغدو والآصال رجال »

ومثل قراءة : « لا تخفْ دركا ولا تخشى »

وفى تخريج بعض الضرورات الشعرية . كما سبق .

بل قد تخرج عليه بعض اللهجات ، مثل لهجة « أكلونى البراغيث » التى جاء عليها قوله تعالى (٢١ / ٣) :

« وأسرّوا النجوى الذين ظلموا » فيعرب « الذين » على الاستئناف كما ذكر الفراء (٢ / ١٩٨) .

٣ — أن للاستئناف دورا فى تقنين بعض القواعد الخاصة بالجملة : مثل قاعدة « عدم الفصل بين الموصوف وصفته بـ إلاّ » . وأن « إلا » ومابعدها تعد فى حكم الجملة المستأنفة . كما بينا . وكذا قواعد النعت المقطوع .

٤ — أن الاستئناف قد يقتضى تقدير ضمير يعرب مبتدأ فى بعض الجمل ؛ كما قد يقتضى توليد أو إنتاج بعض الجمل النحوية ؛ وقد وضحنا ذلك فى الأمثلة التى ذكرها سيبويه وغيره .

٥ — وقد يكون الاستئناف النحوى جملتى قول : إحداهما سؤال مقدر ، والثانية جواب هذا السؤال . وهذا مايعرف عند البيانيين بالاستئناف البيانى .

---

(١) ينظر :

(أ) الفواصل الصوتية فى الكلام وأثرها على المواقع النحوية : المجلة العربية للعلوم الإنسانية — الكويت العدد ٢٤ .

(ب) الدلالات النحوية لحروف المصاحبة لبعض التراكيب : مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة — العدد ٦٤ .

المراجع

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ الأمير (الشيخ محمد الأمير) .

حاشية الأمير على مغنى اللبيب لابن هشام ـ القاهرة د . ت

٣ ـ البغدادى (عبد القادر بن عمر) :

خزانة الأدب ، تحقيق عبد السلام هارون ـ القاهرة ١٩٦٧ .

٤ ـ الرضى (محمد بن الحسن ، ت : ٦٨٦ هـ) :

شرح الكافية ـ حيدر آباد ، د . ت

٥ ـ ابن السراج (أبو بكر بن السراج ، ت : ٣١٦ هـ) :

(أ) الأصول فى النحو ، تحقيق عبد الحسين الفتلى ـ بغداد ١٩٧٣ .

(ب) الموجز فى النحو ، تحقيق مصطفى الشويمى ، وبن سالم دامرجى ـ بيروت ١٩٦٥ .

٦ ـ سيبويه (أبو بشر عمرو بن قنبر . ت : ١٨٠ هـ) :

كتاب سيبويه ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ـ القاهرة ١٩٦٦ .

٧ ـ السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن ، ت : ٩١١ هـ) :

همع الهوامع ، تحقيق وشرح عبد العال سالم مكرم ـ الكويت ١٩٧٩ .

٨ ـ الفراء (أبو زكريا يحيى ، ت : ٢٠٧ هـ) :

معانى القرآن ، تحقيق أحمد يوسف نجاتى ، ومحمد على النجار ـ القاهرة ١٩٥٥ .

٩ ـ قباوة (فخر الدين) :

إعراب الجمل وأشباه الجمل ـ دمشق ١٩٧٢ .

١٠ ـ المرادى (الحسن بن قاسم ، ت : ٧٤٩ هـ) :

الجنى الدانى فى حروف المعانى ، تحقيق فخر الدين قباوة ، ومحمد نديم فاضل ، دمشق ١٩٧٣

١١ ـ ابن هشام (جمال الدين بن يوسف . ت : ٧٦١ هـ) :

مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ـ القاهرة ، د . ت

١٢ ـ ياقوت (محمود سليمان) :

قضايا التقدير النحوى بين القدماء والمحدثين ـ القاهرة ١٩٨٥ .

اللغة العربية والمنهجية العلمية المعاصرة

للدكتور أحمد سليم سعيدان

ما أحلى العودة إلى مصر! أعود إليها كما يعود الطفل إلى حضن أمه.

أم الدنيا مصر. منها تلقينا غذاءنا الروحى والفكرى. أيام الطفولة والشباب: كنا نتلقى بينهم ما تصدره مصر من مجلات المقتطف والهلال. والرسالة والرواية، والسياسة الأسبوعية؛ ونتلقى بشغف ما يخرج من مطابعها من كتب المنفلوطى وطه حسين والعقاد والمازنى. وما تنشره صحفها من قصائد شوقى وحافظ وخليل مطران. سقى الله تلك الأيام! لم يكن فيها ما يشغل أوقات فراغنا سوى قراءة ما يرد علينا من مصر. وكان ذلك بحق مادة دسمة، موجهة ومسلية، يجملها فطرة صافية وذوق رفيع يحببنا باللغة وأهلها.

وكم تطورت الدنيا! وكم تغيرت الأحوال! وسائل النقل القديمة عفى عليها الزمن، وجاءتنا السيارات والقطارات والطائرات.

ووسائل التسلية القديمة عفى عليها الزمن، وملأت دنيانا أجهزة السينما والراديو والمسجلة والتلفاز والفيديو، فوضعت اللغة العربية والإنتاج العربى فى مواجهة مع الإبداع العالمى وما يرافقه من إغراءات ومشوقات: وغداً أو بعد غد سيعود الحاكى إلى الظهور، ولكن بأسطوانات تغطى الصوت والصورة، وسيطور الهاتف فيغدو جهازاً يرى فيه المتخاطبان كل منهما الآخر، فى مكتبه أو ملعبه أو مضجعه. وإن غداً لناظره قريب وبعد غد يعلم الله وحده ما سيكون، ويعلم الناس أن ذلك كله لإبداع غربى لا يدلنا فيه، ولا غنى لنا عنه.

تطورت العلوم والتقنيات، وما كنا نشق به أيام الدراسة غداً فى الأوليات أو فى المهملات العقل البشرى هذا القابع فى تلافيف دماغ صغير، جاء بالمعجزات: فجر الطاقة الذرية، وصنع الصواريخ عابرة القارات، والأقمار الاصطناعية، والسفن الفضائية، ودخل عصر سباق الفضاء.

«قل إن شئتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا. لا تنفذون إلا بسلطان» وأى سلطان هذا الذى ينفذ من أقطار السماوات والأرض، فينزل إلى القمر، ويحوم حول المريخ، إلا سلطان العقل البشرى!

تطورت الدنيا وتغيرت الأحوال. وتفجر المعارف العلمية رافقه تفجر فى عدد السكان، واستدعى ذلك تطوير وسائل التعلم والتعليم، فاستجابت له البلاد المتقدمة، وصارت تقدم المعارف والعلوم لأبنائها بأساليب فيها الجاذبية

وفيها الإ ماء والتشجيع ، وفيها التطوير الدائم . ووضع التلفاز هذا كله فى مواجهة مع أساليب التعليم العربية ، كما وضع الابداع فى مواجهة الإنتاج اللغوى العربى .

كل هذا وشىء واحد ظل على حاله ، لم يمسه تغير ، أعنى به العقلية العربية . وأستغفر الله ! لقد تقهقر الذوق العربى وراح الفكر العربى فى أجازة طويلة وخدر لذيذ . أنه فى حالة كمون .

كنا فى شبابنا نتغنى بالغزل العذرى بلا حرج ونمثل روايات مجنون ليلى ومصرع كليوباترة بلا حرج ، فتزداد هياماً باللغة والشعر لأننا نجد فيهما متنفساً لعواطف مكبوتة . لقد عشقنا الشعر الجميل والذوق الرفيع . واليوم فى عصر التزمت الذى يحاصرنا فى كل مكان ، استعاض أبناؤنا وأحفادنا عن ذلك بنقائض جرير والفرزدق على شاشة التلفاز ، فى البرامج التربوية ، كم رأينا شخصين بألبسة بدوية مهلهلة ، يقف أحدهما فيملأ الجو فخراً بجدوده ويوسع زميله شتماً ؛ وزميله جالس كالصنم ، لايتحرك له طرف ، كأنه لايرى ولا يسمع ، حتى إذا أفرغ ما فى جعبته جلس ، ونهض زميله فكال له الصاع صاعين ، ورد له تحيته بمثلها أو بأحسن منها ؛ ثم يمضيان ؛ ويظهر المعلم على الشاشة فيشيد بما فى القصيدتين من براعة الاستهلال ، وروعة التشبيهات ، وجمال المحسنات اللفظية وحسن اختيار الألفاظ . أما المحتوى ، أما الجوهر مجرداً عن المظهر ، أما ما فى النص من إيحاءات لا اخلاقية : وما فى الأداء من سذاجة لا أدبية ، فليس لهذا كله من هم المعلم واهتمامه نصيب .

يجرى ذلك وبعده وقبله يعرض التلفاز برامج تربوية أجنبية فيها الإبداع والجاذبية وفيها الجمال الحق ، ولكن فى خلفيتها حياة غير حياتنا وعادات غير عاداتنا . أن التلفاز يجعل العالم الكبير صغيراً ويجمعه على رقعة الشاشة الصغيرة . صحيح أن التلفاز سلاح ذوحدين . لوكان ما يعلم المعلم طلابه ما يزال كما كان ، قاصراً على عدد محدود ، فى غرفة مغلقة ، لكان الأمر أهون . ولكنه درس فى الهواء يسمعه ويتدارسه كل من ألقى السمع وهو شهيد .

أتريدون مثلا على غياب الذوق السليم السديد ؟

بالأمس القريب التقيت بكاتب أديب شاعر ، له كتب تنشر وتصدر منها طبعات كان عائداً لتوه من المربد فى بغداد . قلت له : كيف كان حال الشعر فى المربد ؟ فأجاب على الفور « زفت ! كلام معاد مكرر يصم الآذان . بيت واحد فقط صفقت له لأنه يحمل معنى لم يسبق إليه » . قلت : وما هذا البيت ؟ فقال : كان الشاعر يرثى الشهيد ، فقال :

أن كنت فى الأحياء رقماً ناقصاً
فلأنت فى الأمـــوات رقم زائد

قولوا لى: ما الحدة فى هذا البيت ؟ وما إشاعرية فى عبارة تقول : نقص الأحياء واحداً وزاد الموتى واحدا ؟

وأى ذوق سليم يصفق لهذا الكلام فى زمن تمتلق فيه الذهن البشرى عن أعاجيب علمية وتقنية ؟ أليس تفسير الماء بعد الجهد بالماء أسلم ذوقاً وأقل غباء ؟ أليس الفكر السليم فى أجازة أو فى كمين ؟ ستقولون : قضية فردية . وإليكم ما يلى : أذهب إلى الجامع للصلاة ، فأجد المقرئ يرتل آيات القرآن الكريم بصوت رخيم ، والناس من حوله صامتون خاشعون ، لا نأمة إلا من ابتهال إلى الله ؛ بين الفينة والفينة ، أو صلاة على النبى ؛ ويرفع المقرئ صوته فجأة فترتفع أصوات الحاضرين : كباراً وصغاراً ، بالابتهال والصلاة على النبى ، لاتجاوبا مع معانى الآيات وإنما تجاوبا مع الصوت . إنها حرمة المسجد وصوت المقرئ تدفعان الناس إلى الخشوع ؛ أما معانى الآيات فليس لها من فهم الناس نصيب . همهم لا أن يفهموا ، بل أن يطربوا ، وقد لا يخلوا خشوعهم من بعض التظاهر . ماذا تقولون أيها السادة فى فكر ما يزال منذ قرون يعتبر من روائع الأدب كلمة قالها وال يشتم من تولى عليهم بقوله : يا أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق ؟ ماذا تقولون فى أغنية ما زلنا منذ أكثر من خمسين عاماً نسمعها فى الأعراس وصار يرقص على نغماتها شباب اليوم تقول للعروس : زوجناك رخيصة وسنطلقك بثمن بخس ؟ أى شىء فى مثل هذا الكلام السقيم ضمن له هذا البقاء الطويل ؟

أترانى أيها السادة لا أتجنى على الفكر العربى إذا قلت إنه فى أجازة ، إلا من هدى الله . وإنى لأسمع صوت الإنتاج الأدبى العربى يرن فى فراغ . كأننا منذ نشر المستعربة بيننا أساليب المحسنات اللفظية فى أواخر العصر العباسى ، تشبثنا بأسلوب « لبس البوصة تصبح عروسة » ؛ فأكثر إنتاجنا الأدبى بهرجة كلام « تلبيس بوص » ولعل هذا بالإضافة إلى مواجهة الفكر العربى للفكر العالمى عن طريق التلفاز ، ما دعا بعضاً منا إلى مقت الفكر العربى بعامة ، والاستهانة به : أو مقت الإبداع الغربى ، من قبيل رد الفعل ؛ أو إلى رجعة لا هوادة فيها إلى أصول اللغة يوم كانت لغة بداوة ليس فيها من ألفاظ الحضارة إلا قليل يبنون عليها برامج من قبيل « قل ولا تقل » .

وأنا أيها السادة أصب أكثر إتهامى على معلمى اللغة العربية . هل رأيتم معلماً يشجع طلابه على ابتكار مشروع جديد أو فكرة جديدة ؟ هل ينصرف اهتمام معلمى العربية إلى أكثر من مراعاة القواعد الصرفية والنحوية والمحسنات اللفظية ؟ أتذكر أحياناً قولة : « فاقد الشىء لا يعطيه » فيرد إلى ذهنى سؤال يقول : أما آن لهذا الفاقد ، فى عصر سباق الفضاء وتفجر المعارف ، أن يفتقد ما فقد ؟

أما آن للفكر العربي أن يستيقظ من سباته ؟ لاتحسبوني يا سادتي أنظر في الأمر بعين السخط التي تبدي المساوئ ، فأنا إنما أنظر بعين الطبيب الذي يشخص الداء ليصرف الدواء . ومعذرة إن كنتم - في أول مرة أتشرف فيها بالمثول أمامكم ، تجدون فيما قلت أو سأقول ، مالا تحبون . فكل ما أتمناه هو أن تنظروا في قولي بذهن متفتح يزن الأمور بمعزل عن كل اقتناعات وانطباعات سابقة ، ويهدف العمل على ضمان مستقبل أفضل للعرب والعربية .

والداء الذي شخصته وسميته غياب الفكر العربي أو غيبوبته سماه غيري أزمة فكرية . وعلامات هذا الداء ، أزمة كان أو غيبوبة سطحية في التفكير تصل أحيانا حد الفراغ الفكري ، وتشبث بالماضي ، كأن ليس بالإمكان أفضل مما كان ، ويستتبع ذلك جهد ضائع وفشل ، وقرارات خاطئة تزيد الأمور تعقيدا وبعدا عن الصواب ، ذلك أن الماضي غير الحاضر . والزمان يجري بنا بسرعة البرق .

وفي سبيل وصف الدواء أتساءل ماذا يمكن أن يكون سبب هذه الأزمة الفكرية وقد كانت النهضة العربية الحديثة ، في أيام طفولتنا وصبانا ، تمضي في طريق سديد؟. والسبب يراه العسكريون والسياسيون والاجتماعيون والاقتصاديون ، كل كما يوجهه له مجاله الفكري . وما أراه أنا من حقلي التربوي ، أننا بعدنا عن روح العصر عصر التفجر العلمي : منذ قبلنا مناهج تربوية تقيم بين العلم والأدب برزخا لا يبغيان ومن ثم فالدواء الذي أصفه يبدأ باشاعة المنهجية العلمية المعاصرة في جميع مجالي حياتنا اليومية . الفكرية والعملية .

إن روح العصر روح علمية . لم يعد العلم كما كان في الماضي . ثقافة كمالية . إنه اليوم ضرورة حضارية وسلاح في معركة تنازع البقاء . والمنهجية العلمية هي وليدة العلم . ولكنها ليست مقصورة على مجالاته فهي أسلوب في الحياة الفكرية والعملية بعامة يضمن سلامة المسيرة ، ويضمن اتخاذ القرارات الأقرب إلى الصواب .

والمنهجية العلمية كانت في الأصل شبه غربال يقبل في حقل العلم كل ما يؤيده دليل منطقي أو تجريبي أحصائي ويستبعد ما لا يقوم على صحته دليل ، مما ينحدر من اقتناعات أو أوهام أو تجارب ساذجة تقريبية وهي اليوم مبدأ فكري يتمشى مع قول القرآن الكريم : وفوق كل ذي علم عليم . ومع قولة قالها أحد أعلام العرب : هم رجال ونحن رجال ، ومن مبدأ أن لا رأى لميت : ذلك أن الحي أدرى بزمانه وأحواله من الميت . إن المنهجية العلمية المعاصرة ترى أن كل ذي حياة هو في تطور دائم وأن المعارف الإنسانية تراكمية يزيد فيها كل

جيل على ما سبقه ، ومن ثم فأحياء اليوم هم أدرى بأمور الدنيا من أحياء الأمس ذلك أنهم استفادوا من علوم سابقيهم وخبراتهم وزادوها سعة ، كمن يقف على أكتاف مارد فيرى أبعد مما رأى المارد ويطال أكثر مما طاله .

من هذا المنطلق فإن لغة أية أمة حية هي كيان حي من صنع هذه الأمة قابل للتطور وقابل للتطوير . فالحياة هي التطور ، والتطوير هو أكثر أعمال الأحياء ملاءمة للحياة . إن اللغة ، أى لغة ، مهما اعتز بها أهلها ، تبقى أداة لتبادل أفكارهم والتعبير عن ذات بينهم . لأنها قنوات تجرى فيها الأفكار ، وهى قنوات مرنة قابلة للاتساع والضيق قابلة للانبساط والانقباض يمتد وتنبسط إذا امتدت آفاق الفكر وانبسطت : وتضيق وتنقبض إذا ضاقت آفاق الفكر وانقبضت لذا قالوا إن لغة أية أمة هى مرآة فكر الأمة .

واللغة العربية هى من هذا القبيل . صحيح أنها أعرق اللغات الحية ، وهى التى شرفها الله بأن أنزل بها كتابه الكريم . ولكنها مع ذلك تبقى بيننا أداة تفاهمنا والقنوات التى فيها تتشكل أفكارنا وتجرى . ومن ثم فالتطور قدر مكتوب عليها كما هو مكتوب على كل ذى حياة ، مهما غالى المغالون فى معاداة التطور والتطوير .

وتطور اللغة يكون بهجران ألفاظ قديمة لم تعد الحاجة تدعو إليها أو صار الذوق يتمججها . ويكون بإكساب ألفاظ قديمة معانى جديدة ، أو بصياغة ألفاظ جديدة لتدل على معانى مستجدة . ويكون التطور أيضا باقتباس ألفاظ من لغات أخرى ، مع تحوير أو بلا تحوير .

ومن الأمثلة على الألفاظ التى هجرت أو نسيت لأن الحاجة لم تعد تدعو إليها : لفظة السراج . فمن من شباب اليوم يفهم حافظ إبراهيم يرحمه الله فى قوله :

ليلى سراج حياتى
خبا فما فيه زيت

ومن الأمثلة على الألفاظ التى اكتسبت معانى جديدة لفظة التواجد التى ما يزال اللغويون يرفضونها . إن التواجد الذى كان يعنيه أهل الطرق الصوفية لم يعد قائما فى هذه الأيام : فما بال اللغويين يرفضون أن « يتواجد الفريق فى رحاب الملعب » بمعنى أن يجد بعضهم بعضا . إن أكثر المصطلحات العلمية من هذا القبيل فالمصطلح سمى مصطلحا لأن أهل الاختصاص اتفقوا على استعماله للدلالة على مفهوم غير معناه القاموسى . وإن فى محاولة بعض الجماعات تغيير المصطلحات كيما تتفق مع معانيها القاموسية جهدا ضائعا وافتئاتا على أهل الاختصاص لا يرضون به : ولو تركت هذه الجماعات محاولاتها هذه لكان خيرا . والذوق العام كفيل بتقويم المعوج على مر الزمان .

ومن الأمثلة على صياغة ألفاظ جديدة لتدل على معانى مستجدة كلمة التقييم ، بمعنى تقدير القيمة . وهذه أيضا كلمة لا يرضى بها اللغويون . فليت اللغويين يوفرون جهدهم لما هو أجدى وذلك ما سأشير إليه عما قريب .

وأما عن اقتباس ألفاظ من لغات أخرى فأذكركم أيها السادة بأن معظم ألفاظ الأزهار والفواكه والخضراوات التى وردت علينا من غير الجزيرة العربية أخذها العرب بأسمائها كالبنفسج والقرنفل والياسمين ، والتفاح والرمان ، والبرتقال ، والبقدونس والزعتر والطماطم . فليتنا اليوم نأخذ الآلات التى ترد علينا بأسمائها ، تاركين تطوير ألفاظها للذوق العام ، كى تنصرف إلى ما هو أولى وأجدى . إن علماء الطب والصيدلة يلحون على التفاهم بأسماء علمية للأمراض والأدوية والعقاقير ، رغم ما قد يكون لها من أسماء كيميائية ، أو ألفاظ دارجة . وإن فى محاولة تعريب هذه الأسماء والألفاظ وقتا ضائعا وجهداً مهدوراً ، فى عصر يرد عليه فى كل دقيقة لفظ علمى جديد . هل هى عقدة نقص تدفعنا إلى هدر هذا الوقت والجهد ، أم هو البحث عن عمل فى عصر ما يزال فيه المفكر ينعم بغفوة أهل الكهف ؟ إن ثمة تحديا كبيراً يواجه المجامع اللغوية واللغويين والكتاب والأدباء ، فليتهم يوفرون بعض الوقت والجهد المهدورين لمجابهتهم هذا التحدى الكبير .

والتحدى الذى أقصده هو أن التكنولوجيا الحديثة وضعت اللغة العربية وما يصدر فيها من كتابات فى مواجهة مع الإبداع العالمى . فإن لم يتكاتف كل المبدعين العرب فى مواجهة هذا التحدى فإن اللغة العربية ستظل تظهر ، حتى فى أعين العرب أنفسهم ، عاجزة عن اللحاق بالركب ، وسنظل نعقد المؤتمرات لننعى ضعف الطلاب باللغة العربية .

وفى تقديرى أن المنهجية العلمية المعاصرة تشير إلى الطريق الأسلم لمواجهة هذا التحدى . والطريق الأسلم فى نظرى ينطلق من مبدأين :

أولهما : التسليم بأن اللغة كيان متطور ، وهذا يجعل اللغة العربية فى أى عصر هى جماع ما يصدر عن الكتاب والأدباء من العلماء ، والصحف فى ذلك العصر . ومن ثم فمن واجبات اللغويين والمجامع أن يصدروا فى كل قرن من الزمان قاموسا يرصد ما يستعمله الناس فى كتاباتهم من ألفاظ ويحدد معانيها الجديدة . وهذا يقتضى التحلل من قيود التشبث بالمعانى القديمة . ويوفر بعضا من الوقت الذى يذهب سدى فى إخضاع المصطلحات العلمية إلى المعانى القاموسية التقليدية .

والمبدأ الثانى : أن لغويى اليوم لهم من الإمكانات والخبرات والمعرفة باللسانيات وتطور اللغات ما يجعلهم أقدر من علماء الأمس ومعهم أبو الأسود وسيبويه والكسائى ومن تبعهم من لغويى البصرة والكوفة ، على عرض قواعد اللغة على نحو يجعل الإلمام بها أسهل

من الإلمام باللغات الأجنبية التى تفرضها عليهم المعاهد التعليمية؟. وتجعل العربية أحب إليهم من اللغات الأجنبية. إن الأمر يحتاج إلى مزيد من الثقة بالنفس؛ ومن بذل الجهد؛ مع الاهتمام بالجوهر، والتخلى عن أكثر الشكليات من أمثال المحسنات اللفظية وبهرجة الكلام؟. إنه يحتاج إلى عقلية جديدة.

هذان أمران هما أول الطريق لمجابهة التحدى الكبير الذى أشرت إليه. أما المجابهة المباشرة لهذا التحدى فتتم بأن ينبرى المبدعون من الكتاب والأدباء والشعراء بتزويد القراء العرب. أطفالا وشبابا وكهولا؛ بقصص وأدب وشعر وبحوث وبرامج تسلية وترفيه فيها من الخيال والإبداع ما يضاهى ما تعرضه البرامج الأجنبية؛ ولا حرج فى أن يكون بعض ما نعرضه؛ بل أكثره، فى المراحل الأولى مترجما أو مقتبسا أو مدبلجا.

وغنى عن البيان أن خير من يتصدى لهذا كله مبدعون تمرسوا بالمنهجية العلمية المعاصرة حتى جرت فى عروقهم مجرى الدم. فتعلموا وأزمعوا أن يعلموا الناس أن الجوهر قبل المظهر، وأن الإبداع يعنى ابتكار أفكار جديدة ويعنى التطوير؛ وأن التحدى الأول الذى يجب أن يواجهوه هو إيقاظ الفكر العربى من غفوته. وإخراج المارد من قمقمه

وإنه ليخيل إلى أن الشكلية أمر تغلغل فى الذهن العربى حتى صار جزءاً منه. خبرت ذلك فى محاضرات ألقيتها أو استمعت إليها مما يحمل أفكاراً جديدة مفاجئة، وكنت أتوقع أن أسمع تساؤلات أو مداخلات أو اعتراضات على الأفكار، وإذا بالتعليقات تنصب على الشكلية: هنا خطأ نحوى، وهنا لفظ فى غير موضعه. لا ريب أن الخطأ ينبغى أن يصحح. ولكن نعيب الخطأ إذا وقع فى كلام مكتوب ليقرأ، أما فى لغة الحديث، وفى خطاب كتب ليلقى؛ قد يبدو الاعتراض حذلقة؛ لا سيما إذا كانت الأفكار الواردة فى الحديث أو الخطاب مما يستدعى النقاش والجدال. ولعل هذه الحذلقة هى ما يجعل كثيراً من المثقفين العرب يحجمون عن الكلام ويتأتئون إذا تكلموا.

إن فى كل لغات العالم. وبالأخص اللغات المتقدمة؛ لغة كتابة ولغات حديث. أما لغة الكتابة فهى واحدة فى جميع أقطار الأمة الواحدة. وهى التى يصور بها فكر الأمة وأدبها وسائر فنونها المكتوبة؛ وهى التى نعنيها عندما نتكلم عن مرآة الفكر وقنواته. وأما لغة الحديث فتختلف فى الأمة الواحدة من قطر إلى قطر وقد تختلف من بلد إلى بلد. ولا تجد الأمة فى اختلاف لغات الحديث فيها مادة للتندر. ولغة الحديث فى الأمة تقارب لغة الكتابة كلما تقدم المستوى الثقافى فيها. ولغة الكتابة فى العربية هى ما نسميها اللغة الفصحى وهى. والحمد لله؛ واحدة فى جميع أقطار العالم العربى. ولغات الحديث

عندنا هي اللغات العامية الدارجة . وهي كثيرة ، وتقارب الفصحى كلما ارتفع المستوى الثقافي . ولكنها تبقى في حل من قواعد الإعراب . ولكن أكثر اللغويين ، إذ يشكون من الفراغ الفكري ، يجدون في اللغة الدارجة ما يحماون عليه ويتحاملون : في مجالس خاصة وفي ندوات عامة . وفي تقديري أن هذا هو السبب في أن أكثر العرب ، من بين رجال العالم ، يتأوثون إذ يتكلمون أمام الجماهير ، ذلك أنهم بدل أن يفكروا في الأفكار التي ينبغي أن تعرض ، يفكرون في تطبيق قواعد الفصحى على العامية ، خوفا من المتحذلقين .

مرة أخرى أقول : ليتنا نطلق الفكر من عقاله ونتخلى عن مبدأ « لبس البوصة » .

إن اللغة كالشجرة بحاجة إلى تغذية وسقاية ورعاية وتشذيب كي تنمو وتثمر ثمراً يانعا . وكل اعتزاز بها أو تقديس لها ينبغي ألا يحول دون السقاية والتشذيب . والسقاية إنما تكون بالاقتباس ، والاقتباس عملية حضارية شريطة ألا تسطو لغة أخرى على اللغة الأم . وسطو لغة دخيلة على اللغة الأم يكون بتفضيل اللغة الدخيلة في المؤتمرات وقنوات الإعلام : والمحاضرات والتعليم والإعلانات . وهذا ما يقتضي الولاء للأمة والوطن محاربته والإجهاز عليه . أما الاقتباس . اقتباس المصطلحات ، حتى والتعبيرات والأمثال والكفايات ، فذلك كله في رأيي ما لا ينبغي أن نتبرم به . إن الذوق العربي العام كفيل بتقويم المعوج .

والعرب المختصون بالحقول العلمية ليسوا أقل حرصا على العربيــة من اللغويين ، وليسوا بالضرورة أقل إلماما بها وتذوقا لها من سواهم ولعل فيهم من هم أقدر من سواهم على الإبداع . فلندع كل أمر لأربابه فصاحب البيت أدرى بالذي فيه . ولا ينبغي أن يغرب عن البال أن التقنية المعاصرة تجعل العالم صغيراً ، وتجمع الناس في أسرة واحدة : وأن ألفــاظ الحضارة المعاصرة كلها دخيلة على العــالم الثالث .

أيها السادة :

أنا أعلم أن كثيرين من المجمعيين يضيقون ذرعا ببعض ما قدمت ، فثمة من يرفضون كل كلمة تحمل معنى لا نجد في القواميس القديمة ما يؤيده ، وثمة من يلحون على أن كل كلمة قرآنية ينبغي ألا يبعد معناها عن المعنى القرآني . وأنا أعلم أيضا أن ثمة من قد كرسوا وقتهم وجهدهم لمحاولة توحيد المصطلحات العلمية في العالم العربي . وفي هذا كله نوايا حسنة تشكر . ولكن الأعمال بالنيات عند الله ، أما عند الناس فهي بنتائجها .

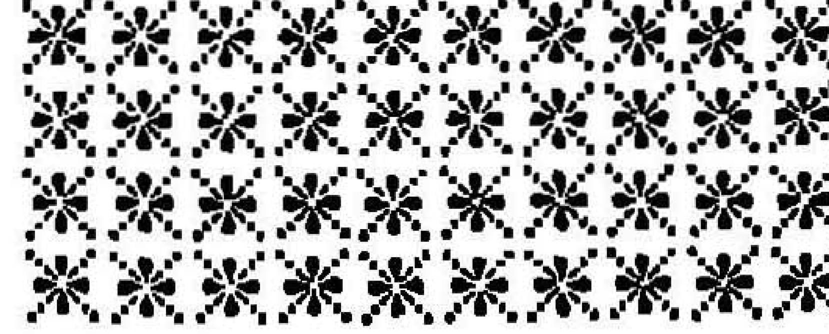
هل جاءكم نبأ عن محاولة توحيد المصطلحات العلمية ؟ إن كل قطر تأخذه العزة بالإثم ، ويعود فيتشبث بمصطلحاته ويقول : إن أعمال التوحيد هذه أعمال دونكيشوطية . ولهم حق أو بعض حق . فكلنا عشاق وحدة عربية ، ننشدها وندعو إليها . ولكنا نعلم أن توحيد

المصطلحات العلمية ينبغي أن يسبقه اتفاق على وحدة ثقافية تنتشر فى كنفها الكتب العربية العلمية فى سائر أقطار الوحدة ، لتدخل فى مناقشة شريفة ، فيأخذ كل معلم وكل متعلم منها ما يستحسنه ؛ مع رقابة مشددة على المحافظة على حقوق النشر وحدود الاقتباس : عندها يصبح استعمال المصطلحات الموحدة ضربة لازب .

وأما التشبث بالمعانى البدوية للألفاظ العربية والمعانى القرآنية فلا أعرف لى رداً ناجعا عليه سوى أن أطلب إلى الله أن يهدينا جميعا سواء السبيل .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

احمد سليم سعيدان
عضو المجمع المراسل من الأردن



أسس التفكير المنهجي عند طه حسين

للدكتور يوسف حسن نوفل

لقد شغل طه حسين المعاصرين حيا وميتا، وجاز لمن عاش هذا العصر أن يقر بعبقرية هذا الرجل، وتعدد عطائه، ذلك أنه أسهم إسهامات متعددة رضى بها قوم وسخط عليها آخرون، وبقدر ما تجد له من تلاميذ وأتباع يشكلون مدرسة موصولة الأجيال متتابعة العطاء، تجد — أيضا — الثائرين عليه ممن لا يرتضون ما ارتضى، أو لا يرتأون ما ارتأى.

والحق أنه يمكن رد ذلك كله إلى مواقفه الفكرية التي طبعت إنتاجه العلمي والأدبي بوجه عام؛ إذ صدر طه حسين عن موقف فكري لم يبال — حين اعتنقه وطبقه — بردود الفعل الناجمة عنه، واختلاف المواقف الناشئة إزاءه، واتسم هذا المنهج التفكيري :

بالحرية، ونبذ الجمود، والاجتهاد.

أما الحرية فاستلزمت قوة الإرادة، والجرأة في التعبير عن الرأي الذي آمن به واختاره بعد أن حاور نفسه في مصادره ومراجعه ونصوصه.

وأما نبذ الجمود فاستلزم التحدى، وتصنيف ما تلقاه بين مقبول ومرفوض دون أن يكون هناك حد وسط بين الحدين سواء أكان ذلك التصنيف راجعا لذوقه وحسه، وثقافته، أم تأثره بغيره واقتناعه بما رأى.

أما الاجتهاد فاستلزم تنويع مصادر ثقافته حين آل أمر نفسه إليه، مثلما تنوعت هذه المصادر بشكل مضطرب في مطلع حياته قبل أن يتولى أمر نفسه. ومن خلاصة ذلك كله وامتزاجه يولد منهج «التوازن الصحيح» بين القديم والجديد الذي يؤمن به كما سنرى

كل هذه الأمور — التي سنفصل القول عنها — ارتبطت بهذا الثالوث في التفكير الأدبي المنهجي عند طه حسين، الذي تكون من منابع عربية: قديمة ومعاصرة، قدر لها أن تنمو وتثمر مع التفاعل مع الثقافات الأجنبية: القديمة والمعاصرة أيضا، ونسارع فنؤكد أنه لا يعني ذلك نكران مبدأ التأثير والتأثر في الثقافات والحضارات والفنون في كل العصور. بل إننا لنؤكد إيماننا بهذا المبدأ حين نرى أن طه حسين نمى مداركه، وأنضج آراءه، وتصوراته المستقاة من مصادرها العربية

بما تلقاه من ثقافة متنوعة أجنبية قديمة ومعاصرة.

بل نضيف – أيضا – أن ما تلقاه من مصادر أجنبية جعله يلتقى – مرة أخرى – بما سبق أن التقى به من تصادم المناهج ، وتعارض الآراء ، وتضاد الاتجاهات . وهو ما عبر عنه فى مرحلة من حياته باصابته « بالاضطراب والاختلاف والتناقض » كما سنرى .

وينبغي – فى تصورنا – ألا يغيب عمن يبحث حقيقة التفكير المنهجى الأدبى عند طه حسين الوقوف على مفتاح فهم ذلك المنهج ، أو على الأقل فهم ما قد يبدو فيه من تناقض أو تراجع أو حدة ، وقد أعلن ذلك فى كتابه (الأيام) حين عرض للحياة العلمية المتواضعة فى بلدته ؛ وما تلقاه من قدر متواضع متضارب من العلم آنذاك ، قائلا :

« وكان صبينا يختلف بين هؤلاء العلماء جميعا ، ويأخذ عنهم جميعا ، حتى اجتمع له من ذلك مقدار من العلم ضخم مختلف مضطرب متناقض : ما أحسب إلا أنه عمل عملا غير قليل فى تكوين عقله الذى لم يخل من اضطراب واختلاف وتناقض »[1] .

وفهم هذه الحقيقة يفهمينا متابعة مراحل حياته لنجده يتخذ من قضاياه ، وقفنا من موقفين لا ثالث لهما :

(١) الانحياز لذلك الموقف انحيازا جارفا طاغيا .

(٢) أو الانقلاب عليه ومهاجمته بلا رفق أو لين .

وهذا ما يفسر مواقفه التى لا تعرف وسطا مهما أثارت من نتائج[2] .

ونأخذ الآن فى الوقوف على مراحل التكوين الأدبى لطه حسين لنتعرف على المؤثرات السائدة فى كل منها ، وهى مؤثرات تركت آثارها الظاهرة أو الخفية فى نفسه ، الواعية أو غير الواعية حتى قدر لها أن تتفاعل مع المؤثرات الأجنبية وحياته العملية .

هذه المراحل هى :

المرحلة الريفية . ثم مرحلة القاهرة (الأزهرية) ؛ ثم مرحلة القاهرة (الجامعية) .

وذلك قبل سفره إلى فرنسا . وهناك يقابل بين ما قدُم لديه وما جدّ ، أو بين التالد والطريف كما يقولون .

---

(١) الأيام ج ١ الفصل الرابع عشر ، الفقرة الأخيرة .

(٢) اتهمه البعض بالالحاد ، والشيوعية ، واعتناق المسيحية ، ومعاداة العرب إلى آخر ما هناك من آراء عرضها أنور الجندى فى كتابه (طه حسين حياته وفكره فى ميزان الإسلام ، دار الاعتصام ، ١٩٧٦) ، والدكتور محمد حسين فى (حصوننا مهددة من الداخل) ، وخيرى شلبى جمع وتحقيق (محاكمة طه حسين) بيروت ١٩٧٢ ، وجمال الدين الألوسى (طه حسين بين أنصاره وخصومه) بغداد ١٩٧٣ ، وسامح كريم : (طه حسين فى معاركه الأدبية) الهيئة ١٩٧٤ ، ونجاح عمر (طه حسين : أيام المعارك ، العصرية بيروت ٧٥) .

ثم مرحلة ما بعد العودة من فرنسا ، وهما طالت وتعددت وجوهها وسماتها .

في المرحلة الريفية بعزبة الكيلو بمحافظة المنيا وبمدينة مغاغة ، تمكن تصنيف وسائل المعرفة المتواضعة لديه في قدر من العلوم العربية والشرعية[1] ، وفي شيء من التراث الشعبي والأساطير والمعتقدات السائدة ، وفي الإحساس بالبيئة ، والزمان والمكان بطريقته الخاصة به .

في ذلك كله نجد الفتى يتأرجح بين الاستقامة والاضطراب ، النجاح والفشل ، وكما صرح فيما نقلنا عنه من قول منذ قليل ، تلقى معارف متنوعة من مصادر شتى من علماء يكبرهم كما يكبرهم الريفيون ، « ويكاد يؤمن بأنهم فُطِروا من طينة نقية ممتازة غير الطينة التي فُطِر عليها الناس جميعا »[1] .

أما هؤلاء العلماء فهم بين : كاتب المحكمة الشرعية ، وإمام المسجد صاحب الخطبة والصلاة ، وآخر يجلس إلى الناس من حين إلى حين ، ورابع خياط يأخذ العلم عن شيوخ الطرق ، وخامس تاجر .. إلى آخر ما هنالك من المتصلين بالدين مما عرض له طه حسين بطريقته الساخرة الناقدة التي تناقض ما حدثنا عنه منذ قليل من إكبار وتوقير .

ويحفظ الألفية عن قاضي المحكمة الشرعية[2] حتى يهبط بلدته رجل قاهري ، هو المفتش الزراعي الذي يتكلم الفرنسية ، وما يلبث أبو طه حسين أن يرسله إليه ليتلقى أصول التجويد . وهنا شعر الفتى بشيء من التنوع في ثقافته جعله يشعر بالتفوق على أترابه مثلما شعر بذلك حين غادر الكتاب إلى فقيه من الفقهاء . أي أن سعْي الفتى إلى التنوع المعرفي هو مقياس المباهاة والتعالي لديه ؛ لا سيما وقد قال عن نفسه :

« كان من أول أمره طُلَعَة لا يحفل بما يلقى من الأمر في سبيل أن يستكشف ما لا يعلم ، وكان ذلك يكلفه كثيراً من الألم والعناء »[3] ، لذا أعجب بأخيه الذي سبقه إلى الدراسة بالأزهر الشريف ؛ وأذكت آفة العمى في نفسه جذوة حب المعرفة ؛ كما يقرر في كتاب (هذا مذهبي) : « إذ صرفته عن كثير مما يشغل المبصرين وحرمت (عليه) ألوانا من جدهم ولعبهم ويسرتني لما خلقت له من

---

(١) الأيام ج ١ مطلع الفصل الرابع عشر .

(١) كما تلقى شيئا من : الجوهرة ، والخريدة ، والسراجية ، والرحبية ، ولامية الأفعال ، وحفظ القرآن الكريم .

(٣) الأيام ج ١ مطلع الفصل الرابع .

الدرس والتحصيل أنفق فيهما من القوة والجهد والنشاط والفراغ ما ينفقه غيره فيما يضطربون فيه وما يختلف عليهم من ألوان الحياة وخطوبها» ولهذا يحدثنا عن توطينه نفسه لما ينبغي أن يحسنه من الدرس والتحصيل ما وجد إليهما سبيلا ، يقول :

« وقد فعلت أو حاولت أن أفعل فى آخر الصبا ، وأول الشباب »[1] .

وهنا نجد تقسيمه المرحلي لجوهر حياته العلمية حيث أهمية آخر الصبا ، وأول الشباب وذلك فى المرحلة القاهرية بوجوهها المتعددة ، كما سنرى .

وفى تأمل هذا القدر من العلم الذى حصله ما يقفنا على قدر من الاضطراب والتناقض والارتجال والسطحية كفيل أن يثير لدى الصبي ، الطلعة ، شغفاً بالتحصيل والرقى نماه عن طريق مصدر آخر كان أكثر اقتراباً من ميوله الأدبية من وسائل المعرفة السابقة ، وهذا المصدر — فى تصورى — وثيق الصلة بميوله الأدبية التى ستتفتح فى مرحلة تالية ، ولهذا نراه فى المرحلة الريفية شديد الحرص على متابعة الغناء الشعبي وقصصه الدائرة حول أبى زيد ، وخليفة ، ودياب ، وعنترة ، والظاهر بيبرس ، والغزوات والفتوح ، وقصص الأنبياء ، وقصص ألف ليلة وليلة ، بل يولع بأذكار المتصوفين ، وأصحاب الطرق ، وولع سيده الشيخ بالغناء[2] ، واهتمامه — مع ذلك كله — بالسحر والعفاريت فيهتم « بخاتم سليمان » كما يهتم « بعصا الحسن البصرى » ، ويهتم « بعدية يس » ، كما يهتم « بالتحصن من الخماسين » . بل يقرن بين الساحر والمتصوف ويجعلهما متشابهين ، ولا يرى التناقض بينهما إلا ظاهرياً : فكلاهما يخترق الغيب إلى عالم الأرواح ، وفارق ما بينهما أن هذا يتصل بالملائكة ، وذلك يتصل بالشياطين[3] . هكذا تخلق خيال أدبى غض ما يلبث أن يغادر الريف إلى حيث الأزهر ، حيث يقول : « وما كانت القاهرة عنده شيئاً آخر ، إنما كانت مستقر الأزهر ومشاهد الأولياء الصالحين »[4] .

فى هذه المرحلة غاب أمام ناظريه منهج « التوازن الصحيح » بين جملة ما يتلقى من متناقضات من ناحية : وحداثة سنه من ناحية أخرى .

---

(١) هذا مذهبي — كتاب الهلال مارس ١٩٥٥ ص ٤٠ .

(٢) الأيام ج ١ فى صفحات عديدة وانظر للحديث عن جوانب من هذا فى الأيام : الدكتورة سهير القلماوى والدكتورة نبيلة إبراهيم ، مجلة الثقافة : ديسمبر ١٩٧٣ ص ٢٠ وما بعدها وص ٨٧ وما بعدها .

(٣) الأيام ج ١ ، الفصل السادس عشر .

(٤) نفسه — الفصل الحادى عشر .

فى المرحلة القاهرية الأزهرية يلتقى الخيال الغض الغيبى ، بالحقائق العلمية المتناقضة بين القديم الجامد والحديث الواعد ، أو بين ركنين من ثالوثه العتيـــد : الجمود ، والاجتهاد ، حتى يصاب بما أصيب به من قبل «اضطراب واختلاف وتناقض » ، ويسارع الفتى إلى الرد القاطع على أخيه :

« إنما أنا فى حاجة إلى العلم » .

وحين جلس إلى شيخه ، وأخذ مكانه فى الحلقة على البساط لمس العمود الرخامى ، فأحب ملاسته ونعومته ، وأطال التفكير فى قول أبيه : « إنى لأرجو أن أعيش حتى أرى أخاك قاضياً ، وأراك صاحب عمـــود فى الأزهر »[1] .

ها نحن أمام بذرتين هينتين : بذرة خيال أدبى ، وبذرة طموح علمى ، كان الخيـــال الأدبى الذى حصله خلال المرحلة الريفية « ميثولوجيا » ، وكانت البذرة العلمية التى جناها هناك تقليدية سطحية ، وحين ذهب بهذا الزاد المتواضع وبعقليته المتقدة اصـــطدم بالتباين الصارخ الذى اصطدم به من قبل وأعنى به : القديم الجامد . والحديث الواعد تحت سقف الأزهر بخاصة ، وتحت سماء القاهرة بوجه عام ، كما سنرى من خلال رؤية هذا التقابل الواضح أو التضاد البين بين عطاء أساتذته المؤثرين فيه فى البيئة القاهرية .

ما أكثر ما رأى طه حسين بالأزهر ومن سمع من أساتذة[2] ، لكن الإمام الشيخ « محمد عبده »[3] ١٢٦٦ هـ / ١٨٤٩ م — ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٥ م يظل النموذج المقـــدم لدى صاحبنا ، منذ حضر دروسه فى تفسير القرآن الكريم على طرق حديثة ، ومنذ رأى فيه امتدادا لجمال الدين الأفغانى ، ووقف على آرائه فى الإصلاح فى اتجاهات ثلاثة هى : الدين ، واللغة العربية ، والسياسة ، وفى نبذ التقليد ، والتوفيق بين العقل والدين ،

---

(١) نفسه — الفصل التاسع عشر .

(٢) ممن تلقى عنهم العلم بالأزهر : الشيخ عبد المجيد الشاذلى الذى يدرس الأزهرية ، والشيخ يوسف الدجوى الذى يدرس النحو ، والشيخ أحمد أبو خطوه الذى خاطبه بقوله : (اسكت يا أعمى) ، والشيخ عبد الله دراز .

(٣) العقاد : محمد عبده : أعلام العرب العدد الأول ١٩٦٢ ، وأحمد أمين : زعماء الإصلاح ، النهضة ١٩٤٨ ص ٢٨٥ ، وهذا مذهبى ، مجموعة كتاب الهلال العدد ٤٨ وغيرها ، والدكتور محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، دار النهضة العربية ، بيروت ط ٣ ، ١٩٧٢ ، ١ / ٣٢٧ — ٣٥٧ وصفحات متفرقة ، ٢— صفحات متفرقة ، ومحمد رشيد رضا : تاريخ الشيخ محمد عبده ، القاهرة ، ٢٥ — ١٩٣١ .

وكأنما كان التاريخ على نية تكرار الحدث ، فقد التقى محمد عبده بالنقيضين ، طرف الجمود من زاوية سحيقة فى كهف الشيخ محمد عليش وطرف التجديد فى غاية مرماه فى ميدان جمال الدين الأفغانى ، وكادت المعركة بين الجمود والتجديد فى الأزهر وقت دراسة محمد عبده تودى بطموحه العلمى لولا أن أنصفه أحد أساتذته ... وهذا بعينه ما حدث لطه حسين الذى وجد — كما سنرى — الدروس الجادة الجديدة ، والدروس الهشة الجامدة . والذى رسب فى امتحان العالمية بسبب نزوعه للحرية.
ولم ينفصل طه حسين عن مجلس الشيخ محمد عبده الذى كان يضم من المصريين ، والشوام والعراقيين ، ويجتمع إليه فيه : الشيخ جاويش وولى الدين يكن ، ورفيق العظم ، والكواكبى ، ورشيد رضا ، والجزائرى ، والكاظمى .

ويظل « سيد بن على المرصفى » — (توفى عام ١٣٤٩ هـ — ١٩٣١ م) — فى نظر طه حسين — يتناول الدرس الأدبى على نحو لم يألفه الأزهريون آنذاك ؛ وأصح من عرف بمصر فقهاً فى اللغة ، وأسلمهم ذوقاً ، يتحدث عنه فى مقدمة (ذكرى أبى العلاء) ، وفى مطلع كتابه (فى الأدب الجاهلى) ، ويجعله ممثلا لمنحى اللغويين والنقاد القدامى فى البصرة والكوفة مع ميل إلى النقد والغريب ؛ وانصراف عما ألفه الأزهريون من النحو والصرف ، والبلاغة ، ويأخذ عليه لجوءه إلى الكتب المدرسية فى تعليم أدب الفقه جرياً وراء التجديد الذى رآه طه حسين انحطاطاً وضعة ، ورآه ممثلا لمذهب القدماء فى مواجهة مذهب الأوربيين بالجامعة . ويذكر طه حسين أنه ضاق به وهو أحب ما فى الأزهر إليه لإذعانه لشيخ الأزهر وإعراضه عن طلابه ؛ خوفاً ممن يتجسسون عليه وإشفاقاً على ما يتقاضاه ، ولم يعد يلقاه إلا كل يوم جمعة فى بيته ، كما يذكر أنه تهيأ لدخول امتحان العالمية إلى نية تسقيطه وأوصاه بالاستقالة : ويذكر أنه ثانى أستاذين له هو ونطفى السيد ، وأنه يذكره بأئمة البصرة والكوفة بينما يذكره أحمد لطفى السيد بفلاسفة اليونان ، كما يذكر أنه جرب الشعر على يديه.
ويذكر أحمد أمين أن الشيخ المرصفى كان ظاهرة فى جيله حيث كان يحلق حلقة دراسية أدبية حوله مما أثار عجب المشايخ وطلاب الفقه والنحو ؛ وجعلهم ينظرون إلى حلقته شزراً(١).

---

(١) انظر أحمد أمين ، زعماء الإصلاح فى العصر الحديث ١٩٤٨ ، ص ٢٠٦ ؛ وطه حسين : فى الأدب الجاهلى ط ٣ ، ١٩٣٣ ، ص ١ ، والأيام ج ٣ ص ٣٩٥ ؛ ٣٩٦ ؛ ٤٠٣ ، ٤١٧ (المجموعة الكاملة ، بيروت ١٩٧٤) ، وتجديد ذكرى أبى العلاء ، دار المعارف ط ٦ ، ١٩٦٣ ، ص ٥ ، ومقدمة تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية ، ويضفى على المرصفى صفات طيبة موازناً بينه وبين نللينو ٩ — ١١ ، وانظر الدكتور طه الحاجرى ، مجلة الثقافة ، أكتوبر ١٩٧٥ ، ص ١٤ وما بعدها والدكتور أحمد كمال زكى : النقد الأدبى الحديث ، الهيئة ١٩٦٢ ص ٨٨ — ٩٠ ، ومقدمة طه حسين لكتاب تاريخ الآداب العربية لنللينو : ص ٣ — ١١ .

ماج الوطن العربي بصيحات تجديد متنوعة متعددة ، فكان الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١٧٣٣) في الجزيرة العربية ، وعبد القادر الجزائري ، وابن باديس بالجزائر ، ومحمد الخضر حسين بتونس ثم بمصر ، ومحمد أحمد المهدي بالسودان ، ثم عمر المختار بليبيا ، وعبد الكريم الخطابي بالمغرب ، ومحمود شكري الألوسي بالعراق ، وحسين الجسر ، وطاهر الجزائري بالشام .

ويظل لرفاعة رافع الطهطاوي (١٨٠١ — ١٨٧٣) منزلة الريادة ، في تنمية الفكر المحلي مع الإفادة من التيارات العالمية .

مع صدى لكتاب الكواكبي (أم القرى) سنة ١٨٩٩ ، ومحمد رشيد رضا (الخلافة أو الإمامة العظمى) سنة ١٩٢٣ ، وكتاب (الإسلام وأصول الحكم) لعلي عبد الرازق سنة ١٩٢٥ م . وهنا كانت الحركة الفكرية في مصر بين تياري الانتماء الإسلامي ، حيث الجامعة الإسلامية ، والانتماء المحلي حيث القومية أو الوطنية المصرية[1] ، وقد كان من رواد الاتجاه الثاني رفاعة الطهطاوي ، فأحمد لطفي السيد (١٨٧٢ — ١٩٦٣) ، وهنا نجد ط ' حسين ينحو نحو ربط مصر بثقافة البحر الأبيض المتوسط كما عبر في كتابه (مستقبل الثقافة في مصر) سنة ١٩٤٤ م .

وهنا نجد مناداة قاسم أمين (١٨٦٥ — ١٩٠٨) بتحرير المرأة : واهتمام أحمد فتحي زغلول (١٨٦٣ — ١٩١٤) بالترجمة وسيلة لا غاية ، مما جعل أحمد لطفي السيد يبدي إعجابه بترجماته . وهنا رأى طه حسين باريس من خلال الطهطاوي ، والعقد الاجتماعي لروسو ، وأصول الشرائع لبنتام : وروح الاجتماع وسر تطور الأمم لغوستاف لوبون من خلال ترجمات زغلول ، والأخلاق ، والكون والفساد ، والطبيعة ، والسياسة لأرسطو من خلال ترجمات لطفي السيد الذي أصدر (الجريدة) ليرى فيها طه حسين وأبناء جيله ، كما يقول : « معايير جديدة في السياسة والاجتماع »[2] . على أن تأثير أحمد لطفي السيد في طه حسين يفوق أي تأثير لأحد غيره ،

---

(١) الدكتور عبد اللطيف حمزة ، أدب المقالة الصحفية ج١ ص ١١٣ — ١٢١ (عن رفاعة الطهطاوي) والدكتور محمد حسين ، الاتجاهات الوطنية في الأدب المصري ج ١ ، بيروت ط ٢ ، ١٩٧٢ ، والدكتور شوقي ضيف ، الأدب العربي المعاصر في مصر ، القاهرة ١٩٦١ فصل — تياران عربي وغربي ، والدكتور أحمد هيكل ، تطور الأدب الحديث في مصر ط ٣ ، ومجلة الطليعة ، حركة الفكر القومي في مصر من حكم محمد علي إلى الحرب العالمية الثانية — حسن عبد العزيز — يناير ١٩٦٧ ، ص ٩٦ وما بعدها .

(٢) سامي الكيالي ، مع طه حسين ج ١ اقرأ ١١٢ ص ١٧ ويذكر طه حسين أنه ظل ينشر بها ويحررها طيلة عشر سنوات دون أجر — الأيام ج ٣ .

ذلك المفكر الذى عاش قرابة قرن إلا قليلا والذى كان أبوه وجده من عمد مصر ؛ وقد حضر أبوه الجمعية العمومية التى دعا إليها عرابى سنة ١٨٨٢ ؛ وكان لطفى السيد – ذلك الحقوقى الرائد – ممثلا لجيل ما بعد الثورة العرابية . وأستاذاً للجيل بعده . نادى بالمصرية بما تشير إليه من مواجهة الاستعلاء ودفع تهمة النقص . ونادى بالحرية والديمقراطية والتعليم . واعتبره المؤرخون امتداداً لمدرسة محمد عبده . وامتداداً لاتجاه الطهطاوى ؛

ولم ترجع منزلته بين تلاميذه لمؤلفاته وترجماته بقدر ما عادت إلى مواقفه الاجتماعية والسياسية والتربوية . وقد اشترك فى تأليف حزب الأمة سنة ١٩٠٧ م ؛ وأصدر (الجريدة) – لسان الحزب – وتولى رياسة تحريرها منذ ٩ من مارس سنة ١٩٠٧ ؛ حتى استقال منها فى سبتمبر سنة ١٩١٤ . وتوقفت فى أول يوليو سنة ١٩١٥ ؛ وفى هذه الجريدة تنفست المرأة . فكتبت مى زيادة (١٨٨٦ – ١٩٤١) ونبوية موسى (١٨٩٠ – ١٩٥١) ؛ ولبيبة هاشم وغيرهن ، وقد كان من مؤسسى الوفد المصرى سنة ١٩١٩ ؛ ونادى – مع غيره – بإنشاء الجامعة الأهلية سنة ١٩٠٨ ؛ وتولى وكالتها خلفاً لأحمد شفيق ، ثم تولى رياستها حين أصبحت حكومية فى ١١ من مارس سنة ١٩٢٢ . ولا يعنينا المضى مع أحداث حياته إلا بالقدر الذى يتصل بطه حسين ، وآخر هذه الأحداث توليه رياسة مجمع اللغة ثمانية عشر عاما ؛ وكان قد ظفر بعضويته سنة ١٩٤٠ ثم برياسته بين سنة ١٩٤٥ و١٩٦٣[1] ؛ حيث خلفه طه حسين .

آمن لطفى السيد « بالليبرالية » التى تقوم – عند بنتام ، وجون ستيوارت مل – على مبدأ المنفعة ؛ لذا يشير إلى « تقدير المنافع التى ينالها مجموع الأمة » . ويتخذها « قاعدة كل عمل »[2] ؛ ويتحدث عن هذا المذهب كما يسميه : مذهب الحريين . أو الفرديين » ؛ ويحدد للحكومة واجبات لا تطغى على ما يقوم به الفرد[3] وقد آمن بضرورة جلب

---

(١) الدكتور عبد اللطيف حمزة ؛ أدب المقالة الصحفية ج ٦ القاهرة ٥٠ – ١٩٥٤ ص ١٦٣ ؛ ومحاضرته عنه فى ذكراه الأولى بالمنصورة – مارس ١٩٦٣ – وإسماعيل صدقى ؛ مذكراتى ؛ دار الهلال ١٩٥٠ ؛ والدكتور حسين فوزى النجار ، وأحمد لطفى السيد – أعلام العرب – ٣٩ ؛ وهذا مذهبى – مجموعة هو منهم – كتاب الهلال ٤٨ ص ١٩ ، وعبد العزيز البشرى ، فى المرآة – كتب للجميع ص ٥٦ ، ومجلة الطليعة ، العدد السابق ، ومجلة الرسالة – حديث أحمد حسن الزيات مع لطفى السيد – العدد التاسع السنة الأولى ١٥ مايو ١٩٣٣ .

(٢) الجريدة ٩ / ١٠ / ١٩٠٩ .

(٣) الجريدة ٢٨ / ٩ / ١٩١٣ ، و٢ / ٣ / ١٩١٣ ، و٦ / ١ / ١٩١٣ .

الحضارة والتمدن الأوربيين كما صنع العرب من قبل مع حضارات الفرس واليونان، ولم يجد بأسا من التفكير ولم يره سُبة، لأنه يدعونا إلى التقدم دون القضاء على ذاتيتنا ولأنه من أصول التطور.

وقد كانت صلة لطفى السيد بمحمد عبده متصلة ومستمرة، وفى شتاء سنة ١٨٩٧ التقيا فى باريس والتحقا بجامعة «جنيف»[1] ليدرسا الأدب، وهناك طلب إليهم أستاذ الأدب دراسة أحد أعمال «فيكتور هوجو» وناقشهم فيها وفى نقدها حتى أعجب الشيخ محمد عبده بالطريقة واعتزم اتباعها بالأزهر. وهنا نجد التقاء أستاذى طه حسين — القريبين إلى نفسه — فى المنهج والتفكير.

ويمضى لطفى السيد فى دعوته للمصرية فى مواجهة التغريب الذى يشيعه النفوذ الأجنبى آنذاك. يقول[2]: «لا شبهة عند أحد منا فى معنى كوننا أمة متميزة عما عداها بمشخصات خاصة بنا قد لا يشركنا فيها غيرنا من جميع الأمم، لنا لون خاص وميول خاصة ولغة واحدة شاملة ودين للأكثرية واحد وكيفيات فى تأدية أعمال ودم يكاد يكون واحداً يجرى فى عروقنا ووطننا محدود الجهات بحدود طبيعية تكاد تجعلنا فى معزل عمن عدانا. لنا تاريخ قديم طويل ذو مراتب وأقدار اتصلت سلاسله بحلقات متينة فأصبحت سلسلة واحدة أولها قبل التاريخ وآخرها هذه الحلقة التى نقطعها» .. إلى أن يقول: «فنحن بذلك فراعنة مصر، ونحن عرب مصر، ونحن مماليك مصر وأتراكها».

ويحدد عناصر المصرية المكونة من المصريين الأصليين، وعناصر أخرى من الأجانب استقروا بمصر[3].

وقد اتسعت (الجريدة) لبسط آرائه وآراء غيره. ولعقد صلة التلمذة بينه وبين مريديه من أمثال طه حسين، ومحمد حسين هيكل (١٨٨٨ — ١٩٥٦) اللذين داوما على الاتصال به، والكتابة فى الجريدة، ومضى طه حسين على صفحات الجريدة يلتقى بالرأى العام وقضاياه، وبكبار الشخصيات السياسية والأدبية فى كنف أستاذه لطفى السيد الذى يصبح سنداً لطه

(١) الرسالة ١٥ مايو ١٩٣٣ — حديث أحمد الزيات مع أحمد لطفى السيد، ص ٨ وما بعدها.

(٢) الجريدة ٢ يناير ١٩١٣.

(٣) الجريدة ٥/ ١٠/ ١٩٠٩.

حسين وكثير من أبناء جيله فى حل قضاياهم[1] من ذلك ما يرويه طـه حسين عن إحدى محاضرات الشيخ سيد بن على المرصفى. يقول :

« وحدث أنه بينما كنا نقرأ الكامل للمبرد وردت هذه العبارة : ومما كفَّر الفقهاء به الحجاج قوله - والناس يطوفون بقبر النبى ومنبره - : «إنما يطوفون برمة وأعواد» فقلت أنا : إنه لم يكفر وإن كان قد أساء الأدب وبلغ قولى هذا شيخ الجامع الأزهر وسمعت أنه سيطردنى ، فذهبت إلى الجريدة أريد كتابة مقال عن هذا الموضوع ، وهناك تقابلت مع الأستاذ لطفى السيد فرفض المقال ولكنه عرض أن يتوسط لإرجاعى أنا وسائر من غضب عليهم إلى الأزهر[2] .

وكما شجعه ووجهه أستاذه لطفى السيد شجعه ووجهه الشيخ عبد العزيز جاويش (١٨٧٦ — ١٩٢٩) : ولهذا يذكر التلميذ أن مذهب « الاعتدال والقصـد » كان نجده لدى الأول ، ومذهب « الإسراف والغلو» نجده لدى الثانى ، وخصوصا فيما يتصل بخصوماته مع الأزهر ورجاله[3] ، على حين يخاصم محمد رشيد رضا (١٨٦٥ ١٩٣٥)[4] ، وسعد زغلول (١٨٦٠—١٩٢٧) برغم مواقفه الإيجابية نحوه[5] كما يقول : ولعل وجود الاعتدال والإسراف فى منهج أستاذيه شديد الاتصال بمبدأ الاضطراب الذى ألمحنا إليه من قبل .

وحين نقرأ تعليق طه حسين على كتاب (علم الأخلاق) لأرسطو الذى ترجمه أحمد لطفى السيد[6] نجد الحب والإعجاب والولاء بصدق نادر يكاد يصرفه عن تناول موضوع المقال ، فقد مضى التلميذ فى مدح أستاذه وصديقه مقرراً : « أنه لم يعرف له نظيرا فى الكتابة ولا فى التفكير ولا فى الترجمة

---

(١) من ذلك تأييده لمطلب تزوج طه حسين فى فرنسا ؛ وفضله عليه فى الكتابة ، وفى تعريفه بأعلام مصر وفى مساعدته فى السماح له بمناقشة رسالة الدكتوراه بفرنسا وغيرها . (انظر الأيام ج ٣ ص ٣٩٦ ، ٤١٦ ؛ ٤١٧ ، ٤٢٠ ؛ ٤٢٩ ، ٤٣١ ؛ ٦٥٠ المجموعة الكاملة : بيروت ط ٢ بيروت ١٩٧٤) .

(٢) انظر سامى الكيالى مع طه حسين ج ١ ص ١٨ ، والدكتور عبد العزيز الدسوقى فى حديثه معه : الرسالة الجديدة مايو ١٩٧١ ص ٧ وينسب الأول المحاضرة إلى الشيخ محمد عبده . وهو غير صحيح .

(٣) الأيام ج ٣ ص ٣٩٦ ؛ ٣٩٨ ، ٤١٧ ، ٤٢١ ، ٤٢٧ .

(٤) الأيام ج ٣ ص ٤٢٧ .

(٥) الأيام ج ٣ ص ٦٤٩ ، ٦٥٠ .

(٦) حديث الأربعاء ، دار المعارف ط ٩ ج ٣ ص ٤٧ — ٥٧ .

ولا يرى بأسا فى قرنه بأرسطو : « ولطفى السيد هو المعلم الأول لعصرنا هذا الذى نحن فيه » ، ولا يرى بأسا ولا غلواً فى جعله المعلم الأول كأرسطو ، لأنه « أستاذ للشباب الناهض المفكر كله » ، ويمضى فى تعداد بعض إسهاماته وانتصاره للتجديد فى اعتدال وقصد ، والإصلاح العقلى ، وحرية الرأى وإزالة الفروق بين العقل الشرقى والعقل الغربى ، إلى أن يقول :

« لقد نستطيع أن نشخص فلسفة الأستاذ لطفى السيد بهذه الخصال : الأولى أنها فلسفة تجديد وإصـــلاح ، لا يقومان على هدم القديم ، بل يقومان على تنقيته وتصفيته وتقويته وإزالة ما فيه من أسباب الانحلال والضعف ، والثانية أنها فلسفة حرية وصراحة ولكن بأوسع معانى الحرية والصراحة العقلية ، والثالثة أنها فلسفة ذوق وقصد فى اللفظ والمعنى والسيرة معا ، والرابعة أنها فلسفة كرامة وعزة واعتراف بالشخصية الإنسانية وحمل الناس على أن يعترفوا بهذه الشخصية » .

ويهمنا من هذا أمران : إبانة أحد أصفياء لطفى السيد عن سمات تفكيره ومنهجه ، أما الأمر الثانى فهو أن هذه الصفات هى — بعينها — أسس منهج طه حسين الفكرى ولا أدل على ذلك من قول طـــه حسين عقب كلمته الماضية ، وهو كلام له أهميته لمؤرخ فكر الرجلين :

« عـــد إلى آثار الأستاذ لطفى السيد فى الجريدة فاقرأها وتدبرها استقصاء ، ثم انظر إلى الأستاذ وإلى تلاميذه وأصفيائه تجدهم قد أخذوا بحظهم من هذه الخصال فهم مصلحون ودعاة إلى التجديد ، وهم أحرار ودعاة إلى الحرية ، وهم محبون للذوق حين يفكرون وحين يعملون » .

هذه هى أهمية ما ننقل عن طـــه حسين ، وهى أنه يقدم لنا وصفا لمنهج تفكير أستاذه وتفكيره معـــا . حتى ليؤكد أن التاريخ سيشهد لأستاذه بالنهضة العقلية والسياسية والاجتماعية ، ويضمه إلى صديقيه المصلحين محمد عبده وقاسم أمين ، وهكذا يمضى فى حـــديثه عن أستاذه مستدركا أنه كان يريد الحـــديث عن الكتاب فتحدث عن مترجمه .

وهناك مصـــدر آخر غير مشهور يعين فى فهم الأســـتاذ وتلميذه ، وهو كتاب (هذا مذهبى) الذى صدر فى سلسلة كتاب الهلال سنة ١٩٥٥ يضم أقوالا لطائفة من المفكرين المعاصرين ، والقـــدامى ، العرب وغيرهم ، وفى طليعتهم لطفى السيد (ص ١٩) وأول ما نلحظه شيوع سمات أسلوب طه حسين على صياغة هذه الأقوال ، والملاحظة الثانية اتفاق الأستاذ والتلميذ فيما يؤثران وهو (حب المعرفة) — ص ١٩ ، وص ٣٩ حيث اختـــيرت هـــذه العبارة عنوانا لكلمتيهما ، والملاحظة الثالثة محاولة الأستاذ

تحقيق التوازن : « ولم أكد أقرأ فلسفة القدماء من اليونان والعرب والمحدثين من الأوربيين حتى قوى سلطان هذا المزاج على نفسى » : فيسمى التوازن « مزاجا » . كذلك حديثه عن : « إيمانه بالعقل إيمانا شديدا » : « وتعليم نفسه » : و« أصلح نفسى فأحط عنها من أثقال التقاليد ما لا خير فيه » .

أما التلميذ فيمضى فى أثر أستاذه — ولعله صاغ الكلمتين — فيؤكد على الخصلة الأولى التى صاحبته وهى « الظمأ الشديد للمعرفة » حتى يفصل القول فيها تفصيلا (٣٩ وما بعدها) ثم يصل بنا إلى مشارف مرحلة البحث عن التوازن ، فيحدثنا عن « العلم المحدود بالأزهر » ، والخصلة الثانية وهى « الصبر والمغالبة واحتمال المكروه » : وتجديد ألوان المعرفة ؛ وعن الخصلة الثالثة وهى « التصميم واقتحام العقبات » . والرابعة وهى : « الصراحة والجهر بالحق » فى مخاصمات الإصلاح الاجتماعى والعقلى والمنهجى والتعليمى . وهذه الخصال الأربع تتفق مع ما رأيناه سمة عامة لمنهجه فى التفكير وهى : الحرية ، ونبذ الجمود ، والاجتهاد ، وكل ذلك أدواته فى تحقيق التوازن الذى يصبو إليه .

وعن أستاذه[1] أخذ الاعتزاز بالروح المصرية والشخصية المصرية ، وها هو يتحدث عن المصرية فى حديث يوجهه للحكيم[2] ومثله ما نجده لدى محمد حسين هيكل (١٨٨٨ ــ ١٩٥٦) ؛ وأمين الخولى (ت فى ٩/٣/١٩٦٦) وسلامة موسى (١٨٨٨ ــ ١٩٥٨) ، وقد ارتبط ذلك بطبيعة المرحلة ،

فكما كانت الثورة العرابية ١٨٨١ دافعة لقوى الشخصية المصرية ، والأدب المصرى ومحركة للأدب الذى استيقظ على أيدى أمثال البارودى ، كانت ثورة ١٩١٩ محركة للوجدان القومى ودافعة لقوى الشخصية المصرية ، وللأدب حيث كانت إرهاصات يقظة الشخصية المصرية فى الأدب فى أعمال مثل : رواية زينب ، لهيكل سنة ١٩١٢ حاملة اسم مؤلفها : مصرى فلاح ؛ وأقصوصة (فى القطار) لمحمد تيمور سنة ١٩١٧ ، حيث جمع فى القطار مواجهة بين المصرى الفلاح والعناصر الدخيلة ؛ ومسرحية (أبطال المنصورة) لإبراهيم رمزى سنة ١٩١٥ ؛ ثم كان صدى ثورة ١٩١٩ فى الأدب والفكر والفن مما حدا بتوفيق الحكيم أن يصور لنا ذلك فى رواية (عودة الروح) سنة ١٩٣٣ مثلما وجدنا موسيقى سيد درويش ، والأعمال

---

(١) الدكتور حسين النجار ، أحمد لطفى السيد فى مواطن عديدة منها ص ٥٩ .

(٢) فصول فى الأدب والنقد ، المعارف ١٩٤٥ ص ٩٩ ، ١٠٠ .

التشكيلية تختار : والدعوات الاجتماعية والوطنية المتعددة[1] .

وانتابت عقل طه حسين موجة من التحير إزاء منهجه الذى يجد فى سبيل الوصول إليه ، وهو تحقيق « التوازن الصحيح » بين عنصرى : الاستقرار أى التسليم بالقديم والتطور ، وهو يرى فى أساتذته ، وفيما يتلقاه من مصادر المعرفة من يميل إلى هذا ومن يميل إلى ذاك ؛ فالجمود انحطاط ، والاندفاع ثورة ؛ و« الانحطاط » و« الثورة » كلاهما عرض زائل ، فمن ذلك الذى يحقق « التوازن الصحيح » الذى سيحدثنا عنه طه حسين فيما بعد ؟ لاسيما وقد وعت أذناه « الاعتدال والقصد » عند أحمد لطفى السيد ، و« الإسراف والغلو » لدى الشيخ عبد العزيز جاويش ورأى التحرر عند الشيخ محمد عبده ، والتقليدية عند الشيخ سيد بن على المرصفى ؛ وكتب فى مجلة السفور ذات الطابع التجديدى الصارخ[2] الذى يعتنق المذاهب الأوربية .

هال طه حسين أن يجد بونا شاسعا بين دروس الإمام محمد عبده ، وكتبه من ناحية ودروس بعض شيوخه وكتبهم من ناحية ثانية ؛ فاتجه إلى دار الكتب المصرية منذ انتهاء درس الضحى حتى مغيب الشمس « فاستكشف علم القدماء من العرب وأدبهم حتى صُرفت اليهما عن الأزهر صرفا ، ورأيتنى ثائرا على الأزهر ودروسه ثورة جامحـة[3] ، كما اتجه إلى مكتبة أخيه .

وحين بلغ به الضيق مبلغه التحق — وهو بعد بالأزهر — بالجامعة الأهلية المسائية الناشئة تلك التى ضمت القضاة والأطباء والموظفين والمجاورين فى الأزهر — فساءت علاقته بالأزهر ؛ وازدادت سوءا بما كتبه فيه من نقد شعرى ونثرى فأسقطوه فى امتحان العالمية[4] ؛ لتنتهى مرحلة ضيقه التى استمرت أربعة أعوام أحس أنها أربعون : وضاق فيها بطريقة الدرس ووقته[5] .

---

(١) للتفصيل يرجع إلى عبد الرحمن الرافعى ، مصر المجاهدة فى العصر الحديث ، الحلقة الخامسة حتى نهاية ثورة ١٩١٩ .

(٢) انظر يحيى حقى ، فجر القصة ، ط ١٩٧٥ ص ٧٦ .

(٣) هذا مذهبى ص ٤١ .

(٤) الأيام ج ٣ ص ٤٠١ وما بعدها .

(٥) الأيام ج ٣ ص ٣٩٦ .

وفى الجامعة[1] استمع إلى محاضرات أحمد زكى باشا (١٨٦٦ – ١٩٤٧) فى الحضارة الإسلامية وبدأ يسمع درسا جديدا كما يعبر فى الأيام (٣–٣٨٩) ، كما بدأ يتلقى دروسا على أيدى كثير من أساتذته العرب وغير العرب ممن تصدوا للتدريس بالجامعة ، ومن أساتذته العرب فيها – إلى جانب ماتلقاه عن غير العرب[2] – إسماعيل رأفت الذى يصفه بالعبوس – ويمدحه بأنه عظيم (الأيام ٣/ ٤٥٤) ؛ وقد ألقى دروسا فى تقويم البلدان وهو نفس ما ألقاه فى دار العلوم ؛ ومنهم حفنى ناصف (١٨٦٠ – ١٩١٩) فى دروس الأدب العربى القديم ؛ وكان قد درس شرح (الكافى فى العروض) لطه حسين فى الأزهر ، ولطه حسين حديث عنه وعن مشاركته إياه فى تحكيم مسابقة شعرية (الأيام

---

(١) كن التفكير فى إنشاء كلية جامعة . . وليد الوعى القومى والحركة الوطنية تطلعا إلى إعداد الكفاءات لا مجرد إعداد الموظفين كما أراد الاستعمار . وقد نادى بإنشاء جامعة أهلية كثير من الهيئات والجمعيات والزعماء مثل : "مصطفى كامل"؛ وأحمد لطفى السيد ؛ وأحمد حافظ عوض ؛ وقاسم أمين وغيرهم ؛ كما نادى بإنشائها أعضاء مجلس شورى القوانين ، وطالبوا ذلك من ولى عهد انجلترا أثناء زيارته مصر عام ١٩٠٦ ؛ ومن أوائل من تصدوا للتنفيذ مصطفى كامل الغمراوى الذى دعا إلى التبرع بنى سويف عام ١٩٠٦ . ونشر بذلك نداء فى ٣٠ سبتمبر ١٩٠٦ ، واجتمع وفد فى دار سعد زغلول فى ١٢ من أكتوبر ١٩٠٦ واكتتب الحاضرون مبلغا من المال واختاروا سعد وقاسم أمين وكيلا وسكرتيرا ، ومجموعة ن الأعضاء،ولم تمنعهم محاولات اللورد كرومر المعوقة، وانتهزوا فرصة تولى سعد زغلول وزارة المعارف فواصلوا المطالبة فزادت التبرعات حتى قبل الأمير أحمد فؤاد رياسة الجامعة ، وخطب قاسم أمين مبينا رسالة الجامعة فى ١٥ من إبريل ١٩٠٨ قبل وفاته بأسبوع واحد . ووضع حجر الأساس فى ٣٠ من مارس ١٩١٤ ؛ وأرسلت الجامعة الأهلية أول بعثة عام ١٩٠٨ من أحد عشر عضوا إلى فرنسا ، وانجلترا ، وتحولت إلى جامعة حكومية منذ ١٢من ديسمبر عام ١٩٢٣ . وصدر المرسوم الخاص بإنشائها فى ١١ من مارس ١٩٢٥ وتخرجت أولى دفعاتها عام ١٩٢٩ وتخرجت أولى دفعات البنات عام ١٩٣٣ . (انظر الدكتور حسين النجار : أحمد لطفى السيد من ص ٢٥٧ –٢٨١ وغيرها ، والأيام لطه حسين ج ٣ ؛ ص ٥١٥ وغيرها) .

(٢) من أساتذته من غير العرب أمثال : « سانتلانا » فى دراسة الفلسفة الإسلامية ، ولطه حسين رأى فى دروسه – الأيام (٣/ ٤٦٠) ، و «كارلو ألفونصو نللينو » (١٨٧٢ – ١٩٣٨) الذى دعى ليحاضر فى الجامعة المصرية ، وله مؤلفات منها (تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية) – القاهرة ١٩٥٤ – أنظر حديث طه حسين عن بعض مواقفه بعد الحرب (الأيام ٤٦٢) ؛ ومن أساتذته أيضا ؛ « اجناتوس جويدى » (١٨٤٤ – ١٩٣٥) الذى حاضر فى أدبيات الجغرافيا والتاريخ ؛ ووصفه بأنه شيخ كبير نحيف الصوت – (الأيام ٣ – ٣٩١ ، ٣٩٢) ، ومن أساتذته « الكونت دى جلارذ » ، و « ليتمان » فى السريانية والعبرية ، و « ما سينيون » فى الاصطلاحات الفلسفية ، و « مليونى » فى تاريخ الشرق القديم . إلخ .

٣ / ٤٥٥) ، ومنهج الشيخ محمد بن عفيفى الخضرى (١٨٧٢ — ١٩٢٧) فى دروس التاريخ الإسلامى ؛ ولطه حسين رأى فيه وفى دروسه (الأيام ١ — ٤٥٧) ، ومنهج الشيخ محمد المهدى فى دروس الأدب العربى بعد حفنى ناصف ؛ ويصفه بالضعف ويسخر منه ، وقد نقده فى رسالته للدكتوراه امتدادا لخلاف أدبى بينهما لم يقم فيه الدليل لطه حسين . وقد عاد طه حسين إلى نقده مرة أخرى على صفحات السفور ١٩١٥ بعد عودته من أوربا ، وأحدث ذلك أزمة كادت تتسبب فى إلغاء بعثة طه حسين حتى أصلح بينهما أستاذه وراعيه أحمد لطفى السيد (الأيام ٣/٤٥٧ ، ٦٧٨) .

وحين نطالع حديث الأربعاء[1] نجد حديث الوفاء من التلميذ نحو الأستاذ حتى ليجد فى « فقد الأساتذة شيئا من اليتم كهذا الذى يجده الناس فى فقد الآباء » ؛ ثم يقترب من الحديث المباشر عن الرجل ؛ يقول :

« لم يكن الشيخ مهدى من أنصار القديم ولكنه لم يكن من أنصار الجديد وإنما كان وسطا بين هاتين الطائفتين ، كان يزدرى أنصار القديم ، ويغلو بعض الشئ فى ازدرائهم ، وكان يراهم خطراً على الرقى العقلى وعلى الحياة الصالحة ، كما أنه لم يكن يحب المغالاة من أنصار الجديد ؛ بل كان يتبرم بهم كثيراً ويراهم خطرا على الحياة الاجتماعية والدينية بنوع خاص ، كان شديد الإعجاب بالأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وبعض تلاميذه ، بل كان إعجابه هذا لا حد له » .

ويرى طه حسين أن هذا الإعجاب الشديد كان سبباً من أسباب قصور الشيخ ؛ إذ رأى ما وصل إليه الشيخ محمد عبده مثلا أعلى وما عداه إما جمود أو وثبُ خطر ؛ مما جعله يطمئن إلى ما بلغ من رقى لايتعداه فجمد فى نظر تلاميذه ومنهم طه حسين ، مما جعلهم يضحكون فى غيبته عطفا عليه وحبا له .

ويذكر التلميذ إنه كان أثقل التلاميذ عليه فى الجامعة يناقشه ويغاضبه فى الدروس ويحبه حبا جما .

كما يذكر التلميذ أنه بعد أن انتهى من درس أبى العلاء ظفر بالدليل الذى يرد به على أستاذه ، ودار بين الأستاذ الممتحن والطالب الممتحَن جدل عنيف تمكن الأستاذ — فى نهايته — من منحه تقدير « جيد جدا

---

(١) دار المعارف ط ٩ (١ / ٤٠ — ٤٦) — وانظر تفصيل نقده إياه بعد عودته من فرنسا ، « ص ٤٤ ، ٤٥ .

بدلا من « فائق » . . ومن أساتذته الشيخ طنطاوى جوهرى الذى كان يدعو إلى الاهتمام بدراسة العلوم التطبيقية[1] . ويدفع عن دارسيها تهمة الإلحاد . وقد تولى التدريس بالجامعة بعد الأستاذ سلطان الذى وصفه طه حسين بأنه كان رجلا فكها : يحرص على انتقاء ألفاظ كلها حول البهاء والجمال والروعة (الأيام ١/٤٥٤ — ٤٥٧) : ومن أساتذته أحمد كامل باشا فى الحضارة المصرية القديمة . على أن تأثره بأساتذته قد يكون إيجابا « أو سلبا » بمعنى أن ميزات الأستاذ قد تدفعه إلى العمل على اكتسابها كما أن سلبيات الأستاذ قد تدفعه إلى نقدها وتجنبها . . كل ذلك فى سبيل بحثه عن تحقيق « التوازن الصحيح » : الذى هو بديل الاضطراب والخلط فى مرحلة صباه يبدو ذلك فى بحثه العميق عن العلاقة الدقيقة بين التجديد والتقليد : بين التحرر والجمود فى حديثه وخواطره وذكرياته عن أساتذته كما أسلفنا فيما أوجزنا نقله عنه من حديث عنهم .

سارع طه حسين إلى تعلم الفرنسية[2] ليتمكن من متابعة محاضرات الأساتذة الغربيين والمستشرقين : وفى ١٥ من مايو ١٩١٤ تقدم برسالة[3] عن أبى العلاء المعرى لنيل درجة الدكتوراه : ونوقش فيها : وفى علمين اختارهما هما الجغرافيا عند العرب ، والروح الدينية للخوارج ، وحصل على الدكتوراه بتقدير جيد جدا وبدرجة فائق فى العلمين : وقبل سفره إلى فرنسا ، قام بالتدريس فى الجامعة .

---

(١) الدكتور محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر . بيروت ط ٣ . ١٩٧٢ - ١٠/ ٣٥٩ .

(٢) تلقن أصولها فى مدرسة ليلية بحى الأزهر ، أسهم فى إنشائها جاويش كما يذكر طه حسين ويؤكد فتحى رضوان (الثقافة ديسمبر ٧٣ ص ٨) ، وحين لم يجد فى المدرسة ما يبغى استعان بزميل قديم له فى الكتاب اسمه محمود سليمان الذى أتقنها فى مدارس الفرير وقرأ معه قصة كانديد لفولتير كما استعان بأستاذ آخر (الأيام ج ٣ ص ٤٦٧ ، ٤٧٢) . وبدأ جاويش يلقى فى وهمه فكرة السفر إلى فرنسا فبات يحلم بها .

(٣) أنظر تقرير اللجنة الممتحنة ، وخطابها للخديو ومقابلة الدكتور طه حسين الخديو وموافقته على سفره إلى فرنسا (سامى الكيالى « مع طه حسين » ج ١ ص ١٩ ، ٢٢ والأيام وغيرها) وقد صدرت فى كتاب له عام ١٩١٥ بعنوان تجديد ذكرى أبى العلاء ، ويتحدث عن إعداد هذه الرسالة وطبعها ومساعدة أصدقائه إياه فى ذلك ومقابلة الخديو ومن قبله أحمد لطفى السيد ، وتشجيعهما إياه وكذا عاوى باشا (١٨٤٧ — ١٩١٨) ومنحه مبلغا من المال واصطحابه إلى الخديو وتشجيعه الدائم له (الأيام ج ٣ ص ٤٨٧ ، ٤٩٦ ، ٥٠٢) .

(٤) الأيام ج ٣ ص ٥١٥ ؛ وقد أرسل مدير الجامعة الأمير أحمد فؤاد بشأن السفر حتى علق سفره بالدكتوراه . انظر الرسائل : الأيام ج ٣ ص ٤٧٤ — ٤٨١ ، ٥١٠ .

هناك إشارتان عن أبي العلاء ، وابن خلدون في الأيام (١ / ٢٠ : ٩٨) وفيهما نرى إحساسا باكرا لديه بهذين الرجلين وحبه لأبي العلاء يبدو في وجوه عديدة بعد هذه الإشارة في الأيام ، فقد قرأ لزومياته وصاغها للناس بأسلوبه العذب في كتاب (صوت أبي العلاء)[1] مدافعا إنكار من ينكر « ترجمة العربية إلى العربية » ، كذلك قراءته رسالة الغفران ، وإعداده رسالة الدكتوراه عنه ، ويصدر عنه : ذكرى أبي العلاء ١٩١٥ ، وأصبح يحمل اسم تجديد ذكرى أبي العلاء ، ويصدر مع أبي العلاء في سجنه ، مسجلا خواطر دارت في ذهنه في رحلة صيفية له بمدينة نابولي ويعاود الحديث عنه في (فصول في الأدب والنقد) وفي أماكن أخرى من أعماله[2].

وقد انتهى إلى أن أبا العلاء كان ثمرة من ثمرات عصره قد عمل في إنضاجها الزمان والمكان والحال السياسية والاجتماعية والحال الاقتصادية والدينية ؛ إذ يرى أن (الحادثة التاريخية ، والقصيدة الشعرية ، والخطبة يجيدها الخطيب كل أولئك نسيج من العلل الاجتماعية والكونية يخضع للبحث والتحليل خضوع المادة لمعمل الكيمياء). وكان بحثه عن أبي العلاء مثلا للمنهج الذي آمن به طه حسين حيث ربط بين الأدب وما يحيط به من سياسة واجتماع واقتصاد ودين ؛ والإفادة من علوم تساعد الدرس الأدبي مما أشار به « سانت بيف » (١٨٠٤–١٨٦٩) وتين (١٨٢٨ – ١٨٩٣) . وبرونتيير (١٨٤٩ – ١٩٠٦) . وقد يأخذ البعض على هذه الرسالة الإطالة والعناية الزائدة بالعصر .

وحين قرأ طه حسين ما كتبه العقاد عن أبي العلاء لم يوافقه على تجنب الحديث في صدق إسلام أبي العلاء تحرجا ؛ ورأى إيراد الحقائق وإيثار العلم والتاريخ على كل شيء .

لقد كان حبه لأبي العلاء المعرى قديما فغذاه ونماه حتى أينع في رسالة للدكتوراه عنه بمصر ، وكان إعجابه بابن خلدون قديما حتى ترعرع في رسالة للدكتوراه

---

(١) اقرأ – ٢٣ – مارس ١٩٥٥ .

(٢) منها : هذا مذهبي ، ص ٤٠ .

عنه بالسربون بفرنسا[1] عن فلسفة ابن خلدون الاجتماعية . وكتبها بالفرنسية عام ١٩١٧[2] .

وقد لانتفق مع من يذهب إلى بدء الثورة المنهجية عند طه حسين بعد عودته من فرنسا؛ فالحق أن منهج التفكير الأدبى عند طه حسين مدين فى وجوده ، وبواعثه ، ومكوناته إلى مرحلة ما قبل سفره إلى السربون ، وهذا لا يعنى التغاضى عن المؤثرات الأجنبية التى نؤمن أشد الإيمان بتفاعلها عبر العصور وفى شتى اللغات . وفى كل مكان ، كما كما لا يعنى أنه لم يحصّل فوائد ضخمة وتقدما علميا كبيرا ، وتفتحا ذهنيا ضخما بما يكون رصيدا هائلا من المعرفة أثناء سفره ودراسته بالخارج ، بل نضيف تأثره بالثقافة اليونانية والرومانية ، لكن الذى نود أن نشير إليه — بل نؤكده —

---

(١) هناك أيضا درس اللغة اللاتينية ، والأدب اليونانى ، وأتقن الفرنسية على مدى عامين ، وتلقى العلم فى أربعة معاهد — كما يقول هو :

• السربون حيث درس التاريخ القديم : اليونانى على جاونز ، والرومانى على بلوك ، الأدب الفرنسى على لانسون ، والفلسفة والاجتماع على دوركايم ، وديكارت على ليفى برول، واللاتينى على مارتا ، والثورة على أولار ، والبيزنطى على شارل ديل ، والتاريخ الحديث على سينيوس ، والجغرافيا على ديمانجون وجالوا .

• والكوليج دى فرانس حيث درس تفسير القرآن بالعربية على كازانوف ، وعلم النفس على بيرجانيه .

• ومكتبة القديس جنيفيا حيث كانت تصحبه الآنسة سوزان التى كانت تدرس بمدرسة المعلمات بسيفر وساعدته كسكرتيرة لتصبح زوجته فيما بعد ، وانظر حديثه عن تزوجه بها بعد نزوله على أسرتها ومساندة أحمد لطفى السيد إياه فى ذلك (الأيام ٣/ ٥٧٣ — ٦٢٥) ، وانظر عباس خضر ، غرام الأدباء ، اقرأ ١٥٧ ؛ ص ٥ ، وسامى الكيالى مع طه حسين (١/ ٣٠— ٣٦) .

• أما المعهد الرابع — كما يذكر — فهو البيت الذى يسكنه عند أسرة فتاته حيث تشغل اجتماعاتهم قراءة الروايات الأدبية ، حيث إنتاج القرن الماضى وأعمال أناتول فرانس ، وبورجيه ، وبريفو (سامى الكيالى ، مع طه حسين ١/ ٢٥ ، ٢٦) .

وقد أشرف على رسالته « دور كهايم » ، و « سلفان بوجليه » .

(٢) ترجمها إلى العربية محمد عبد الله عنان سنة ١٩٢٥ وقد حصل عليها بمرتبة الشرف الممتازة مع تهنئة اللجنة ، على يد المستشرق الفرنسى كازانوفا ، وكان دور كايم مشرفا فلسفيا عليها ، وخلفه بعد وفاته بوجليه : الأيام ج٣ ص ٦٠٩ ، و ٦٢١ .

أن مكونات طه حسين ، مما يمكن أن نقف عليه فى الصفحات السابقة ، ومما لم نذكره اكتفاء بشهرته ، هى التى صاغت القدرة العلمية لديه ، تلك التى صقلتها المعرفة المتنوعة فى الآداب الأخرى أثناء سفره .

لقد تقدمت إشارتنا عن حديثه الباكر عن أبى العلاء وربطه بين ذلك وبين حادثة الطعام المشهورة فى حياته مما جعله يقول فى الأيام (١ / ٢٠) :

« هذه الحادثة أعانته على أن يفهم حقا ما يتحدث به الرواة عن أبى العلاء من أنه أكل ذات يوم دبسا . . . . الخ » .

كما تقدم حديثنا عن تلقيه العلم وطرق التفكير عن أعلام تعددت مشاربهم ومناهجهم ، ومستوياتهم ، ومواقفهم من الحرية والجمود ، التقليد والتجديد فى الريف ، وفى الأزهر ، وفى الحياة العامة ، وفى الجامعة ، وفى مصادر التراث العربى ، وعن هؤلاء أخذ طه حسين طريقه وتلمّس أو جدّد منهجه فى التفكير .

إن أساس منهج البحث الأدبى (١) عند طه حسين نابع من « عقلانية » تكونت لديه ، ولا يخفى استنباط مصادرها العربية فيما أفضنا فيه من حديث عن أساتذته . وهذه العقلانية هى التى قاربت بينه وبين ديكارت فى منهج الشك الذى شرحه فى رسالته (أصول ترشيد العقل) ، والذى أرجع الباحثون أسس منهج طه حسين إليها ، صحيح أننا لا نلغى وجود هذا المنهج لديه ، ولا ننكر إعجابه الشديد به ، وتطبيقه إياه ، وحديثه عنه فى مقدمة (الأدب الجاهلى) وتطبيقه فى درس (الشعر الجاهلى) ، ودراسته التفصيلية بفرنسا على يد « ليفى برول » وغيره ، لكننا نريد أن نقول إن « عقلانية » طه حسين استقرت فى منهجه قبل سفره ، والدليل على ذلك إنجازه بحث أبى العلاء سنة ١٩١٤ بطريقته العلمية مؤمنا بالمنهج العقلانى الذى يؤكد وجود الأفكار فى عقل الإنسان ، وكان هذا المنهج من المناهج الفكرية التى سادت فى أوربا خلال القرن السابع عشر على أيدى « ديكارت » وسبينوزا ، ولا يبنتز » ، وفى القرن الثامن عشر على أيدى « كانت ، وهيجل » وغيرهما . وهم فى ذلك يرون أن المنطق الفكرى هو الطريقة الوحيدة للبحث عن الحقيقة لأنه يستطيع أن يتجرد من كل الأهواء الذاتية

---

(١) انظر الدكتور شوقى ضيف : البحث الأدبى — طبيعته — مناهجه — أصوله — مصادره — دار المعارف ١٩٧٢ ص ٢٥١ — ٢٥٧ ؛ انظر مقال الدكتور شوقى بالهلال — فبراير ١٩٦٦ عن جهود طه حسين ومقال درينى خشبه ، بالمجلة الجديدة — أول إبريل ١٩٣١ ص ٦٨٩ (البحث العلمى وتصديب الأدب والتاريخ منه) .

التى تحدد وجود الإنسان بحدود ذاته ، والحقيقة الموضوعية ذاتها تملك — فى جوهرها — نظاما عقلانيا يمكن العقل البشرى من إدراكها . أو بمعنى آخر فان إدراك العقل البشرى لمنطق الحقيقة يقيم نظاما منطقيا يستمد فهمه لها من طبيعتها بصرف النظر عن الاعتبارات الخارجية . لذا يجرد المفكر عقله من الشوائب حتى لا تفسد الموضوعية لديه .

لقد أخذ طه حسين عن محمد عبده ولطفى السيد الكثير ، ومنه هذه العقلانية ، وبخاصة على صفحات (الجريدة) ، لقد تجلى المنهج العقلانى فى رسالته عن أبى العلاء سنة ١٩١٤ أى قبل سفره إلى فرنسا ، بل إنه ليختلف مع « ديكارت » بعض الاختلاف فى إيمان ديكارت بالقدرة المطلقة للعقل البشرى فى فهم قوانين الكون ، ويرى فى كتابه (مع أبى العلاء فى سجنه) أن العقل ليس هو سلاحه الوحيد بل هو أهم الأسلحة .

لسنا بذلك نذهب إلى إلغاء الأثر الديكارتى فى طه حسين ، ولسنا بذلك نتغاضى عن تطبيقاته وإعجابه ، بل نؤكد الأثر الذى تركه أساتذته العرب المعاصرون فيه . كما سنرى أثر أساتذته العرب القدامى فيه بعد قليل .

ويعود الدكتور طه حسين إلى مصر بتأثراته العالمية بعلماء الغرب ، وبالعلمين اللذين كانا موطن رسالتيه الجامعيتين « أبى العلاء » ، وابن خلدون » ، وتأثراته بمفكرى الإسلام ، ومفكرى مصر وخاصة الشيخ محمد عبده ، والشيخ سيد بن على المرصفى ، وأحمد لطفى السيد أستاذ الجيل ، والشيخ عبد العزيز جاويش إلى جانب أساتذته الآخرين ، هذا ولا يغيب على من يبحث منهج البحث الأدبى عند الدكتور طه حسين مراعاة المرحلة الزمنية التى مرّ بها هو وأبناء جيله ، بل ومن سبقه ومَنْ تلاه من أجيال حيث امتزجت الأفكار والمبادئ بروح مثالية نتيجة قراءات قديمة وحديثة ، وخاصة ما وفد عن طريق الحضارة الغربية . ومن هنا يأتى تفسير وقوف هذه الأجيال فى وجه بعض ما تعارف عليه المجتمع فى شتى ضروب الحياة ، وإن لم يكن هذا الموقف فى صورة التغير الجذرى ، حيث لجئوا إلى دعوات الإصلاح ، وإلى مناصرة الدعوات التجديدية الحديثة ، والإعجاب بمظاهرها ؛ كذلك الإعجاب الذى أحاط بمىّ زيادة فى مجتمع لم تكن المرأة فيه قد تمتعت بكل ما نادى به قاسم أمين وأتباعه ، ويزداد هذا الإعجاب بما يرونه من تقدم وأخذ بأساليب الحضارة فى مواطن دراساتهم وأسفارهم بالخارج ؛ وخاصة فى إنجلترا وفرنسا ، مما أوجد تنافسا بين هاتين الثقافتين ، وتحاورا بين تلاميذهما بلغ حد المعارك الفكرية ، وشارك فيه مَنْ لم ينتم إلى أى من هاتين الثقافتين . ويتصل

بهذا ما خاضه الدكتور طه حسين من معارك .

بل إننا لا نملك إلا أن نسلم بما يلحظه الباحثون[1] من تأثر طه حسين بطريقة أحمد ضيف : إذ حلّ طه حسين محله فى التدريس بالجامعة بعد أن صارت حكومية سنة ١٩٢٥ وتولّى من بعده تدريس الأدب العربى فقدّم للطلاب (فى الشعر الجاهلى) الذى طُبع سنة ١٩٢٦ كما سنرى بعد قليل . فقد سبقه إلى الطرق الحديثة أحمد ضيف ودعا إلى طريقة سماها (الطريقة النقدية) كتلك التى سماها طه حسين (المقياس الأدبى) ، كما أشار ضيف للشكّ عند المستشرقين قبل طه حسين[2] . ولم يمض فى حديثه مثله كما سبقه مصطفى صادق الرافعى فى (تاريخ آداب العرب) سنة ١٩١١ (ص ٣٦٥ — ٣٨٥) .

وغنىّ عن البيان الوقوف على مصدر هذه القضية عند طه حسين ، ولن نضيف جديدا حين نشير إلى سبق « مارجليوث » فى بحث قضية الشك فى الشعر الجاهلى ، وإلى محاضرات « جويدى » بالجامعة الأهلية سنة ١٩٠٨ حول الأحرف السبعة فى القرآن الكريم ، وحديثه عن مخالفة اللغة الحميرية لغة قريش ، وإلى محاضرات « ماسينيون » وكازانوف وغيرهما . بل لا ننكر ما اكتسبه طه حسين من منهجية وسعة أفق خلال دراساته ومطالعاته فى مرحلة دراسته فى باريس .

لكن الذى يهمنا هو الأثر العربى عند طه حسين ، فلقد ناقش الرافعى القضية سنة ١٩١١ فى كتابه (تاريخ آداب العرب) كما أن طه حسين انشغل — بفعل التأثرات العربية أولا والأجنبية ثانيا — بقضية تحقيق النصوص التراثية من قبل عهد كتابه (فى الشعر الجاهلى) الصادر سنة ١٩٢٦ ؛ فدافعها عن كثب ، ففى عام ١٩١٥ كتب طه حسين سلسلة من المقالات عنوانها (إلى الآنسة صبح) نشرها بمجلة (السفور) متحدثا عما يراه من منهج صحيح فى البحث الأدبى ، ويذهب إلى أن « الخنساء » ليست شخصية تاريخية ، وأن أخبارها دُوِّنَتْ بعد

---

(١) الدكتور أحمد هيكل ، الثقافة ، ديسمبر ١٩٧٣ ص ٦٠ ؛ وانظر كذلك (مقدمة الدراسة بلاغة العرب) سنة ١٩٢١ لأحمد ضيف ص ٨ وما بعدها وص ١١٥ وما بعدها ؛ و ١٤٣ وما بعدها ، ولطه حسين (فى الأدب الجاهلى) ص ٣٩ — ٤٥ ، وقد طبع كتاب أحمد ضيف قبل كتاب طه حسين ؛ وأذيع فى الطلاب قبل ذيوع رأى طه حسين .

(٢) عند أحمد ضيف ص ٥٠ وما بعدها ، وعند طه حسين ص ٦٣ وما بعدها .

مُضيّ أكثر من قرن على وفاتها[1] وأنها شخص يبحث عنه علم ما قبل التاريخ .

ولسنا – بطبيعة الحال – في مقام عرض قضية الشك في الشعر الجاهلي . واستخدام طه حسين المنهج الديكارتي[2] في بحثها . ولكننا نود أن نشير إلى التأثير العربي فيه بتذكر من سبقه من معاصريه . وبتذكر إشارته الباكرة سنة ١٩١٥ عن تشككه في شعر الخنساء .

ومن القدماء سبقه إلى قضية الانتحال ابن سلام الجمحي (ت ٢٣٢هـ) في كتابه (طبقات فحول الشعراء الجاهليين والإسلاميين[3] وقد رجع إليه طه حسين رجوعا مباشرا وأشار إلى ذلك كل مَنْ تناولوا كتاب (في الشعر الجاهلي) لطه حسين ، وفنّدُوا آراءه. ولعلّ أوفاهم في هذا المجال محمد أحمد الغمراوي في كتابه (النقد التحليلي) الذي أخذ يبين المواطن التي وقع عليها طه حسين في كتاب ابن سلام بالصفحات والنصوص.

وقد تيسّر للغمراوي قدرٌ من العلمية أكثر من غيره ممن ردوا على طه حسين ؛ إذ تمهّل في الرد حتى سنة ١٩٢٩ ، وجاء نقده الكتاب بطبعتيه : الأولى والثانية.

---

(١) المنشور من ١٢ / ١ / ١٩١٥ – ١٩ / ١١ / ١٩١٥ ، وانظر الدكتور محمد أبو الأنوار (من قضايا الأدب الجاهلي) مكتبة الشباب ١٩٧٦ ص ١٢١ ، وما بعدها ؛ والهلال – أغسطس ١٩٧٣ – الخنساء عاشقة المجد .

(٢) شرح هذا المنهج وطبقه في كتابه « في الأدب الجاهلي » سنة ١٩٢٧ (ط ٣، مطبعة فاروق ١٩٣٣ ص ٥ وغيرها) ، وهي طبعة معدلة للطبعة الأولى التي صدرت عام ١٩٢٦ باسم « في الشعر الجاهلي » ، فأحدثت أثرا كبيرا في مناهج البحث الأدبي ، وتناولها الكثيرون بالرد منهم : مصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠ – ١٩٣٧) في « تحت راية القرآن » ١٩٢٦ ، ومحمد فريد وجدي (١٨٧٨ – ١٩٥٤) في « نقد الشعر الجاهلي » ، ومحمد لطفي جمعة (ت ١٩٥٣) في « الشهاب الراصد » ، ومحمد الخضر حسين (١٨٧٧ – ١٩٥٨) في « نقض كتاب الشعر الجاهلي » ، ومحمد أحمد الغمراوي في « النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي » : مع مقدمة للأمير شكيب أرسلان (١٨٦٩ – ١٩٤٦) ؛ وكذلك إبراهيم عبد القادر المازني (١٨٨٩ – ١٩٤٩) في كتابه « قبض الريح » عام ١٩٢٧ ؛ والدكتور ناصر الدين الأسد : « مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية – دار المعارف ١٩٥٦ ؛ والدكتور شوقي ضيف ، « العصر الجاهلي » ؛ دار المعارف ط ٦ ص ١٦٤ .

(٣) تحقيق محمود محمد شاكر ، دار المعارف ، وانظر النصوص ص ٥ – ٦ ؛ و٨ ، وانظر الدكتور محمد مندور ؛ « النقد المنهجي عند العرب » ، نهضة مصر ١٩٧٢ ص ١٩ ، والدكتور محمد زغلول سلام . « تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري » ؛ دار المعارف ١٩٦٤ في حديثه عن ابن سلام ص ٩٦ – ١٠١ .

وقد ناقش الغمراوى المنهج العلمى لطه حسين وصلته بمنهج ديكارت ، وخطأ تطبيقه ، وملاحظاته على الشك والحدس عنده ، وتجاوز حجم الكتاب ثلاثمائة صفحة.

بل نضيف أن طه حسين مسبوق بإشارة المفضل الضبى (ت ١٨٩ هـ) ، وحديثه عن حماد (ت ١٥٥ هـ ، وحديث أبى الفرج الأصفهانى عن خلف الأحمر (ت ١٨١هـ) وقيام كل منهما بالوضع ، كما أنه مسبوق بحديث ابن هشام (ت ٢١٨ هـ) فى السيرة.

ويغنينا ذلك عن إيراد النصوص ، وعقد الموازنات ، وذكر الصفحات لنصل فى النهاية إلى أن المصدر الرئيسى للفكرة هو محمد بن سلام الجمحى ، وليست فكرة تطبيق منهج الشك الديكارتى الذى يمكن أن يكون منهجا عاما فى التفكير ، كما يصلح أن يكون منهجا لبحث أية قضية أو أية مشكلة.

وبذلك يمكن القول إن مصادر طه حسين فى هذه القضية — أساسا — عربية ؛ وأنها استثيرت لديه من بحوث العرب ، ومناقشاتهم ثم أخذت مجراها الحاد والزاعق بتأثر بـ « نولدكه » و « مرجليوث[1] » وغيرهما من المستشرقين ثم أخرجت إخراجا علميا بمدخل الشك الديكارتى ، أما حقيقة الأمر فإن طه حسين مدين — فى هذه القضية — لابن سلام[2]

(١) أنظر تاريخ الأدب العربى » بلاشير ١ — ١٧٦ وما بعدها ، وانظر الدكتور شوقى ضيف : العصر الجاهلى » ، دار المعارف ط ٦ ص ١٦٤ وما بعدها ، وقد بدأها « نولدكه » سنة ١٨٦٤ ، و آلورد » ، و « موير » ، و « باسيه » ، و بروكلمان ، وقد رد شارل جيمس ليال على مارجليوث فى مقدمة المفضليات سنة ١٩١٨ ج ٢ .

ونشر مارجليوث مقالا بمجلة الجمعية الملكية الأسيوية سنة ١٩١٦ ثم فى يوليو ١٩٢٥ فى بحث عنوانه أصول الشعر العربى)

The origins of Arabic poetry
Journal of the Royal Asiatic Society 414 - 419

وما نشره فى معلمة الدين والأخلاق مادة محمد مج ٨ ص ٨٧٤ ؛ وفى محمد وظهور الإسلام ١٩٠٥ ص ٦٠ .

Mohammad and the Rise of Islam.

(٢) يقول فى كتابه (طبقات فحول الشعراء) : « وفى الشعر المسموع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه ولا حجة فى عربيته ؛ ولا أدب يستفاد ولا معنى يستخرج ، ولا مثل يضرب ؛ وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب لم يأخذوه من أهل البادية ، ولم يعرضوه على العلماء ، وليس لأحد إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال (شىء منه) — أن يقبل من صحيفة ولا يروى عن صحفى) : « طبقات فحول الشعراء » ص ٥ و٦ تحقيق محمود شاكر — دار المعارف ١٩٥٢

أولا ؛ كما تفصح الصفحات والنصوص ثم إلى متن سبقة من الباحثين العرب ؛ ثم إلى المستشرقين .

وأهم ما نراه فى هذه المسألة أنها نابعة من حرية التفكير لديه وهى ركن من أركان الثالوث الذى تحدثنا عنه . والذى تلقاه عن أستاذيه محمد عبده ، ولطفى السيد ؛ هذه الحرية فى البحث هى التى دفعت العقاد إلى أن يتصدى للدفاع عن طه حسين حين اشتعلت نار معركة (فى الشعر الجاهلى) سنة ١٩٢٦ واشتد أوارها ، وحوكم الكتاب والمؤلف ؛ وانشغل الرأى العام ، وطالب البعض بإبعاد المؤلف عن الجامعة لأنه مس الدين الحنيف ؛ ووافق الكثيرون على ذلك ؛ وتصدى العقاد (١) مدافعا عن حرية الفكر والبحث العلمى .

ويصح — فى نظرنا — أن نقول إن صدى الأصول العربية فى منهج البحث الأدبى عند طه حسين أخذت أطوارا من البحث ؛ واتسم كل طور باهتمام ما ؛ واتضح اقتراب طه حسين من نقطة « التوازن الصحيح » بين عنصرى الاستقرار والتطور التى شغلته كثيرا .

فكان الطور الأول : هو : (طور بحثه فى أبى العلاء) ، وكم تحاور — وهو بعد طالب بالجامعة الأهلية — مع أستاذه الشيخ المهدى كما حدثنا فى (حديث الأربعاء) وكم ربط بين كف بصره وكف بصر أبى العلاء كما حدثنا فى أيامه .

وكان الطور الثانى . هو : (طور بحثه فى ابن خلدون) ؛ وقد أحس به كما أشار فى الأيام أيضا . وأحس به فى نظرته للتطور الحضارى .

وكان الطور الثالث ؛ هو : (طور قضية الشك أو الانتحال فى الشعر الجاهلى) .

ثم كان الطور الرابع : وهو ممتد طويل فى (معاركه وقضاياه) التى لا تكاد تحصر (٢) .

وفى ذلك كله نرى تناقض ما تلقاه طه حسين ، ومحاولته الجادة فى المواءمة بين ما تلقى من ناحية ؛ ولإرضاء نفسيته . وقد كان « طُلَعَة » كما حدثنا . مما يجعلنا نتذكر كلمته القديمة التى صدرنا بها بحثنا :

« وكان صبينا يختلف بين هؤلاء العلماء جميعا ، ويأخذ عنهم جميعا ، حتى اجتمع له من ذلك مقدار من العلم ضخم مختلف مضطرب متناقض . ما أحسب إلا أنه عمل

---

(١) هلال إبريل ١٩٦٧ ص ١٠) .

(٢) منها — على سبيل المثال — معركته مع مصطفى لطفى المنفلوطى ؛ ومع مصطفى صادق الرافعى ؛ ومحمد حسين هيكل . وزكى مبارك ، والعقاد ، والشيخ رشيد رضا . . . إلخ .

عملا غير قليل فى تكوين عقله الذى لم يخل من اضطراب واختلاف وتناقض[1] .

غير أن الأمر يختلف فى صدر حياته عنه بعد نضجه واستحصاد عوده ، إذ يكون الأمر هنا بمثابة تصحيح للمنهج ، ومراجعة للنفس ، ومن هنا كان له أن يحذف فصولا ويضيف أخرى ، لينتقل من أحكام (الشعر الجاهلى) إلى أحكام (الأدب الجاهلى) . وكان له أن يمد يديه إلى أحمد أمين ، وعبد الحميد العبادى ليكتب معهما فى ميدان الدراسات الإسلامية مطبقا منهجه الأدبى فى أبى العلاء فيدرس نحو قرن من تاريخ الإسلام ، وليسهم بمجمع اللغة العربية منذ دخله فى نوفمبر ١٩٤٠ حتى لقى ربه سنة ١٩٧٣ ، دخله فى زمرة من كبار الخالدين أمثال : لطفى السيد ، وعبد العزيز فهمى ، ومصطفى المراغى ، ومصطفى عبد الرازق ، وهيكل ، وعلى إبراهيم ، والعقاد ، وأحمد أمين ، وعبد القادر حمزة[2] .

وكان له أن يوجه الناس إلى الأدب القديم ويحببه إليهم ، كما تنطق كتبه بهذا .

ولعل فى مقالاته المتتابعة أسبوعيا ما يؤكد هذه الحقيقة كما نرى فى مقالات (حديث الأربعاء) حول الشعر الجاهلى ، والإسلامى والأموى ، والعباسى ، والأدب الحديث ومناقشاته المتعددة حول المواجهة بين القديم والجديد ، والوساطة بينهما ، ونقده اختصار كتب التراث ، واعتبار ذلك « مسخا » للتراث ، كما نرى فى نقده (مهذب الأغانى) لمحمد الخضرى ، واعتبار ذلك عدوانا على التراث[3] .

كما كان على صلة وثيقة بالحركة الفكرية والأدبية بمصر عامة وبالجامعة خاصة ، وكان بالجامعة نموذجان للتأليف الأدبى : أحدهما عربى على يد حفنى ناصف والرافعى ، والآخر للمستشرق كارلو نالينو ، ثم ظهر كتاب جورجى زيدان (تاريخ آداب اللغة العربية) وكتاب أحمد الإسكندرى (تاريخ آداب العرب) ، ودار النقاش على صفحات (الجريدة) حول انتداب مستشرق لدراسة الأدب العربى بالجامعة وكتب طه حسين[4]

---

(١) الأيام ج ١ - الفصل الرابع ، الفقرة الأخيرة .

(٢) انظر : هلال ، ٢ إبريل ١٩٧٥ . الدكتور إبراهيم بيومى مذكور ص ٣٠ .

(٣) انظر حديث الأربعاء ٣ / ٥٨ ، ونقده لتهذيب الكامل للسباعى بيومى ، ويؤثر الوسطية بين القديم والحديث .

(٤) ٦ مايو ١٩١١ .

مادحا منهجي ناصف ونلمينو . ونقد كتاب الرافعي ، وتوالت مقالاته (نحن والرافعي)[1]

وكان له أن يتحدث عن الروح الجامعي «المرتفع فوق كل الفروق» ، ليميز الإنسان عن كل حي » ، هذا الروح :

«هو حب الحق والبحث عنه ، هو الرغبة في المعرفة ، والحرص عليها ، هو الإقبال على العلم من حيث هو ، لا من حيث ماقد ينتج من الخير»[2] .

وبذلك نرى أن أخذه بوسائل التفاعل مع الآداب والمناهج العالمية لم يقطعه عن التأثر المباشر بمصادره العربية في تراثنا البعيد، وفي حياتنا الثقافية المعاصرة كما تجلى في آرائه وتفكيره ، بل منهج حياته .

ولذلك صلة وثقى بنظرته للعلاقة بين القديم والجديد ، يقول :

« فما دامت هناك حياة فهناك قديم وجديد وجهاد بين القديم والجديد ، وأنصار للقديم وأنصار للجديد »

والسياق الذى قدم فيه قولته تلك كان معرض رده على الرافعي بمناسبة رسالة كتبها الرافعي عنوانها في العتب ، وقد استأثر الرد بأكثر من ثلاثين صفحة من حديث الأربعاء . وانتهزها طه حسين فرصة مناقشة قضية القديم والجديد ؛ ولأن أساس الخلاف بين موقفه وموقف الرافعي حول هذه الرسالة هو اللغة : رأى أن تكون هي تفسير العلاقة بين القديم والجديد متسائلا : لمن اللغة ومن واضعها ؟ ومن الذى ينتفع بها ؟ .

يقول : « ولكننا نعلم أن اللغة ليست من وحى السماء ، وإنما هى ظاهرة من ظواهر الاجتماع الإنسانى : لم يضعها فرد بعينه ولا جماعة بعينها ، وإنما اشتركت فى وضعها الأمة التى تتكلمها دون أن تعلم متى وضعتها ودون أن تستطيع أن تعين لكل فرد من أفرادها أو جماعة من جماعاتها حظا من ألفاظها وأساليبها » .

ثم يراعى اختلاف حظوظ الأفراد من العقل والرقى ، واختلاف لغة العالم عن

---

(٤) إبريل ١٩١٢ ثم ١٣ ، ١٨ ، ٢٠ من يناير ١٩١٣ ؛ انظر الدكتور عبد اللطيف حمزة ، أدب المقالة الصحفية ٦ / ١٦٤ وما بعدها ، و١٧٤ وما بعدها .

(١) هلال — ج ٤ م ٤٦ سنة ١٩٣٨ ص ٢٦١ .

(٣) حديث الأربعاء ٣/٣١.

عامة الناس . وحين يتصور أن هناك من يترجس من إصابة اللغة بعدم الثبات والاستقرار يقول :

« وإذا ففي كل شيء من هذه الأشياء الاجتماعية عنصران مختلفان لاقوام لأحدهما بدون الآخر : أحدهما عنصر الاستقرار ، والآخر عنصر التطور . وقوام الحياة الصالحة لأمة من الأمم أو مظهر من مظاهرها الاجتماعي إنما هو التوازن الصحيح بين هذين العنصرين ، فإذا تغلب عنصر الاستقرار فالأمة منحطة ، وإذا تغلب عنصر التطور فالأمة ثائرة والثورة عرض والانحطاط عرض ، كلاهما يزول ليقوم مقامه النظام المستقر على اعتدال هذين العنصرين . في اللغة إذن قديم لابد منه إذا أردنا أن تبقى اللغة ، وفيها جديد لابد منه إذا أردنا أن تحيا ، وأنصار الجديد في اللغة والأدب لايريدون إلا هذا النوع من الحياة »[1] .

انظر إلى حكمه على التمادي في الاستقرار والثبات وجعله انحطاطاً عارضا سوف يزول .

وحكمه على الاندفاع في التطور وجعله ثورة عارضة سوف تزول .

ثم انظر إليه كيف يخلص من عيبي : الانحطاط والثورة إلى منهج « التوازن الصحيح بين هذين العنصرين » أو « الاعتدال » بينهما .

إن هذا التوازن وهذا الاعتدال هو الذي جعله يقف من أحد أساتذته[2] موقفين حاول فيهما تحقيق نوع من التوازن الصحيح بين قديم يفرط في الجمود . وتطور يجمع في الثورة .

يروي لنا الموقف الأول قائلا :

« عندما كنت أضع كتاب أبي العلاء وأتقدم لامتحان الدكتوراه في الجامعة المصرية ، فقد سمعت له درسا في شعر أبي العلاء ووقع بيني وبينه خلاف في رأى أبي العلاء في البعث . زعمت شيئا وأنكره ، وطالبني بالدليل ولم يحضرني الدليل في الدرس فظهرتُ مظهرَ المنهزم . وسرّه ذلك وظهر سروره ، فحفظتها في نفسي ، ومضيتُ في تأليف الكتاب ، حتى إذا وصلت إلى رأى أبي العلاء في البعث تناولت هذا الرأى وكنت قد قرأت اللزوميات كلها ، وظفرتُ بما كان يُطالبني من دليل . فذكرتُ ما كان بيني وبينه من خلاف وذكرتُ ذلك في لفظ لا يخلو من الفخر القاسي . »

---

(١) حديث الأربعاء ٣/ ٣٣ - ٣٥ .

(٢) هو الشيخ المهدي ، والموقفان في حديث الأربعاء ٣/ ٤٣ ، ٤٤ .

ويروى لنا الموقف الثانى مع الأستاذ نفسه حين عاد بعد أن قضى شهرا فى باريس سنة ١٩١٥ وكان قد اختلف هناك إلى دروس بعض الفرنسيين فقارن بين درس الأستاذين على نحو لا يرضى شيخه على صفحات (السفور) مما أغضب الأستاذ والكثيرين حوله .

كتب ذلك ولما يمض بفرنسا إلا أشهرا قليلة : قبل أن يحقق نوعا من « التوازن الصحيح» الذى حدثتنا عنه ، وحين بلغ هذا التوازن والاعتدال نظر فى أوراق كتابه (فى الشعر الجاهلى) فعمد إلى الفقرة التالية[1] وحذفها حذفا :

« للتوراة أن تحدثنا عن ابراهيم وإسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا : ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى : فضلا عن إثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة إسماعيل بن ابراهيم إلى مكة . . الخ » .

فإذا ما انتقلنا قبل هذه الفقرة وبعدها إلى كتاب (فى الأدب الجاهلى)[2] فسنجد هذه الفقرة قد حذفت . وهذا إدراك للخطأ بل للخطيئة : خطيئة المساس بالدين : وهذا منهج علمى يثبت دنوه من منهج « التوازن الصحيح» : وحين توازن بين صفحات الكتابين أو — إن شئت الدقة — الطبعتين من الكتاب سنجد أن ما حُذف منها هو ما كان يسئ إلى منهج « التوازن الصحيح» الذى ينشده طه حسين ، وقد تراجع عنه وما أظنه إلا كان نادما على صدوره منه . ولا تعنينا الزيادات المتمثلة فى :

الأعشى . والكتاب الخامس عن شعر مضر ؛ والكتاب السادس عن الشعر ؛ والكتاب السابع عن النثر الجاهلى ؛ وكل ذلك بين صفحات ٢٤٣ و ٣٥٥ أى نهاية الكتاب . وهو ما عبر عنه فى الصفحة الأولى من الطبعة المعدلة بقوله :

« حُذف منه فصل وأثبت مكانه فصل ، وأضيفت إليه فصول ، وغُيِّر عنوانه بعض التغيير ؛ فلا تعنينا الإضافة بقدر ما تعنينا خطوة الحذف ، لأن الحذف تراجُع عن الخطأ ، واقتراب من الصواب .

والحق أنه اقتراب من « التوازن الصحيح» الذى كان غائبا عن طه حسين منذ مطلع صباه فى مرحلته الريفية البعيدة ، وظل

---

(١) فى الشعر الجاهلى ط ١ . ١٣٤٤ هـ ١٩٢٦ م ص ٢٦ وكان قد صدر فى ٢٢ من مارس .

(٢) لجنة التأليف والترجمة والنشر . مطبعة فاروق ط ٣ ، ١٣٥٢ هـ / ١٩٣٣ ص ٨١ ؛ وصدرت الطبعة المعدلة فى ١١ من مايو ١٩٢٧ ؛ أى بعد مرور عام على صدور الطبعة السابقة .

جادا فى البحث عنه فى محاوراته مع مصادره المقروءة والمشاهدة : ويعتبر هذا التصحيح رد فعل حوار المتعاصرين له : إذ انبرى لطه حسين نخبة من مثقفى العصر : وأدباثه يصححون مسار تفكيره ويسددون خطوات منهجه : ويقومون ما اعوج من آرائه حول قضية الشك فى الشعر الجاهلى ، وما تفرع عنها من حوار دينى يمس العقيدة ، ويجرى فى طريق بعض المستشرقين .

وفى ظنى أن استجابة طه حسين : وخضوعه للتعديل من آرائه : والتخفيف من غلوائه ، آية تفاعله الصادق مع المنهج العلمى ؛ وفى ظنى — أيضا — أن طه حسين لو لم يكن مقتنعا لما كفكف من غلوائه ولما لوى عنان فرسه الجامح : وهو بصدد هدم المصادر لامجرد « نقد مصادر الشعر الجاهلى »[1] بعد اعتداله .

وإذا كان لى أن أستشهد لإثبات هذا التوازن بكلام ساقه ناقد فى معرض حديثه عن (طه حسين والنقد الأدبى)[2] لأثبتُّ هذا القول له عن طه حسين فى جانب آخر من جوانب نشاطه النقدى :

« ولهذا فإنه كما يتعرض بالنقد للرافعى لتقليديته ، ينقد سلامة موسى لتطرفه فى دعوى التجديد . وقد ظل هذا الإدراك المتوازن لطبائع الأشياء منطلقا أساسيا من منطلقات طه حسين النقدية ، وهو سمة من سمات الإصلاح « المتئد » .

فما يسميه ناقدنا هنا « الإدراك المتوازن لطبائع الأشياء » ، هو — فى تصورى — ما عناه طه حسين بتعبيره السابق « التوازن الصحيح بين العنصرين » .

وإذا ما تساءلنا عن تحقق هذا التوازن فى التفكير المنهجى عند طه حسين كان لنا أن نضيف إلى فهمنا لمصطلح التوازن — كما أوضحه طه حسين — حقيقة المنهج فى أبسط دلالاته اللغوية وهى الطريق الواضح وجوهر التفكير : أو « العقل » أو « القوة الناطقة » وبها تكون الروية . وبها تقتنى العلوم والصناعات ، وبها تميز بين الجميل والقبيح من الأفعال على نحو ما تحدث

---

(١) التعبير الأخير بين علامتى التنصيص للدكتور شوقى ضيف ، البحث الأدبى : دار المعارف ١٩٧٢ ص ٢٥١ .

(٢) النص للدكتور عز الدين إسماعيل — الثقافة ٠٦ بمبر ١٩٧٣ ص ٦١ : والنص المنقول ص ٦٥

« الفارابي »[1]. وهذه « القوة الناطقة » هي رئيسة كل القوى الإنسانية المدركة[2] ويصبح لها سلطة التحكم فيها .

في رحلة طه حسين نحو تحقيق التوازن ها هو يحدثنا صراحة عن نظرته إلى طرفي التوازن ، وإن شئت قلت التناقض ، ونرجع في ذلك – هذه المرة – إلى المقدمة التي كتبها لكتاب كارلو ألفونصو نلينو C. A Nallino (١٨٧٢ – ١٩٣٨) : (تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بني أمية[3] ص ٩ – ١١) ؛ وفيها يمتدح سيد بن علي المرصفي ومحاضراته بالأزهر في الصباح. ويمتدح محاضرات نلينو بالجامعة في المساء. ويمضي في ذكر كل من هذين العلمين القريبين إلى نفسه ، حتى يصل إلى عقد موازنة بين المنهج الفكري والعلمي لكل منهما . الأول : منهج قديم يعيش مع الماضي ، والثاني منهج حديث يعيش مع الحاضر. وتهمنا موازنته بين هذين المنهجين لأنها في الحقيقة حديث عن قضية الاختيار لديه . فيمضي في الموازنة بين هذين العلمين فيقول عن المرصفي :

« علمني كيف أقرأ النص العربي القديم وكيف أفهمه ، وكيف أتمثله في نفسي ، وكيف أحاول محاكاته » .

ويقول عن نلينو :

« علمني كيف أستنبط الحقائق من ذلك النص . وكيف ألائم بينها ، وكيف أصوغها آخر الأمر علما يقرؤه الناس فيفهمونه ويجدون فيه شيئا ذا بال » .

وهنا نقف على أسس منهجه في البحث الأدبي المستمد من هذين الاستاذين واستمرار تأثره بهما مدى حياته ؛ كما نرى في النص التادم ، مما يسمح لنا باعتبار هذين المنهجين محور نظرية التوازن عنده . يقول :

« وكل ما أتيح لي من هذين الأستاذين العظيمين من الدرس والتحصيل في مصر وفي خارج مصر فهو قد أقيم على هذا الأساس الذي تلقيته منهما في ذلك الطور من أطوار

---

(١) الفارابي ، آراء أهل المدينة الفاضلة ، تحقيق ألبير نصري نادر ، المطبعة الكاثوليكية بيروت ص ٧١ .

(٢) نفسه ص ٧١ ، ٧٢ .

(٣) هي مجموعة دروس نلينو في الجامعة المصرية ١٩١٠ – ١٩١١ ونشرتها ابنته مريم (ماريا) بمقدمة لطه حسين . دار المعارف . ١٩٥٤ ، واحتلت المقدمة الصفحات من ٣ – ١١ ، ويضم الكتاب ثلاثة أبواب في ٢٩١ ص .

الشباب ، بفضلهما لم أحس الغربة حين أمعنت فى قراءة كتب الأدب القديم ، وحين اختلفت إلى الأساتذة الأوربيين فى جامعة باريس .

ومن حديث طه حسين نقف على أنه تلقى أصول فهم النص عن المرصفى ، وأصول دراسة النص دراسة علمية عن نللينو ، أى أنه تلقى مصدرى الدراسة الناجحة وهما : الفهم ومنهجية التناول ، وكان عليه أن يحقق نوعا من التوازن بين المنهجين المتكاملين .

وقد قدم لنا طه حسين مفتاحا نتعرف به نظريته فى التوازن بين الاستقرار أو الثبات أو الجمود من ناحية : والتطور أو التجديد من ناحية أخرى ، فرأينا مرحلة الخلط والاضطراب كما سماها وذكرها فى مطلع حياته . والحق أنه إذا كان الصبى قد « اجتمع له مقدار من العلم ضخم مختلف مضطرب متناقض »[1] فى مطلع حياته بالريف أدى إلى أن عمل « عملا غير قليل فى تكوين عقله الذى لم يخل من اضطراب واختلاف وتناقض » . فإن ذلك القدر الضخم صار قدرا هائلا ، وبمقدار تراكم المادة العلمية ازدادت الفجوة بين تياراتها ومناهجها ومذاهبها : وبخاصة ما يتصل بشاطئ المعرفة : الشرقية من ناحية : والغربية من ناحية أخرى : ولا شك فى أن التاريخ قد أعاد نفسه مع الشاب بطريقة تتفق أو تختلف مع ما حدث للصبى من قبل فأفزعه تناقض المنهج العربى والمنهج الغربى إزاء المسلمات التراثية والدينية : ومن هنا حصل فى عهد أزمة الشعر الجاهلى « الاضطراب والاختلاف والتناقض » الذى وجد متنفسه مع حرارة التجربة الجامعية بالنسبة له ، وشموخ المجد ، وذيوع الصيت : وحيرته فى تحقيق التوازن بين هذا وذاك . آية ذلك أنه مالبث أن اختط طريقه فى (نظرية التوازن) بطريقته (فى الأدب الجاهلى) لنرى منهجا فى التفكير لديه أكثر استقرارا واتزانا عن ذى قبل : وهو يمثل المرحلة الكبرى من حياته منذ سنة ١٩٢٧ حتى لقى ربه سنة ١٩٧٣ : فرأينا « الوسطية» و« الاعتدال» فى نظريته العامة للامور، والقضايا، وبخاصة ما يتصل بقضايا الأدب ومناهج البحث فيه . وفى هذه المرحلة يمكننا أن نقول بنظرية طه حسين فى التوازن بين الاستقرار والجمود .

---

(١) حديث الأربعاء ، دار المعارف د - ت ج ١ ص ١٣ ونشرت بالجهاد فى ٣٠ من نباير ١٩٣٥ وضم الكتاب - بأجزائه الثلاثة - ما نشره بالسياسة بين ٦ من ديسمبر ١٩٢٢ ، ١٧ ديسمبر ١٩٢٤ والجهاد من ٣٠يناير إلى ٢٢ مايو ١٩٣٥ ،وضم الجزء الأول مقالات حول الأدب القديم : الجاهلى والإسلامى .

ونستعين — فى ختام مقالنا — بنصوص منه حول اعتزازه بالقديم . وما أكثرها من ذلك قوله :

« نحن نحب القديم أن يظل قواما للثقافة وغذاء للعقول . لأنه أساس الثقافة العربية فهو إذن مقوِّم لشخصيتنا . محقِّق لقوميتنا عاصم لنا من الفناء فى الأجنبى ، معين لنا أن نعرف أنفسنا . فكل هذه الخصال أمور لا تقبل الشك » .

ويختم مقاله هذا وعنوانه :(أثناء قراءة الشعر القديم) : قائلا :

« ثم تم الاتفاق بيننا على أن يكون يوم الأربعاء من كل أسبوع موعدا لهذه النزهة فى صحراء الأدب الجاهلى التى يراها الناس صحراء ، وأراها أنا حديقة من أجمل الحدائق وأورعها »[١]

ذلك أنه حقَّق التوازن الصحيح بين الاستقرار كما تلقاه عن المرصفى وأمثاله والتطور الذى أخذه نللينو وأضرابه . وهذا التحقيق لم يتخلق بهذه السهولة . وبحسبنا قول طه حسين عن تخلق المذهب لديه : « أكاد أعتقد أنى لم أعرف مذهبى فى الحياة إلا شيئا فشيئا ، لأن هذا المذهب نفسه لم يتكون إلا قليلا قليلا ، فرضته علىّ ظروف الحياة . وهى التى استخرجته من من أعماق طبيعتى استخراجا بعد أن كان كامناً فيها كمون النار فى العود كما يقول الشاعر القديم »[٢] .

يوسف حسن نوفل
الأستاذ بكلية البنات
ورئيس قسم اللغة العربية
جامعة عين شمس

---

(١) ر المصدر السابق : ص ١٧ .

(٢) هذا مذهبى — بأقلام نخبة من الشرق والغرب ، أشرف عليه د . طه حسين : كتاب الهلال — العدد ٤٨ — مارس ١٩٥٥ — فصل بقلم طه حسين (حب للمعرفة وصبر على المكروه) ص ٣٩ — ٥١ .

من المراجع

إبراهيم عبد الرحمن (دكتور) وزملاؤه: طه حسين وقضية الشعر، الهيئة: ١٩٧٥.

» » » » » » : قضايا الشعر فى النقد العربى: الشباب، ١٩٧٧

أحمد أمين : زعماء الإصلاح فى العصر الحديث. القاهرة، ١٩٤٨.

أنور الجندى : طه حسين فى مرآة الإسلام. ١٩٧٦.

أنيس الخورى المقدسى : الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى. بيروت. ١٩٥٢.

جابر عصفور (دكتور) : المرايا المتجاورة: الهيئة: ١٩٨٣.

جمال الدين الألوسى : طه حسين بين أنصاره وخصومه. بغداد. ١٩٧٣.

جميل صليبا : الاتجاهات الفكرية. فى بلاد الشام: القاهرة: ١٩٥٨.

حسين فوزى النجار (دكتور) : أحمد لطفى السيد ــ أعلام العرب (٣٩)

حسين نصار (دكتور) : دراسات حول طه حسين، جامعة الموصل، ١٩٧٦.

سامى الكيالى : مع طه حسين ١، ٢ (اقرأ ١١٢: ٣٠١)؛ دار المعارف.

سهير القلماوى (دكتورة) : ذكرى طه حسين، دار المعارف ١٩٧٤؛ ومجلة الثقافة، ديسمبر ١٩٧٣ ص ٢٠، وما بعدها.

شوقى ضيف (دكتور) : الأدب العربى المعاصر فى مصر، دار المعارف ١٩٦١:

البحث الأدبى طبيعته ــ مناهجه ــ أصوله ــ مصادره، دار المعارف ١٩٧٢.

مجلة الهلال ــ فبراير ١٩٦٦.

صلاح عبد الصبور : ماذا يبقى منهم للتاريخ ، دار الثقافة العربية ، ١٩٦١ .

طه الحاجرى (دكتور) : الثقافة — أكتوبر ١٩٧٥ ص ١٤ .

طه حسين (دكتور) : الأيام — ١ — ٣ — المجموعة الكاملة ، بيروت : ط ٢ : ١٩٧٤ .

حديث الأربعاء : دار المعارف ط ٩ ، ج ٣ : وج ١ د . ت .

فصول فى الأدب والنقد . دار المعارف ١٩٤٥

فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ترجمة محمد عبد الله عنان — المجموعة الكاملة مج ٨ بيروت ١٩٨٥ .

فى الأدب الجاهلى ط ٣ — ١٩٣٣ ، (صدرت الطبعة الثانية فى ١١ مايو ١٩٢٧) .

فى الشعرا الجاهلى ط ١ — ١٩٢٦ ، ٢٢ من مارس ١٩٢٦) .

عباس محمود العقاد : محمد عبده : أعلام العرب (١) ١٩٦٢ .

عبد العزيز البشرى : فى المرآة — كتب للجميع د . ت .

عبد اللطيف حمزة (دكتور) : أدب المقالة الصحفية ، القاهرة ، (٥٠ — ١٩٥٤ ج ١ — ٦ :

الفارابى (أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان): آراء أهل المدينة الفاضلة ، ت : ألبير نصرى نادر ، الكاثوليكية ، بيروت ١٩٥٩ .

كارلو ألفونصو نللينو : تاريخ الآداب العربية من الجاهلية حتى عصر بنى أمية ، بمقدمة لطه حسين ، دار المعارف : ١٩٥٤

مجموعة	:	إلى طه حسين فى عيد ميلاده السبعين ، دار المعارف ١٩٦٢ .
		طه حسين كما يعرفه كتاب عصره ، دار الهلال : هذا مذهبي : كتاب الهلال العدد ٤٨ .
محمد حسين (دكتور)	:	الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، بيروت ط ٣ — ١٩٧٢ .
محمد رشيد رضا	:	تاريخ الشيخ محمد عبده ، القاهرة ٢٥ — ١٩٣١
محمد زغلول سلام (دكتور)	:	تاريخ النقد العربى إلى القرن الرابع الهجرى : دار المعارف ١٩٦٤ .
نبيلة إبراهيم (دكتورة)	:	مجلة الثقافة : ديسمبر ١٩٧٣ ص ٨٧ وما بعدها
يحيى حقى	:	فجر القصة ، ط الهيئة ١٩٧٥ .

من الدوريات

الثقافة	:	ديسمبر ١٩٧٣ (عدد خاص — طه حسين المفكر الأديب) أكتوبر ١٩٧٥ .
الجريدة	:	إعداد متنوعة .
الرسالة	:	١٥ مايو ١٩٣٣ .
الرسالة الجديدة	:	مايو ١٩٧١ وأعداد أخرى مثل : مايو ويونيو ١٩٥٦ .
الطليعة	:	يناير ١٩٦٧ .
الهلال	:	فبراير ١٩٦٦ .
		إبريل ١٩٧٥ ذكرى طه حسين حقى ص ٥٧ .
		مايو ١٩٧٧ ص ١٥٢ .

المنهج الوظيفي لظاهرة التثنية

للدكتور عبد الرحمن محمد إسماعيل

تمهيــــد

مما لا شك فيه أن التثنية ظاهرة سامية حفلت بها الساميات كافة بيد أن أداءها فى العربية يغاير – تماما – طرق أدائها فى غيرها من الساميات . ومن ذلك أن العربية أوسع منها طرقا ، وأشمل منهجا ، من هنا جاءت التثنية فيها واضحة المعالم ، محددة الأهداف ، إذ أقسامها بينة . ودلالاتها بادية وقضاياها ظاهرة مجلاة .

وربما وجد القارىء فى هذه الدراسة ما يصحح بطلان بعض مزاعم القوم من أنه لا بد لكل مفــرد مثنى أو العكس ، ضرورة أن يكون لكل أصــل فــرع أو العكس ، بل ربما يتوهم بعض الدارسين أن التثنية لا تتجاوز فى الأداء العربى طريقا أو إعرابا واحدا ، أو دلالة واحدة وهذا الزعم ، أو ذاك التوهم قد قصدت هذه الدراسة إلى دفعه ، وتفصيل القول فيه ، حيث المثنى يوظف كثيرا فى حقيقته تارة ، وقد يوظف فى غيرها أخرى وذلك حين يتقارض مع أصــله (أعنى المفرد) أو مع فرعه (أعنى الجمع) وهذا ضرب من التوسع أو المجاز فى الاستعمال الذى لا يكاد يقف عليه إلا الخاصة من علماء هذه اللغة ، ولا يحيط به علما إلا من دقق النظر ورجّع البصر كرتين فى عوالى أساليب العرب

وفى الأمل صيرورة هذه الدراســة مضمارا فسيحا لنماء لغة الدارسين من طلاب العربية ، ومفتاحا جديدا لطرق أبواب النحو العربى على نحو توظيفى يحل كثيرا من مشكلات مسالك التعبير فى العربية ، ويوجه بيانه وجهة صحيحة سليمة ، حيث كتب النحو – وحدها – قاصرة عن إبراز كل جوانب هذه الظاهرة ولن تكون بارزة جد البروز إلا أن تتعاون معها كتب اللغة والأدب والأعاريب والتفاسير ، كما سلكت فى منهجى هذا .

إن هذه الدراسة لم تخل من إجتهاد مبنى على أصول هذه اللغة ووجوهها الفصيحة ، وحسبى فيه أن الاجتهاد باب مفتوح فى وجه أهل النظر ما دامت انطلاقاته مستوحاة من نصوص الفصحى .

لذلك جاءت هذه الدراســة بفضل من الله وتوفيق شاملة لنواحى التثنية فى منهجها الوظيفى ، وقــد استقصيت فيه أساليب

المثنى حقيقية كانت أو مجازية ،ؤملا أن يفيد بها أبناء العربية وطلابها من غير الناطقين بها ، وذلك فى تقـويم ألسنتهم وتنويع بيانهم ، والله من وراء القصد ، وهو المستعان .

تعريف المثنى :

المثنى لغة : أصله المعطوف ، من ثنيت العود : إذا عطفته [1] وفى الاصطلاح : لفظ دال على اثنين بزيادة فى آخره ، صالح للتجريد وعطف مثله عليه [2] .

ومن ذلك الحد يبدو لنا القصد من التثنية وهو الاقتصاد ، أو الإيجاز حيث قامت الزيادة ، وهى حرفان (الألف والنون رفعا) والياء والنون نصبا وجرا مقام العاطف والمعطوف ؛ نحو جـاء الشاهدان ورأيت الشاهدين ، ومررت بالشاهدين .

يقول عبد القاهر الجرجانى : اعلم أن التثنية والجمع يقصد بها الاختصار والإيجاز فكان الأصـل أن يقال : جاءنى زيد وزيد إلا أنهم رأوا ذلك يطول ، إذا كان التثنية يتبعها الجمـع ، فكان يجب أن يقال : زيد وزيد وزيد إلى ما يطول جدا فقالوا : الزيدان ، والزيدون ، فجعلوا الألف (يعنى فى المثنى) والواو (يعنى فى جمع المذكر) عوضا عن ضم الاسم إلى الاسم فحصل المعنى مع اختصـار اللفظ .

وقريب من هذا ما حكى من أن عمر ابن الخطاب رضوان الله عليه ، قيل له بعد وفاة أبى بكر الصديق – رضى الله عنه – يا خليفة خليفة رسول الله ، فقال : هذا أمر يطول ، أنتم المؤمنون ، ونحن أمراؤكم ، فخوطب بأمـير المؤمنين ، وإنما اختار ذلك كراهية التكرير ؛ إذ كان يجب أن يقال بعده : يا خليفة خليفة خليفة رسول الله ، إلى ما لا نهاية له ، كما كان يجب أن يقال : زيد وزيد ، فالمتجنب هو التكرير فى الموضعين ، وقد يجيء ذلك فى الشعر كقوله :

كأن بين فكها والفـك
فارة مسك ذبحت فى سُك

كان الظاهر أن يقول : كأن بين فكيها إلا أنه عدل إلى التكرير لأجل الشعر ، وحسن ذلك أن أحدهما مضاف ، والثانى

(١) التصريح ١ / ٦٦ .

(٢) ابن عقيل بحاشية الخضرى ١ / ٣٦ .

فيه الألف واللام ، لو قال : كأن بين فكها وفكها كان أقبح [1] :

وقال ابن الشجرى : التثنية والجمع المستعملان بالحرف أصلهما التثنية والجمع بالعطف : فقولك : جاء الرجلان ، ومررت بالزيدين ، أصله : جاء الرجل والرجل ومررت بزيد وزيد ، فحذفوا العاطف والمعطوف : وأقاموا حرف التثنية مقامهما اختصارا : وصح ذلك لاتفاق الذاتين فى التسمية ، بلفظ واحد ، فإن اختلف لفظ الاسمين رجعوا إلى التكرير بالعاطف كقولك : جاء الرجل والفرس ، ومررت بزيد وبكر ، إذ كان ما فعلوه من الحذف فى المتفقين يستحيل فى المختلفين [2] .

ويفهم من كلام ابن الشجرى أن العطف بالواو نوع آخر من التثنية والجمع فى اللغة إلا أنه يتعين فيما اختلف لفظه من الأسماء المعطوفة .

اقسام المثنى :

تنقسم التثنية إلى ثلاثة أضرب :

(١) تثنية لفظية معنوية .

(ب) وتثنية معنوية وردت بلفظ الجمع .

(ج) وتثنية لفظية كان حقها التكرير بالعطف .

فالضرب الأول عليه معظم الكلام كقولك فى رجل : رجلان ، وفى زيد زيدان .

والضرب الثانى : تثنية آحاد ما فى الجسد كالأنف والوجه والبطن والظهر ، تقول : ضربت رؤوس الرجلين ، وشققت بطون الجملين ، ورأيت ظهوركما ، وحى الله وجوهكما ، فتجمع وأنت تريد رأسين وبطنين ووجهين ، ومن ذلك فى التنزيل قوله جل ثناؤه « فقد صغت قلوبكما » [3] وجروا على هذا السنن فى المنفصل عن الجسد ، فقالوا : مد الله فى أعماركما ، ونسأ الله فى آجالكما ، ومثاله فى المنفصل فيما حكاه سيبويه : ضع رحالهما .

ومن العرب من يعطى هذا كله حقه من التثنية فيقولون : ضربت رأسيهما ، وشققت بطنيهما .... ومما ورد بهذه اللغة قول الفرزدق :

بما فى فؤادينا من الشوق والهوى

---

(١) انظر شرح المقتصد للجرجانى ١ / ١٨٣ — ١٨٤ ، وشرح المفصل ٥ / ٢ ، والخزانة ٣ / ٣٤٠ ، ٣٤٢ .

(٢) الأمالى الشجرية ١ / ١٠ .

(٣) التحريم / ٤

وقول أبي ذؤيب الهذلي :

فتخالسا نفسيهما بنوافذ

كنوافذ العبط التي لا ترفع

والجمع في هذا ونحوه هو الوجه كما جاء في التنزيل« قالا ربنا ظلمنا أنفسنا »[1].

هذا وقد جمع حميان بن قحافة بين اللغتين في قوله :

ومهمهين قذفين مرتين

ظهراهما مثل ظهور الترسين

فقال : ظهراهما بالتثنية ثم أعقبه بالجمع في (ظهور الترسين) وربما استغنوا في هذا النحو بواحد : لأن إضافة العضو إلى اثنين تنبيء عن المراد كقولك: ضربت رأس الرجلين ، وشققت بطن الحملين ، ولا يكادون يستعملون ذلك إلا في الشعر وأنشدوا عليه قول الشاعر :

كأنه وجه تركيين قد غضبا

مستهدفين لطعن غير تذبيب

قال سيبويه : وسألته يعني الخليل عن قولهم : ما أحسن وجوههما فجمعوا وهم يريدون اثنين ، فقال : لأن الاثنين جمع وهذا بمنزلة قول الاثنين: نحن فعلنا ، ولكنهم أرادوا أن يفرقوا بين ما يكون مفردا ، وبين ما يكون شيئا من شيء ، والقول في تفسير هذه الحكاية إنهم قالوا ما أحسن وجوه الرجلين ، فاستعملوا الجمع موضع الاثنين ، كما قال الاثنان : نحن فعلنا ، ونحن هو ضمير موضوع للجماعة ، وإنما استحسنوا ذلك لما بين التثنية والجمع من التقارب من حيث كانت التثنية عددا تركب من ضم واحد إلى واحد ، وأول الجمع وهو الثلاثة تركب من ضم واحد إلى اثنين ، فلذلك قال الخليل : إن الاثنين جميع .

فأما ما في الجسد منه اثنان ، فتثنيته إذا ثنيت المضاف إليه واجبة ، تقول : فقأت عينيهما ، وقطعت أذنيهما ، لأنك لو قلت أعينهما وآذانهما لالتبس بأنك أوقعت الفعل بالأربع .

فإن قيل : فقد جاء في القرآن « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما »[2] فجمع اليد وفي الجسد يدان ، فهذا يوجب بظاهر اللفظ إيقاع القطع بالأربع .

والجواب : أن المراد فاقطعوا أيمانهما وكذلك هي في مصحف عبد الله فلما علم بالدليل الشرعي أن القطع محله اليمين ،

---

(١) الأعراف / ٢٣ .

(٢) المائدة / ٣٨ .

وليس فى الجسد إلا يمين واحدة جرت مجرى آحاد الجسد فجمعت كما جمع الوجه والظهر والقلب .

والضرب الثالث من ضروب التثنية : تثنية التغليب . وذلك أنهم أجروا المختلفين مجرى المتفقين بتغليب أحدهما على الآخر لخفته أو مشهرته . جـاء ذلك فى أسماء مسموعة صالحـة كقـولهم للأب والأم الأبوان ، وللشمس والقمر : القمران : ولأبى بكر وعمر العمران : غلبوا القمر على الشمس لخفة التذكير . وغلبوا عمر على أبى بكر ؛ لأن أيام عمر امتدت : وروى أنهم قالوا لعثمان — رضوان الله عليه — نسألك سيرة العمرين ؛ وقال الفرزدق :

أخـذنا بآفاق السماء عليكم
لنا قمراها والنجوم الطوالع

أراد : شمسها وقمرها ، وعنى بالشمس إبراهيم عليه السـلام ؛ وبالقمر محمـدا — صلى الله عليه وسلم — وبالنجوم عشيرة النبى عليه السـلام ، وكذلك أراد المتنبى بالقمرين : الشمس والقمر فى قوله :

واستقبلت قمر السماء بوجهها
فأرتنى القمرين فى وقت معا

وقيل فى قوله : « يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين »[1] إن المراد المشرق والمغـرب ؛ فغـلب المشرق لأنه أشهر الجهتين . وقالوا لمصعب بن عمير وابنه : المصعبان . وقالوا لعبد الله بن الزبير وأخيه مصعب : الخبيبان ؛ وكان عبد الله يكنى أبا خبيب ؛ قال أبو نخيلة يمدح الحجاج ويعرض بعبد الله بن الزبير :

قدنى من نصر الخبيبين قدى
ليس الإمام بالشحيح الملحد[2]

شروط المثنى القياسى الذى طريقه الزيادة :

يرى جمهور النحاة أن المثنى القياسى الذى طريقه زيادة الألف والنون رفعا ، والياء والنون نصبا وجرا أنه لا بد من أن تتوفر فيه شروط ثمانية جمعها بعضهم فى قوله :

شرط المثنى أن يكون معربا
ومفردا منكرا ما ركبـا
موافقا فى اللفـظ والمعنى له
مماثل لم يغن عنه غـيره[3]

---

(١) الزخرف / ٣٨ .

(٢) انظر الأمالى الشجرية ١ / ١١ — ١٤ ؛ وإعراب القرآن للزجاج ٣/ ٧٨٧ — ٧٩٠ وكتاب ليس فى كلام العرب لابن خالويه / ٣٣٩ وما بعدها ، وشرح جمل الزجاجى لابن عصفور ١ / ١٣٧ ، الخزانة ٣ / ٣٦٩ وما بعدها . وشرح المفصل لابن يعيش ٤ / ١٥٥ وما بعدها .

(٣) حاشية الخضرى ١ / ٤٠ ؛ وانظر التصريح بحاشية يس ١ / ٦٧ .

ومن هذه الشروط يمكن بيان ما يثنى وما لا يثنى فى العربية :

اولا : ما يثنى :

(ا) المفرد المذكر اسما نحو : الزيدان فى (زيد) ، أو صفة نحو : المسلمان فى (مسلم) :

والمفرد المؤنث اسما نحو : الهندان فى (هند) ، أو صفة نحو المسلمتان فى مسلمة .

أما الجمع المكسر الذى ليس على صيغة الجمع الأقصى فالقياس يأبى تثنيته وذلك أن الغرض من الجمع الدلالة على الكثرة ، والتثنية تدل على القلة ، فهما معنيان متدافعان ولا يجوز اجتماعهما فى كلمة واحدة ، وقد جاء شيء من ذلك عنهم على تأويل الإفراد ، قالوا : إبلان وغنمان وجمالان ، ذهبوا بذلك إلى القطيع الواحد ، وضموا إليه مثله فثنوه ، أنشد أبو زيد :

هما إبلان فيهما ما علمتم
فعن أيها ما شئتم فتنكبوا

وقالوا : لقاحان سوداوان ، حكاه سيبويه ، وإنما لقاح جمع لقحة ، وقالوا: جمالان على تأويل قطيعين قال عمرو ابن العداء الكلبى :

لأصبح الحى أوبادا ولم يجدوا
عند التفرق فى الهيجا جمالين

فالتثنية تدل على افتراقها قطيعين أو صنفين صنفا لترحلهم يحملون عليها أثقالهم وصنفا لحربهم يركبونه إذ جنبوا خيلهم ، ولو قال : لقاح أو جمال لفهم منه الكثرة إلا أنه لا يدل على أنها مفترقة قطيعين ، إلا أنه فى (إبلان) أسهل لأنه جنس فهو مفرد. وليس بتكسير كجمل وجمال ، ومن ذلك قول أبى النجم :

تبقلت فى أول التبقل
بين رماحى مالك ونهشل

فقد أفاد بتثنية (رماح) افتراق رماح بنى مالك من رماح بنى نهشل ؛ وأما قوله عليه السلام : « مثل المنافق كالشاة العائرة بين الغنمين » فإنه شبه المنافق ، وهو الذى يظهر أنه من قوم وليس منهم بالشاة العائرة ؛ وهى المترددة بين الغنمين أى بين القطيعين لا تعلم من أى القطيعين هى ؛ يقال سهم عائر ، وحجر عائر إذا لم يعلم من أين هو ؛ ولا من رماه[1].

هذا — وقد ورد فى فصيح الكلام — تثنية اسم الجمع مثل : ركب وركبان ، قال جل ثناؤه : « قد كان لكم آية فى فئتين »[2].

(١) انظر شرح المفصل ٤/ ١٥٣ وما بعدها ، والخزانة ٣/ ٣٨١ وما بعدها .
(٢) آل عمران / ١٣ .

وقال : « وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان »[1] .

(ب) المركب الإضافى يثنى صدره دون عجزه استغناء بتثنية المضاف عن تثنية المضاف إليه ، نحو هذان غلاما محمد ، وجاريتاه ، كما جاء جمعه فى قوله « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا »[2] فقد جمع المضاف وهو عبد ، دون المضاف إليه وهو الرحمن[3] .

ثانيا : ما لا يثنى :

قد يزعم البعض أنه لا بد لكل مفرد من مثنى ، أو بعبارة أخرى أنه لا بد لكل مثنى من مفرد ، لكن بإمعان النظر فى أساليب الفصحى يبدو عدم صحة هذا الزعم حيث يوجد فى العربية كلمات لم يرد عن الفصحاء تثنيتها أو جمعها ، وذلك لأسرار وأسباب نجملها فى الآتى :

الأول – إذا أفاد اللفظ العموم بأن كان يصلح للمثنى أو الجمع امتنعت العرب من تثنيته أو جمعه ، حيث لم تزد التثنية أو الجمعية شيئا على مفهومه الوضعى ، وهذا النوع يشمل الألفاظ او الأجناس التالية :

١ – لفظى كل وبعض ، فلا يقال : كلان وبعضان لعدم الفائدة من تثنيتهما لإفادتهما – وضعا – العموم ، حيث لا يعطيان بعد التثنية إلا ما يعطيان قبلها من الكلية والبعضية .

٢ – ما لزم النفى من الألفاظ المتوغلة فى التنكير ، لإفادة العموم ، إذ كل نكرة بعد النفى تصدق على كثيرين فلا فائدة من تثنيتها أو جمعها ، وينحصر هذا النوع فى إحدى وعشرين كلمة تذكر منها الآتى :

(عريب) : أى ما بها معرب يبين كلامه ويعربه فلا يقال فيه : عريبان بل يلزم الإفراد .

(ديار) : قال تعالى : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا »[4] وقد

---

(١) الأنفال / ٤١ .

(٢) الفرقان / ٦٣ .

(٣) انظر التصريح بحاشية يس ١ / ٦٦ ، وابن عقيل بحاشية الخضرى ١ / ٤٠ ، وكتاب ليس فى كلام العرب / ٣٤٠ ، والمقرب لابن عصفور ٢ / ٤٢ / ٤٣ ، وشرح جمل الزجاجى لابن عصفور ١ / ١٣٩ .

(٤) نوح / ٢٦ .

ستعمله ذو الرمة في الواجب في قوله :

إلى كل ديار تعرفن شخصه
من القفر حتى تقشعر ذوائبه

فلا يقال فيه دياران .

(داري) : منسوب إلى الدار ؛ و(دُوري) منسوب إلى الدُّور ؛ يقال ما بها دُوري أي أحد ؛ و(طُوري) منسوب إلى جبل الطور ؛ يقال ما بها طوريّ : أي ما بها إنسي ولا وحشيّ ؛ و(طاوي) يقال : ما بها طاوي ، وأرم وأريم وكتيع وكتّاب ودُعْوِيّ ، وشُفْر يقال ما بها شُفر أي ما بها قليل ؛ ودُبي ، وتامور : يقال : ما بها تامور : أي أحد ، .. [1] .

٣ — المصادر ؛ وذلك لصلاحيتها للمفرد وللمثنى وللجمع يقال : رجل عدل ورجلان عدل ورجال عدل ؛ ومنه قوله : « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب » [2] فقال خصم ولم يقل الخصوم ؛ لإفادة (خصم) معنى الجمع وصلاحيته له لذلك أعاد الضمير عليه جمعا في قوله « تسوروا » حملا على المعنى .

ومنه لفظ (كافة) لأنه مصدر جاء على فاعلة مثل عامة ؛ قال عز وجل « ادخلوا في السلم كافة » [3] وقال سبحانه : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » [4] فهي مصدر منكر مؤنث مفرد . فلا تدخله الألف واللام . ولا تضاف إلى معرفة ؛ وأما قول الفقهاء : هذا مذهب الكافة ، وهو قول الكافة ؛ ويقولون : هذا مذهب كافة العلماء ؛ فيضيفون (كافة) ومرادهم بذلك الجميع : فهذا غلط .

قال الفراء : (كافة) معناه : جميعا و(كافة) لا تكون مذكرة ولا مجموعة ولا يقال : كافين ولا كافات ؛ لأنها وإن كانت على لفظ فاعلة ، فإنها في تأويل المصدر مثل : العاقبة : (العقاب) والعافية : (العفو) والباقية : (البقاء) الخ .

ولذلك لم تدخل فيها العرب الألف واللام ؛ لأنها في معنى قولك : قاموا معا ؛ وقاموا جميعا .

---

(١) انظر الخزانة ٣ / ٢٩٥ وما بعدها .

(٢) ص / ٢١ .

(٣) البقرة / ٢٠٨ .

(٤) التوبة / ٢٦ .

وقال الزجاج : (كافة) منصوب على الحال ، وهو مصدر على فاعلة . . . ولا يجوز أن يثنى ولا يجمع ، كما إذا قلت قاتلوهم عامة : لم يثن ولم يجمع ، وكذلك خاصة[1] .

وكذلك لفظ (نهيك) في قولهم : هذا رجل نهيك من رجل ، كما تقول هذا رجل حسبك من رجل ، لم تثن ولم تجمع لأنه مصدر[2] .

من هنا يتجلى لنا أن المصدر لا يجوز تثنيته ولا جمعه إذا لم يرد به التنويع وذلك لإفادته الكثرة والجنسية ، وما شأنه كذلك لا فائدة من تثنيته أو جمعه لأن عطاءه بعدهما كعطائه قبلهما ، فهو مما يصلح للواحد وغيره والمذكر وغيره ، فالعرب تقول : ماء غور ، وبئر غور ، وماءان غور ، لا يثنون ولا يجمعون ، لا يقولون : ماءان غوران ، ولا مياه أغوار ، فغور بمنزلة الزور يقال : هؤلاء زور فلان ، وهؤلاء ضيف فلان ، والمعنى : هؤلاء زواره وأضيافه ، وذلك لأنه مصدر أجرى مجرى : قوم عدل ، وقوم رضا . . . إلخ[3] .

وبعد : فالمصدر الذي يمتنع تثنيته أو جمعه مشروط بأمرين :

الأول : أن لا يراد به التنويع ، فإن أريد به ذلك جاز تثنيته وجمعه نحو : هذان تنوينان ، وهذه تنوينات . . إلخ فيراد بالمثنى نوعان من التنوين ، ويراد بالجمع أنواعه المختلفات .

الثاني : أن يكون مؤكداً لعامله ، فإن كان مبينا لنوعه أو عدده جاز تثنيته أو جمعه قال ابن مالك :

وما لتوكيد فوحد أبدا
وثن واجمع غيره وأفردا
ونعتوا بمصدر كثيرا
فالتزموا الإفراد والتذكيرا

٤ — ما تضمن معنى الفعل أو المصدر نحو : (أفعل من) ؛ لأن معنى قولك : زيد أفضل من عمرو : زيد يزيد فضله على عمرو[4] .

---

(١) انظر تهذيب الأسماء واللغات للنووي ٤ / ١١٧

(٢) المرجع السابق ٤ / ١٧٤ .

(٣) انظر معاني القرآن للفراء ٣ / ١٧٢ ، أسرار ومفاهيم دقيقة حول ظاهرة التنوين للباحث ٢٢ — ٢٣ .

(٤) شرح جمل الزجاجي لابن عصفور ١ / ١٣٨ .

الذا ترى (أفعــل من) فى الاستعمال لا يطابق موصوفه وهو المفضل : تقول : زيد أفضل من عمرو ، والزيدان أفضل من عمرو ، والزيدون أفضل من عمرو ، وهند أفضل من أختها ، والهندان أفضل من أختهما ، والهندات أفضل من أختهن فانظر كيف لزم (أفعل من) فى الأمثلة الإفراد والتذكير والتنكير ؟ ؛ لكونه متضمنا معنى الفعل والمصدر ، وكلاهما لا يثنى ولا يجمع مع المثنى والجمع . قال ابن مالك :

وإن لمنكور يضيف أو جردا
ألزم تذكيرا وأن يوحـــدا

— كذلك يلزم ضمير الغائب الإفراد والتذكير فى المواطن الآتية :

* إذا كان مجرور بـــ (رب) نحو قولهم ربه رجلا ورجلين ورجالا وربه امرأة وامرأتين ونساء ، بتوحيد الضمير فيها ؛ وإنما لزم الإفراد حيث عوضوا عن تثنيته وجمعه بتثنية وجمع التمييز وهم لا يجمعون بين العوض والمعوض عنه ، ومنه قول الشاعر :

ربه فتية دعــوت إلى ما
يورث المجد دائمـــا فأجابوا

فقد أفرد الضمير استغناء عن جمعه بجمع التمييز بعده .

ولزوم الضمير مع (رب) الإفراد والتذكير هو مذهب البصريين ، وحكى الكوفيون جواز مطابقته لفظا نحو : ربها امرأة ، وربهما رجلين وربهم رجالا ، وربهن نساء(١) .

* فاعل (أفعل) فى التعجب نحو : ما أحسن زيدا — والزيدين والزيدين . وما أجمل هندا — والهندين والهندات ، ففاعل (أحسن) فى الأمثلة مفرد مذكر مستتر وجوبا وإنما لزم الإفراد لأنه يعود على المبتدأ وهو مفرد ، وتقديره : شىء حسن زيدا ، أو الذى حسن زيدا شىء عظيم ، ولم يعد على المتعجب منه .

* اسم ليس ولا يكون فى الاستثناء نحو : قاموا وليس زيدا والزيدين والزيدين . ولا يكون زيدا والزيدين والزيدين وكذلك فاعل (عدا وخلا وحاشا) فى الباب نفسه وإنما لم يجز تثنية اسم ليس ولا يكون هنا لإجرائه مجرى بعض أو الجنس وكلاهما لا يثنى ولا يجمع .

---

(١) انظر التصريح ٢ / ٤ .

(٢) انظر التصريح بحاشية يس ٢ / ٨٧ .

* فاعل (نعم وبئس) فى الذم إذا كان ضميرا مستترا فقسر باسم نكرة منصوب على التمييز نحو : نعم — رجلا — زيد ؛ ونعم — رجلين — الزيدان ؛ ونعم — رجالا — الزيدون وذلك لأن المراد به الجنس فهو يفيد العموم[1]

النوع الثانى : لا يثنى ولا يجمع ما استغنى عن تثنيته بتثنية غيره وينحصر فى الآتى :

* ألفاظ العدد — ما عدا مائة وألفاً — لا تثنى ولا تجمع للاستغناء عن تثنيتها أو جمعها بضعفها أو أضعافها : فنحو ثلاثة يستغنى فيها عن ثلاثتين بلفظ (ستة) وعن جمعها بنحو : تسعة ؛ واثنى عشرة . . . إلخ أما (مائة وألف) فقد ثنتهما العرب تقول : هؤلاء مئتان أو ألفان ، وجمعتهما نحو : هؤلاء : مئات ومئون وهؤلاء آلاف وألوف قال تعالى : « . . فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ؛ وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله »[2] .

* ولفظ (سواء) لم تثنه العرب حيث استغنوا عن تثنيته بتثنية (سِيّ) فقالوا : سيان زيد وعمرو ، ولم يقولوا : هما سواءان وعن جمعه بجمع (سِيّ) فقالوا أسواء مثل نقض وأنقاض ؛ يقال : قوم أسواء ومستوون ، وأما قول الشاعر :

فيارب إن لم تجعل الحب بيننا
سواءين فاجعلنى على حبها جلدا

فشاذ

هذا — ولم ترد (سواء) فى كلام الفصحاء ولا فى القرآن الكريم إلا مفردة مع المثنى والجمع نحو قوله سبحانه : « سواء العاكف فيه والباد »[3] ؛ وقول الشاعر :

سلى إن جهلت الناس عنا وعنهم
فليس سواء عالم وجهول

فهى فى الآية والبيت لم تتجاوز الإفراد مع المثنى ؛ ومثالها مفردة مع الجمع قوله سبحانه : « ودُّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء . .[4] » .

* ولفظا (أجمع وجمعاء) لم تثنهما العرب استغناء عنه بكلا وكلتا .

قال ابن مالك :

واغن بكلتا فى مثنى وكلا
عن وزن فعلاء ووزن أفعلا

---

(1) المرجع السابق ٢ / ٩٥ .
(2) الأنفال / ٦٦ .
(3) الحج / ٢٥ .
(4) النساء / ٨٩ .

النوع الثالث : ما كان متوغلا فى البناء ، فلا تثنى أسماء الأفعال والأصوات لإجرائها مجرى الأفعال أو المصادر ، يقال : صه يازيد وصه يا زيدان وصه يا زيدون ، وصه يا هند ويا هندان ، وياهندات . . إلخ . وذلك لأنه متضمن معنى سكوتا يا زيد ؛ ويا زيدان ويا زيدون . وسكوتا يا هند ، ويا هندان ، ويا هندات .

ولاتثنى أسماء الشرط والاستفهام لإفادتها العموم وتضمنها معنى الحرف والحرف لا يثنى ولا يجمع ، يقال : من قام ، وقاما ، وقامتا وقاموا ، وقمن ، بلزوم (من) صورة واحدة لم يلحقها تغيير ما .

أما أسماء الإشارة والموصولة ، والضمائر ، فتثنيتها وجمعها ليست قياسية وإنما هذان وهاتان ، وهؤلاء من أسماء الإشارة واللذان واللتان والذين واللائى واللاتى من الأسماء الموصولة ، ونحن وأنتما وأنتم وأنتن ، وهما وهم وهن من الضمائر فصيغ وضعت للتثنية وللجمع ، وهكذا صنعت[1] .

النوع الرابع : الأسماء المحكية نحو : تأبط شرا ، وبرق نحره ، وشاب قرناها فهذا النوع من المركب الإسنادى لاتجوز تثنيته ولا جمعه بحال من الأحوال ؛ لأنه منقول من الجملة ، والجمل لاتثنى ولاتجمع كذلك ما نقل منها إلى الاسمية لايثنى ولا يجمع ؛ على أنه يمكن الاستغناء عن تثنيتهما وجمعهما بتثنية وجمع (ذو) مضافين إلى المركب . فيقال : جاء ذوا تأبط شرا ، وذوو تأبط شرا ورأيت ذوَىْ تأبط شرا ، وذوى تأبط شرا . . . إلخ . وعدم تثنية ذلك محل اتفاق من العلماء .

أما المركب المزجى فتثنيته وجمعه اختلف فيهما والأصح أن لا يثنى ولا يجمع على أن أهل اللغة يرون جواز تثنيته وجمعه ، تقول فى التثنية : هذان ساما أبرص[2] .

وفى الجمع هؤلاء سوام أبرص ، وإن شئت قلت : هؤلاء السوام ، ولا تذكر أبرص . وإن شئت قلت هؤلاء البرصة والأبارص .

وإنما أجاز أهل اللغة تثنية المركب المزجى وجمعه حملا على أحد وجهيه فى الإعراب وهو إعراب الأول وإضافته إلى الثانى ، على أن يكون مفتوحا ؛ لأنه ممنوع من الصرف ، فيكون المركب المزجى فى ذلك قد أجزوه

---

(١) انظر التصريح بحاشية يس ٢٦٧/١ حاشية عبادة على الشذور ٦٩/١ – ٧٠ ، المغرب لابن عصفور ٢ / ٤٢ – ٤٣ ؛ الهمع ١ / ٤٢ – ٤٣ .

(٢) سام أبرص : كبار الوزغ .

مجرى المركب الإضافى حيث الاتفاق على تثنيته وجمعه وارد عند اللغويين والنحويين[1]

الخامس : العلم الباقى على علميته لا يثنى ولا يجمع بل يتعين عند إرادة تثنيته أو جمعه تنكيره ، ثم يثنى بزيادة ألف ونون رفعا وياء ونون نصبا وجرا ، ثم يعوض عن علميته بأل فى التثنية والجمع فيقال : الزيدان والزيدين رفعا ونصبا أو جرا والزيدون والزيدين رفعا ونصبا أو جرا ، وأل فى الأمثلة عوض عن سلب العلمية من المفرد .

السادس : كنايات الأعلام نحو فلان وفلانة ، فلا يقال فيهما فلانان ولا فلانتان لأنها لا تقبل التنكير حيث وضعت موضع أسماء الإشارة وأسماء الإشارة لا تقبل التنكير وشرط المثنى أن يكون منكرا .

السادس : المثـنى لا يثنى ، والجمع لا يثنى ولا يجمع ، فلا يقال : محمدانان ، ولا محمدونان ، لاجتماع إعرابين فيهما ، لا هنداتان ، لأن لا فائدة من تثنية المثنى ولا الجمع حيث لا يزيد المعنى بها عما كان عليه قبلها .

السابع : الاسمان المختلفان لفظا ومعنى نحو: أب وأم ؛ فهذا ما يتعين فيه العطف بالواو نحو : هذان أب وأم ، على أن العرب قد توسعوا فى مثلهما فغلبوا أحد اللفظين على الآخر مراعين فى ذلك الأشرف والأخف والمذكر . إلخ

كما سنعرض له بعد ، ثم ثنوهما فقالوا: الأبوان فى الأب والأم ، ومنه فى القرآن الكريم « وما يستوى البحران هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج » (فاطر ١٢) .

الثامن : الاسمان المتحدان لفظا ، المختلفان معنى كالعين للباصرة والجارية ومنه الحقيقة والمجاز : أما قولهم : القلم أحد اللسانين فشاذ .

هذا — وقد تردد ابن الحاجب فى تثنية المشترك وجمعه باعتبار معانيه المختلفة كقولك: القرءان للطهر والحيض ، والعيون لعـين الماء وقرص الشمس وعين الذهب : فقد منعه فى شرح الكافية ، لأنه لم يوجد مثله فى كلامهم مع الاستقراء ، وجوزه على الشذوذ فى شرح المفصل .

وذهب الجزولى والأندلسى وابن مالك إلى جواز مثله ، قال الأندلسى : يقال : العينان فى عين الشمس ، وعين الميزان ، فهم يعتبرون فى التثنية والجمع الاتفاق فى اللفظ دون المعنى ، وهـذا قريب من مذهب الشافعى — رحمه الله — وهو أنه إذا وقعت الأسماء المشـتركة بلفظ العموم نحو قولك

---

(١) انظر تهذيب الأسماء واللغات للنووى ٣/ ١٥٥ ، ويس على الفاكهى ١/ ٨٢ .

(الإقراء) حكمها هكذا ؛ أو فى موضع العموم كالنكرة فى غير الموجب نحو : ما لثيت عينا ، فإنها تعم فى جميع مدلولاتها المختلفة كألفاظ العموم سواء[1] .

التاسع : ما لا ثانى له فى الوجود نحو : الشمس والقمر ؛ فلا يقال : شمسان ولا قمران ؛ إلا من باب التغليب ؛ وهو ضرب من المجاز أو التوسع فى لسان العرب .

العاشر : لفظ (بشر) ومعناه الخلق ، يقع على الأنثى والذكر والواحد والاثنين والجمع فلا يثنى ولا يجمع ؛ يقال : هو بشر . وهى بشر ؛ وهما بشر ؛ وهم بشر كذا فى الصحاح .

وفى المحكم : البشر محركة ذكرا كان أو أنثى واحدا أو جمعا ؛ وقد يثنى وفى التنزيل : « أنؤمن لبشرين مثلنا »[2] قال بعضهم ؛ ولعل العرب حين ثنوه قصدوا به الواحد كما هو ظاهر[3] .

وذلك المطلوب الإيمان بعيسى عليه السلام — وحده — لأنه هو هو الرسول الداعى إلى ربه ؛ وليست أمه كذلك . وعليه فبشرين من قبيل المثنى الذى وضع موضع المفرد .

ما اختلف فى تثنيته وافراده :

قال ابن خالويه مما جاء لفظه كلفظ التثنية لبيك ، وحنانيك وحواليك ؛ وكذا بين ظهرانَيهم ، وظهرَيْهم . وقد اختلف النحاة فيه : فمن يرى أنه مثنى[4] قال : أنا مقيم ملب إلبابا وإجابة بعد إجابة ، وسعدتك إسعادا بعد إسعاد .

وزعم يونس أنه غير مثنى[5] قال : إنما هو : لبيك ؛ فاستثقلوا ثلاث باءات فقلبوا أخراهن ياء[6] .

إلا أن مذهب يونس إن استسيغ فى لبيك على أنه مفرد فلن يقبل فى سعديك وهذا ذلك لعدم تأتى نحو فعَّلى مضعف العين واللام ، إلا أن يقال زيدت الياء

---

(١) انظر شرح الكافية للرضى ١٧٢/٢ .

(٢) المؤمنون / ٤٧ .

(٣) انظر التاج (بشر) .

(٤) هذا مذهب الجمهور .

(٥) هذا ما ذهب إليه يونس بن حبيب .

(٦) كتاب ليس فى كلام العرب لابن خالوية / ٣٤١ ، وأمالى الزجاج ٨٣ — ٨٤ .

فى سعديك وهذا ذيك للازدواج مع لبيك والعرب تزيد وتنقص للمشاكله مما لا يقبله نقل ولا عقل .

وفى التاج : مما لزم التثنية والنصب وحذف الناصب (حنانيك) وفى الحديث « حنانيك يارب » أى ارحمنى رحمة بعد رحمة ، وهو من المصادر ، المثناة التى لا يظهر فعلها كلبيك وسعديك . وقالوا حنانك بالإفراد ، وحنانيك بالتثنية ، أى تحنن علىّ مرة بعد مرة ، وحنانا بعد حنان[1] .

وخلاصة القول : أن هذه مصادر جئ بها ملحقة بالمثنى لفظا ، ومعناها التكرار والمبالغة فى الحديث ، ويرى الجمهور أنها منصوبة على أنها مفعول مطلق منصوب بالياء لأنها ملحقة بالمثنى ، والعامل فيها فعل محذوف وجوبا[2] .

تقسيم المفرد بالنسبة للتثنية :

ينقسم المفرد بالنسبة إلى المثنى إلى ضربين :

الأول : مفرد له مثنى قياسى ، وهو كثير وغالب فى العربية ولا سيما إذا كان مما تحققت فيه الشروط الثمانية التى عرضنا لها فى شروط المثنى القياسى ؛ من ذلك زيد والزيدان ، ورجل ورجلان ، وأرض وأرضان ، وسماء وسماوان . . الخ .

الثانى ليس له مثنى وهو نوعان :

أحدهما : مفرد لا مثنى له البتة مثل ألفاظ العدد المفردة ما عدا المائة والألف وأسماء الشرط والاستفهام ، وكافة وجميع المصادر مالم يرد بها التنويع ؛ لكون ألفاظ العدد يستغنى عن تثنيتها بمضاعفاتها وعمومية أسماء الشرط والاستفهام ، وصلاحية المصادر للمفرد وغيره ، والمذكر وغيره لإفادتها الجنس ؛ ومثل المصدر مايفيد الاستغراق من الألفاظ نحو أحد وديار وعريب من كل ما لزم النفى ، وكل ما ذكرته آنفا من الأنواع والأجناس التى لا تثنى ولا تجمع .

الثانى : ما ليس له مثنى قياسى ، بل سماعى كوقوع (نحن) مثنى لـ (أنا) (وأنتما) مثنى (أنتَ أو أنتِ) وهما ، مثنى (هو أو هى) إذ قياس مثنى (أنا) أنوان ، وقياس مثنى (أنتَ وأنتِ) أنتان ، وقياس مثنى (هو وهى) هوان وهيان ، وهذه المثنيات القياسية مرفوضة فى اللغة استعمالا .

---

(١) للتاج ٩/ ١٨٥ وانظر الجمل للزجاجى /٣٠٦ والصحاح للجوهرى (لب) .

(٢) انظر المقنع فى الدراسات النحوية للباحث / ٣١ – ٣٣ ، والمخصص ١٣ / ٢٣٣

تقسيم المثنى بالنسبة للمفرد :

لم يكن لكل مثنى مفرد استعملته العرب وإن غلب ذلك فى كلامهم ؛ من هنا يمكن لنا تقسيم المثنى بالنسبة للمفرد إلى الأنواع الآتية :

الأول : مثنى له مفرد وهو الذى يجرى عليه سنن العربية ، وهو من الظهور والوضوح بمغن عن القول فيه .

الثانى : مثنى ليس له مفرد مستعمل وهذا من النوادر فى العربية مثل : (المذروان) فودا الرأس ؛ يقال : شاب مذرواه ، وهما طرف الأليين كذلك »[1].

وكذلك : اثنان واثنتان فى لغة أهل الحجاز ، وثنتان فى لغة بنى تميم وكلا وكلتا ، حيث لم يستعمل لهما مفرد فى الأصح ، فلا يقال : (اثن ولا اثنة) ولا (كِلٌ ولا كِلْتَة) .

قال ثعلب فى أماليه : الاثنان لا واحد لهما والواحد لا تثنية له ، وفى موضع آخر قال : الواحد عدد لا يثنى .

وقال البطليوسى فى شرح الفصيح مما استعمل مثنى ولم يفرد (الأنثيان) وهما واقعان على خصيتى الإنسان . ولم يقولوا أنثى . على أن أبا الطيب اللغوى قال فى كتابه (شجر الدر) : والأنثى البيضة من الخصيتين ؛ ومن حفظ حجة على من لم يحفظ ، والمثبت مقدم على النافى لزيادة علمه .

وقال الزجاجى فى أماليه : (جاء يضرب أزدريه) إذا جاء فارغا . وكذلك (جاء يضرب أصدريه) بإبدال الزاى صادا لتقاربهما مخرجا واتحادهما فى الصغير . وكذلك حواليك ولبيك وسعديك وهذا ذيك . . الخ على القول بأنها مثناة جئ بالتثنية لغرض المبالغة وقولهم : عقل بعيره بثنايين . غير مهموز لأنه ليس له واحد ؛ وفى الصحاح : لم يهمز لأنه لفظ جاء مثنى ؛ لا يفرد له واحد »[2].

الثالث : مثنى له أكثر من مفرد نحو : هاتان المرأتان ، فإذا أفردت قلت : هذى

---

(١) انظر كتاب ليس فى كلام العرب / ٣٣٤ ، وأمالى ابن الشجرى ١ / ١٩ ؛ والمخصص لابن سيده ١٥ / ١١٤ وجنى الجنتين لمحمد أمين المحبى / ١٠

(٢) انظر شرح الكفراوى على الأجرومية / ٢٦ ، وحاشية أبى النجا على الأزهرية / ٢٧ ومعانى القرآن للفراء ٢ / ١٤٢ — ١٤٣ ؛ والمخصص ١٤ / ٩٤ ؛ وجنى الجنتين / ١٠ — ١١

المرأة ، وذى المرأة ، وهذه : وهاتا ، وتا وذه ، وكل ذلك محكيٌّ ، ومنه قول الشاعر

فهذى سيوف ياصُدَىَّ بن مالك
كثير ولكن أين للسيف ضارب[1]

الرابع : مثنى لم تستعمل له العرب مفردا واستعمله العامة ، ويسمى مثنى لفظا فقط نحو : الجلمان (ما يجزُّ به) ، والمقراضان (ما يقطع به) ، والكلبتان (ما يأخذ به الحداد الحديد المحمى) ، ذلك لأن الكلبة الواحدة ، والمقراض الواحد والجلم الواحد لا يقطع .

الخامس : مثنى مفرده إما جمع لفظا ومعنى نحو : إبلان وغنمان وجمالان قال عمرو ابن العداء الكلبى :

لأصبح القوم أو بادا ولم يجدوا
عند التفرق فى الهيجا جمالين

وإما جمع فى المعنى فقط نحو : فئتان ، وطائفتان وجمعان ومائتان وألفان .

طرائق التثنية فى العربية :

تعددت أساليب التثنية فى العربية إلى ألوان مختلفة وهذه يمكن حصرها فى الأنواع الآتية :

أولا : التثنية بالزيادة :

إن التثنية بزيادة ألف ونون رفعا ، وياء ونون نصبا وجرا هى ملاك كلام العرب وعليها قياس اللغة ، ويمثل هذا النوع الكثرة الكاثرة من المثنيات ، وهى المتبادرة إلى الأذهان ، والمطابقة لظاهر حال الأسلوب العربى ، كما أنها لا تحتاج إلى قرينة صارفة إليها بخلاف غيرها من الأنواع الأخرى التى سنعرض لها ، وذلك لكونها وفقا للأصول التى بنيت عليها هذه اللغة مع فهم المراد منها دون لبس أو خفاء نحو : حضر رجلان ، ورأيت رجلين ومررت برجلين فالألف والنون حال الرفع ، والياء والنون حالى النصب والجر زيدتا للإيجاز ، إذ استغنى بهما عن العاطف والمعطوف فى نحو جاء رجل ورجل ، وهذا هو أصل المثنى ، على أنه أصل مرفوض فى قياس النحويين ولن يعدل إليه إلا فى أمور سنعرض لها فى لون آخر من التثنية

ثانيا : التثنية بالعطف وهى الأصل :

(ا) إذا اختلف اللفظان[3] ومعناهما نحو قول حسان :

إن شرخ الشباب والشعر الأسود
ما لم يعاص كان جنونا

(١) كتاب ليس فى كلام العرب / ٣٣٤ .
(٢) المرجع السابق / ٣٤٠-٣٤١ .
(٣) انظر شرح جمل الزجاجى لابن عصفور ١ / ١٣٥ .

فقد ذكر اثنين : شرخ الشباب والشعر الأسود . وإنما جاء بالعطف لاختلافهما لفظا ومعنى ، وقد أعاد الضمير مفردا فى (ما لم يعاص) وإن كانا لاثنين ؛ وذلك لأن كل واحد منهما بمنزلة الآخر ، فجريا مجرى الواحد ؛ ألا ترى أن شرخ الباب هو أسوداد الشعر ، ولولا أنهما لاصطحابهما صارا بمنزلة المفرد : كان حق الكلام أن يقال

(يعاصيا)وأشد من هذا قول القائل يصف رجلا مغتربا فى فلاة :

أخو الذئب يعوى والغراب ومن يكن
شريكيه يطمع نفسه شر مطمع

جعل الذئب والغراب بمنزلة الواحد . فأعاد إليهما ضميراً مفردا لأنهما كثيرا ما يصطحبان فى الوقوع على الجيف ؛ ولولا ذلك كان حقه أن يقول ومن يكونا شريكيه ، فهذا أشد من الإفراد فى بيت حسان : لأنه أفرد المضمر (يكن) وجاء بالخبر مثنى [١]

وكذلك إذا نعت غير الواحد وكان النعت مختلفا وجب التفريق بالعطف نحو : مررت بالزيدين : الكريم والبخيل . قال ابن مالك
ونعت غير واحد إذا اختلف
فعاطفا فرقه... [٢]

(ب)إذا أريد التكثير نحو قول الشاعر :

لو عد قبر وقبر كان أكرمهم
بيتا وأبعدهم عن منزل الذام

فقال : قبر وقبر ، ولم يقل : قبران لإفادة الكثرة .

(ج)إذا فصل بين الاسمين المتفقين لفظا بالنعت ، وهو إما مصرح به فى اللفظ نحو :مررت برجلين : رجل مسلم ورجل كافر .

وإما مقدر نحو : عندى من العبيد ألف وألف : أى ألف رجال وألف نساء .

(د)ضرورة الشعر نحو قول واثلة بن الأسقع الصحابى — رضى الله عنه .

ليث وليث فى محل ضنك
كلاهما ذو أشر ومحك

وقول أبى نواس :

أقمنا بها يوما ويوما وثالثا
ويوماله يوم الترحل خامس

وقول الآخر :

* أنجب عرس ولدا وعرس *

(١) انظر الأمالى للشجرية ١ / ٣٠٩ وما بعدها :

(٢) ابن عقيل بتحقيق محيى الدين عبد الحميد ٢ / ٢٠١ :

يقول البغدادى : على أن أصل المثنى العطف ، فلذلك يرجع إليه الشاعر فى الضرورة . . .

قال ابن الشجرى فى أماليه : التثنيه والجمع المستعملان أصلهما التثنية والجمع بالعطف فقولك : جاء الرجلان ومررت بالزيدين أصله جاء الرجل والرجل ، ومررت بزيد وزيد: فحذفوا العاطف والمعطوف ، وأقاموا حرف التثنية مقامهما اختصارا وصح ذلك لاتفاق الذاتين فى التسمية بلفظ واحد ، فإن اختلف لفظ الاسمين رجعوا إلى التكرير بالعطف : كقولك : جاء الرجل والفرس .

(هـ) إذا كان الاسمان علمين باقيين على علميتهما نحو : زيد وزيد : تريد : زيد ابن فلان ، وزيد بن فلان ، ومنه قول الحجاج :

* إن لله محمدا ومحمدا فى يوم واحد *

يعنى ابنه محمدا ، وأخاه محمدا ، وفى ذلك يقول الفرزدق :

إن الرزية لا رزية مثلها
فقدان مثل محمد ومحمد

(و) إذا اتفق الإسمان فى اللفظ ، ولم يتفقا فى المعنى ، ولا فى المعنى الموجب للتسمية نحو : رأيت المشترى والمشترى تعنى بأحدهما الكوكب ، وبالآخر قابل عقد البيع[1]

ثالثا : التثنية بالنيابة :

(أ) نيابة المفرد عن المثنى :

الأصل أن يدل على الفردية بالمفرد وعلى التثنية بالمثنى إلا أن العرب قد تعدل عن ذلك لمعان هى قائمة فى أنفسهم قد تدركها تارة وقد لا ندركها منها :

(أ) أن يكون الشيئان متلازمين فيذكر أحدهما اجتزاء به عن الآخر ، حيث يقوم أحد الشيئين مقام الاثنين معا ، من ذلك العينان والرجلان واليدان ، والأذنان. . إلخ من الأعضاء المزدوجة .

يقول ابن الشجرى : يجوز أن تعبر عن العضوين (أى المتماثلين) بواحد وتفرد الخبر حملا على اللفظ تقول : عينى رأته وأذنى سمعته ، وقدمى سعت فيه ، وإنما استعملوا الإفراد فى هذا تخفيفا ، وللعلم بما يريدون فاللفظ على الإفراد والمعنى على التثنية .

---

(١) انظر المقرب لابن عصفور ٢ / ٤١ — ٤٢ ، وشرح جمل الزجاجى لابن عصفور ١ / ١٣٥ وما بعدها ، والخزانة ٣ / ٣٤٠ .

ويجوز مع الإفراد عود الضمير مثنى حملا على المعنى كما فى قول امرئ القيس:

وعين لها حدرة بدرة
شقت مآقيهما من أخر

وكان مقتضى الظاهر أن يقول : مؤقها أو مؤقاها إلا أنه عدل عن الإفراد إلى التثنية حملا على المعنى ، كما نلحظ أنه جمع (مآق) فى مقام التثنية .

وقول الآخر :

إذا ذكرت عينى الزمان الذى مضى
بصحراء فلج ظلتا تكفان

فقال : ظلتا حملا على المعنى لأنه ذكر عينا وأراد عينين اجتزاء بأحداهما عن الأخرى[1] .

ومن المتلازمين وليسا بعضوين الإنسان الكافر وقرينه من الجن نحو قوله تعالى « حتى إذا جاءنا قال ياليت بينى وبينك بعد المشرقين ... »[2] قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائى وحفص بالإفراد ، يعنى الكافر يوم القيامة ، والباقون (جاءانا) على التثنية يعنى الكافر وقرينه ، وقد جعلا فى سلسلة واحدة . . . وقراءة التوحيد — وإن كان ظاهرها الإفراد — فالمعنى لهما جميعا لأنه قد عرف ذلك بما بعده[3] .

ومثل ما تقدم قوله تعالى « إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد»..[4] وإنما قال (قعيد) ، ولم يقل (قعيدان) وهما إثنان ؛ لأن المراد عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد ؛ فحذف الأول لدلالة الثانى عليه قاله سيبويه ومنه قول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما
عندك راض والرأى مختلف

وقال الفرزدق :

إنى ضمنت لمن أتانى ماجنى
وأبى فكان وكنتُ غير غدور

ولم يقل : راضيان ولاغدورين . ومذهب المبرد . أن الذى فى التلاوة أول آخر اتساعا وحذف الثانى لدلالة الأول عليه .

ومذهب الأخفش والفراء : أن الذى فى التلاوة يؤدى عن الاثنين والجمع ؛ ولا حذف فى الكلام ، . : وقال الجوهرى:

---

(١) انظر الأمالى ١ / ١٢١ ، ١٢٢ ، وانظر الخزانة ٣ / ٣٦٩

(٢) الزخرف / ٣٨ .

(٣) القرطبى ١٦ / ٩٠

(٤) ق / ١٧ .

فعيل وفعول مما يستوى فيه الواحد والاثنان والجمع كقوله تعالى : « إنا رسول رب العالمين » الشعراء / ١٦ وقوله : « والملائكة بعد ذلك ظهير » التحريم / ٤ وقال الشاعر

ألكنى إليها وخير الرسو
ل أعلمهم بنواحى الخبر[١]

ومنه قوله تعالى : « كلا لينبذن فى الحطمة »[٢] المراد لينبذن هو وماله ، فأفرد لكونهما كالشئ الواحد ، فقد قرأ بالإفراد وأراد الاثنين بدليل قراءة الحسن ومحمد بن كعب ونصر بن عاصم ومجاهد وحميد وابن محيض « لينبذان » بالتثنية : أى هو وماله.[٣]

(ب) صلاحية اللفظ للواحد والاثنين والجمع كما تقدم فى نحو : قعيد وظهير على مذهب الجوهرى ونحو (ماء) فى قوله تعالى « فالتقى الماء على أمر قد قدر »[٤] أراد : الماءين : ماء الأرض وماء السماء ، ولا يجوز التقاء إلا لاسمين فما زاد ، وإنما جاز فى الماء ؛ لأن الماء يكون جمعا وواحدا[٥]

(ج) الاستغناء بأحدهما عن الآخر نحو قوله تعالى : « سرابيل تقيكم الحر »[٦] يريد والبرد فاجتزأ بأحدهما ، لأنه معلوم ، وهى تقى الحر والبرد .

ومثله كقول الشاعر :

ومـــا أدرى إذا يممت وجها
أريد الخير أيهمـــا يلينى

يريد : أى الخير والشر يلينى ؛ لأنه إذا أراد الخير ، فهو يتقى الشر ، وقد فسره بقوله :

أألخير الذى أنـــا أبتغيـــه
أم الشر الذى هـــو يبتغينى

أراد : لا يألو جهدا فى طلبى[٧] .

---

(١) القرطبى ١٧ / ٩ — ١٠ ، ١٨ / ١٩١ ، ١٣ / ٩٣ ، وانظر التبيان لأبى البقاء العكبرى ١١٣٩ ، ١١٧٤ ، البحر ٨ / ١٢٣ .

(٢) الهمزة / ٤ .

(٣) القرطبى ٢٠/١٨٤ ، والتبيان لأبى البقاء العكبرى /١٣٠٣

(٤) القمر /١٢

(٥) معانى القرآن للفراء ٣/١٠٦

(٦) النحل / ٨١

(٧) معانى القرآن للفراء ٢/١١٢ ، والقرطبى . . — ١٦٠

(د) إفادة المفرد العموم نحو قول أبي ذؤيب الهذلي :

فآليت لا أنفك أحذو قصيدة
تكون وإياها مثلا بعدي

الأصل : تكون القصيدة والمرأة مثلين فأوقع المفرد (مثلا) موقع المثنى كما يقع موقع الجمع لما فيه من العموم المقتضى للكثرة[1] ومنه قوله تعالى : «هل يستويان مثلا» (الزمر ٢٩) ولم يقل مثلين لإفادة المثل العموم كما سبق ، فمثل يوصف به المفرد المثنى والمجموع والمذكر والمؤنث؛ ولا يؤنث ، وقد يطابق تثنية وجمعا[2].

(هـ) كون الاثنين شأنهما واحد فينزلان منزلة المفرد نحو قوله تعالى : « وجعلناها وابنها آية للعالمين » الأنبياء / ٩١ ، وقوله تعالى : « وجعلنا ابن مريم وأمه آية » المؤمنون / ٥٠ ، ولم يقل فيهما (آيتين) كما قال في قوله « وجعلنا الليل والنهار آيتين » الإسراء / ١٢ . ذلك لأن شأن عيسى وأمه واحد ، بخلاف الليل والنهار فأمراهما مختلفان .

ويحتمل أن يكون المراد في جانب عيسى عليه السلام وأمه (قصتهما) ، وقال القرطبي : المعنى وجعلنا شأنهما وأمرهما وقصتهما آية للعالمين وقال الزجاج :

إن الآية فيهما واحدة ، لأنها ولدته من غير فحل ، وقدره سيبويه فقال : «وجعلناها آية للعالمين» ، وجعلنا ابنها آية للعالمين ، ثم حذف ، وعلى مذهب سيبويه يكون قد اكتفى بإحدى الآيتين عن الأخرى . وقال الفراء : وجعلناها آية للعالمين وابنها ، مثل قوله جل ثناؤه : « والله ورسوله أحق أن يرضوه » [3] فجعل الآية للأبعد دون الأقرب .

(ب) نيابة الجمع عن المثنى :

الأصل في البيان العربي استعمال المثنى في مقام التثنية ، والجمع فيما يقتضيه والمفرد فيما يدعو إليه المقام ، وهذا اللون من الاستعمال يدعونه بالاستعمال الحقيقي وقد تعدل العرب عنه إلى استعمال المفرد في مقام التثنية أو العكس والجمع في مقام التثنية أو العكس وهذا النوع من ألوان المجاز في الاستعمال العربي ، ومرده السماع .

---

(١) الخزانة ٣/٥٩٧ – ٥٩٩د

(٢) انظر البحر ٦/٤٠٨

(٣) انظر القرطبي ١١/٣٣٨ ، والبحر ٦/٤٠٨ ، ومعاني القرآن للفراء ٢/٤١٩ ، والتبيان لأبي البقاء العكبري / ٩٢٦

وإنما تعمد العرب إلى استعمال الجمع مع إرادة المثنى لما بينهما من التقارب من حيث كانت التثنية عددا تركب من ضم واحد إلى واحد ، وأول الجمع وهو الثلاثة تركب من ضم واحد إلى الاثنين لذلك قال الخليل : إن الاثنين جمع[1]

كما أن العدول عن التثنية إلى الجمع لا يخلو من نكتة تسوغ التعبير بالجمع دون المثنى كما فى قوله تعالى : « ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أوكرها قالتا أتينا طائعين » .[2]

فقد أعاد الضمير إلى السماء مفردا مؤنثا فى قوله « فقال لها » ثم ثنى الضمير فى قوله : « قالتا » باعتبار الجنسين : أى جنس السموات وجنس الأرض ، ثم جمع فى قوله : « طائعين » وذلك باعتبار أفراد الجنسين[3] .

وفى الآية شاهد على إجراء مالا يعقل إجراء من يعقل إذا نسب للأول مما هو للثانى إذ الطاعة لا تقع إلا من المكلفين العقلاء ، ولمـــا استعير وصفهم للسماء والأرض بقيت الصفة على اختصاصها من صحة جمعها جمع مذكر سالما ، ومثل ذلك قوله تعالى : « إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين[4] » .

وقوله تعالى « إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين »[5] والأصل - والله أعلم - ساجدات وخاضعات ، أو ساجدة وخاضعة إلا أن الصفة لما كانت لمن يعقل بقيت محتفظة بخاصيتها وهى جمعها جمع مذكر سالما ولو كان موصوفها غير عاقل ، وقد وفيت القول فى ذلك فى مبحث جمع المذكر السالم .

كما أن (طائعين) فى مقابل (طوعا أو كرها) و (طائعين) وقع حالا من أفراد السموات والأرض ، وهذا دليل على صحة وقوع المصدر حالا ، وحيث ثبت وقوع أحد المتقابلين حالا فيثبت

---

(١) ينظر الأمالى الشجرية ١ / ١٢ ، ١٣ والهمع ١ / ٥٠ والجمل للزجاجى ٣١٢ ، وشرح الجمل لابن عصفور ٢/٤٤٤

(٢) فصلت / ١١

(٣) انظر عبادة ١/٤٩ والأمالى الشجرية ١/٣١٢

(٤) يوسف / ٤

(٥) الشعراء / ٤

للآخر كذلك ، وإذا ثبتت الحالية لـ (طوعا أو كرها) اللذين هما مصدران ثبتت الحالية لنظرائهما كذلك من المصادر نحو جاء زيد ركضا وقتلته صبرا[1] .

ومن وقوع الجمع مع إرادة التثنية قوله تعالى : « إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما »[2] ولم يقل : قلباكما ؛ إذ المعنى بالخطاب : عائشة وحفصة رضى الله عنهما[3] قال القرطبي : ومن شأن العرب إذا ذكروا الشيئين من اثنين جمعوهما ؛ لأنه لا يشكل وقيل كلما ثبتت الإضافة فيه مع التثنية فلفظ الجمع به أليق ؛ لأنه أمكن وأخف[4] وقال أبو البقاء العكبرى إنما جمع وهما اثنان ؛ لأن لكل إنسان قلبا ، وما ليس في الإنسان منه إلا واحد جاز أن يجعل الاثنان فيه بلفظ الجمع ، وجاز أن يجعل بلفظ التثنية ، وقيل : وجهه أن التثنية جمع[5] .

وقال في البحر : وأتى بالجمع في (قلوبكما) وحسن ذلك إضافته إلى مثنى والجمع في مثل هذا أكثر استعمالا من المثنى والتثنية دون الجمع كما قال أبو ذؤيب :

فتخالسا نفسيهما بنوافذ
كنوافذ العبط التى لا ترقع

وهذا كان القياس ؛ وذلك أن يعبر بالمثنى عن المثنى ؛ لكن كرهوا اجتماع تثنيتين فعدلوا إلى الجمع لأن التثنية جمع في المعنى[6] .

ومنه قوله تعالى « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا »[7] ولم يقل :

---

(١) انظر حاشية عباده على الشذور ١/٥٠

(٢) التحريم / ٤

(٣) كتاب ليس في كلام العرب لابن خالوية / ٣٣٩ ؛ الجمل للزجاجى ١/٣١٢ وما بعدها وشرح لابن عصفور ٢/٤٤٥ / ٤٤٦

(٤) القرطبي ١٨/١٨٨

(٥) التبيان لأبي البقاء العكبرى ٣/١٢٢٩ ؛ وانظر شكل إعراب القرآن الكريم لمكى ٢/٧٤٢ والأحاجى للزمخشرى / ١٠١ ، وإعراب القرآن للزجاج ٣/٧٨٧ وما بعدها .

(٦) البحر ٨/ ٢٩٠ - ٢٩١ ؛ وانظر المزهر للسيوطى ١/١٩٣

(٧) الرحمن ٣٣

إن استطعتما... كما قال : يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » ولم يقل عليكم فقد ثنى فى (عليكما : وتنتصران) حملا على اللفظ ، وجمع فى قوله إن « استطعتم » حملا على المعنى[1] .

وكذلك قوله « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا »[2] فقال : اقتتلوا ولم يقل اقتتلتا مراعاة للظاهر : لأن الطائفة مفرد لفظا جمع معنى مثل مائة وألف وعشرة[3] .

وقال القرطبي : الطائفة تتناول الرجل الواحد والجمع والاثنين ، فهو مما حمل على المعنى دون اللفظ ؛ لأن الطائفتين فى معنى القوم والناس ، وفى قراءة عبد الله حتى يفيئوا إلى أمر الله ، فإن فاءوا فخذوا بهم بالقسط » وقرأ ابن أبى عبلة (اقتتلتا) حملا على لفظ الطائفتين[4]

ومن وضع الجمع موضع المثنى ما أنشده ابن السكيت :

* والساق منى باديات الربير *

وكان الوجه أن يقول : بادية حملا على لفظ الساق ، أو باديتان ؛ لأن المراد بالساق الساقان ، ولكنه جمع فى موضع التثنية لقرب الجمع من التثنية[5] .

وقالت امرأة من بنى الحارث بن كعب :

لـــو يشأ طار به ذو ميعة
لا حق الآطال نهد ذو خصل

أراد : الإطلين ؛ إذا لمعنى : قد لصقت إطله بأختها من الضمر ، وجمعت الإطل فى موضع التثنية ، وذلك أسهل من الجمع فى موضع الواحد ، كقولهم : شابت مفارقه (وليس له أكثر من مفرق واحد) وقولهم : بعير ذو عثنانين . وليس له سوى عثنون واحد ، وهى شعيرات طوال تحت حنك البعير .

---

(١) معانى القرآن للفراء ٣/١٦ – ١١٧

(٢) الحجرات / ٩

(٣) انظر معانى القرآن للفراء ٣١/٣ ، والأمالى الشجرية ١ / ١٨٨

(٤) انظر للقرطبى ٢٩٤/٨ ، ٣١٦/١٦ ، والبحر ١٨ / ١١١ ، وتأويل مشكل القرآن / ٢٨٢ وما بعدها

(٥) انظر الأمالى الشجرية ١٢٢/١

ولو قالت : لاحق الإطلين بسكون الطاء ، أعطت الوزن والمعنى حقهما[1] إلى غير ذلك من الأمثلة التى يطول بها القول .

وبعد : فوضع الجمع موضع المثنى يكون للنكت التالية :

(أ) الحمل على المعنى كما فى قوله «أتينا طائعين» .

(ب) إضافته إلى مثنى نحو قوله «فقد صغت قلوبكما - فاقطعوا أيديهما» .

(ج) كون المفرد صالحا للواحد والمثنى والجمع كما فى قوله «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا - هذان خصمان اختصموا» .

ومنه النفس والعين إذا أكد بهما المثنى نحو : جاء الزيدان أنفسهما والمحمدان أعينهما ، وذلك بجمعهما جمع قلة (أى على أفعل) وهذه هى اللغة العالية ، ودونها الإفراد والتثنية نحو : جاء الزيدان نفسهما أو نفساهما وإلى اللغة العالية أشار ابن مالك بقوله :

واجمعهما بأفعل إن تبعـا

مـا ليس واحدا تكن متبعا[2]

من هنا يتبين لنا أن جمع النفس والعين مراد به المثنى . أو أن المثنى قد ناب عنه الجمع فى هذا الموطن من كلام العرب .

(د) كون المثنى جمع أو قريب منه نحو قول امرأة من بنى الحارث بن كعب :

إن يشأ طار بـه ذو ميعة

لاحق الآطال نهد ذو خصل

(هـ) وضوح المراد من الواقع نحو قولهم : هو رجل عظيم المناكب ، وإنما له منكبان ؛ ورجل ذو أليات ، وليس له سوى أليين ، وغليظ الحواجب والمرافق والوجنات ، وامرأة ذات أوراك إلخ ومن ذلك قول العجاج :

* على كـراسيعى ومرفقيه *

وإنمـا له كـرسوعـان[3] .

رابعا : التثنية بالتغليب والزيادة :

وإنما يكون التغليب بإطلاق أحد المتصاحبين أو المتشابهين على الآخر . كأن يكون المفردان اختلفا لفظا ومعنى فيغلب المذكر على المؤنث ، والأخف على الأثقل ، والأشهر على من دونه ،

---

(1) انظر الأمالى الشجرية ١ / ١٨٧ - ١٨٨ ، وجنى الجنتين لمحمد أمين المحبى / ٨ وما بعدها

(2) انظر للتصريح بحاشية يس ٢/ ١٢١

(3) المخصص لابن سيدة ١٣/ ٢٣٤ .

والأفضل على غيره . والأسبق على من يليه إلخ ، وهذا اللون من التثنية ضرب من ضروب التوسع أو المجاز فى العربية .

هذا وللعرب طرق متعددة فى هذا اللون أذكر منها الآتى :

(أ) تغليب الأشهر على غير الأشهر نحو قول الشاعر :

ألا من مبلغ الحُرَّيــن عنى
مغلغلة وخص بها أُبيّــا

فالحرين : اسم أحدهما حرّ ، والآخر أبىّ فغلب الأول على الثانى لشهرته ومنه قول الآخر :

جزانى الزهــدمان جزاء سوء
وكنتُ المرءَ يجزى بالكرامة

فأحدهما : اسمه : زهدم ، والآخر اسمه : قيس فغلب الأشهر على غيره منهما .

(ب) تغليب الأخف على غيره فى اللفظ كأن يكون أحد الاسمين مركب والثانى بسيط نحو : أبو بكر وعمر : فيقال فيها : العمران ، بتغليب عمر لخفة اللفظ على أبى بكر لتركيب لفظه ، ومنه قولهم : سيرة العمرين: أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، ومنه : المصعبان : عبد الله بن الزبير وأخوه مصعب بن الزبير .

(ج) تغليب المذكر على المؤنث لشرف الأول على الثانى نحو : أحمر وحمراء فيقال فيهما : أحمران ، بتغليب أحمر لتذكيره على حمراء لتأنيثه ومثله نحو : قائم وقائمة ، فيقال فيهما : قائمان بالتذكير دون التأنيث ، ومنه الأبوان الأب والأم .

(د) وقد تثنى العرب بغير لفظ المفردين كقولهم فى الطعام والنكاح : الأطيبان . وفى الليل والنهار : الملوان : والجديدان والعصران كل ذلك فيهما .

(هـ) تثنية ما تجمعهما صفة واحدة مع اختلاف معناهما كقولهم فى الذهب والزعفران : الأصفران ، وفى البطن والفرج : الأجوفان ، وفى الفقر والعرى : الأمرّان ، دعا أعرابى فقال : أذاقك الله البَرْدَيْن وجنبك الأمرّين وكفاك شر الأجوفين ، البردان : برد الغنى وبرد العافية ، والأمران : الفقر والعرى ، والأجوفان : البطن والفرج[1] .

(١) انظر المخصص ٢٢٣/١٣ وما بعدها .

ما تغير بعض حروفه فى التثنية :

نحن نعلم أن الجموع منها ما لا يتغير فيه صورة مفرده مثل جمع المذكر السالم نحو زيد وزيدون . وجمع المؤنث السالم نحو : هند وهندات . ومنها ما يتغير فيها صورة المفرد وهو جمع التكسير نحو : رجل ورجال ، وبطل وأبطال ، وأسد وأُسد ، وأسود ، وتاج وتيجان وحوت وحيتان ، وبرثن وبراثن إلخ .

أما المثنى فتارة لا يتغير فيه صورة مفردة ، وتارة تتغير :

فالأول : ماكان من الأسماء صحيح الآخر أو شبيها به نحو : رجل ورجلان وتمرة وتمرتان ، ودلو ودلوان ، وظبي وظبيان حيث جاء المفرد على هيئته بزيادة ألف ونون رفعا ، وياء ونون نصبا وجرا فيقال : هذان رجلان ورأيت رجلين ، ومررت برجلين إلخ .

ولم يشذ عن ذلك إلا لفظتان : خصية وألية ، فقد ورد حذف التاء منهما عند التثنية نحو قول امرأة من هذيل :

كأن خصييه مـــن التدلـــدل
ظرف عجوز فيه ثنتا حنظل

وقال آخر :

أخصيْ حمار بات يكدم نجمةً
أتوخذ جاراتي وجارك سالم

بحذف التاء من المثنى مع وجودها فى المفرد ، نقل الإمام المرزوقى عن الخليل أنه قال : الخصية تؤنث ما دامت مفردة ، فإذا ثنوها أنثوا وذكروا . ومثال تثنية (ألية) قول الراجز :

* يرتج ألياه ارتجاج الوطب *

بحذف التاء ولعل ذلك جاء على لغة ثانية فى المفرد وهى « خصى وألى » بحذف التاء منهما ، فمن قال : خصى وألى قال فى التثنية خصيان وأليان ، ومن قال : خصية وألية قال : خصيتان وأليتان ، ودليل خصية قول الشاعر :

لست أبالى أن أكون مُحْمقة
إذا رأيت خصية معلقـــة

قال أبو العباس المبرد : يقال : (خصية وخصى) ، فمن قال : (خصية) قال خصيتان ، ومن قال (خصى) قال خصيان :

ومثله ألية وألى ، فمن قال : (ألية) قال : أليتان ، ومن قال (ألى) قال : أليان .

وقال أبو عمرو الشيباني : الخصيتان : البيضتان ، والخصيان : الجلدتان اللتان فيهما البيضتان [1].

والثاني : وهو ما تتغير فيه بعض حروف المفرد ، وهوأنواع :

الأول : الاسم المقصور وحقيقته : كل اسم معرب آخره ألف لازمة قبلها فتحة ، نحو قفا وفتى ، فإذا ثنيناه فلابد من تحريك الألف ، فترد إلى ما يمكن تحريكه من ياء أو واو ، وإنما وجب تحريكه ، لأنا إذا أدخلنا ألف التثنية اجتمع ساكنان : الألف التي في الاسم المفرد وألف التثنية ؛ فلو حذفنا إحدى الألفين لاجتماع الساكنين لوجب أن نقول في تثنية عصا ورحا : عصان ورحان وكان يلزمنا إذا أضفنا أن نسقط النون للإضافة فيقال : أعجبني رحاك وعصاك فيلتبس المفرد بالمثنى حيث تجمعهما هيئة واحدة ، فوجب التحريك ؛ ولم يمكن تحريك الألف ، فقلبت إلى أصلها الواو أو الياء ، وقد ثبت أن ما كان على ثلاثة أحرف ، والثالث منها ألف ، أن الألف منقلبة من ياء أو واو فترد في التثنية إلى ما هي منقلبة منه ، فتقول في قفا : قفوان ؛ لأنه من قفوت الرجل إذا تبعته من خلفه ، وفي عصا : عصوان ؛ لأنه عصوت الرجل : إذا ضربته بالعصا ؛ وتقول في رجا : رجوان ، وهو ناحية البئر وغيرها قال الشاعر :

فلا يرمى بي الرجوان إنى
أقل القوم من يغني مكاني

وتقول في رضا : رضوان ؛ لأن رضا من الواو بدليل مرضو ورضوان .

هذا فيما ردت فيه الألف إلى أصلها الواو .

وترد الألف إلى أصلها الياء في نحو رحى ورحيان ، وفتى وفتيان وندى ونديان ، وأما قولهم : الفتوة والندوة فإنما قلبت الياء فيهما واوا للضمة قبلها وليس ذلك بقياس مطرد ؛ والدليل على أن الألف منقلبة عن ياء في فتى قولهم في الجمع فتيان وفتية ؛ والجمع والتثنية مما يرد الأشياء إلى أصولها .

فإذا كان المقصور على أربعة أحرف فصاعدا ثنى بالياء مطلقا سواء كان أصل

---

(1) انظر المنصف ٢/١٣١ – ١٣٢ ، ٣٨٤ ، المخصص ١٦ / ٩٨ ، الخزانة ٣ / ٣٥٩ – ٣٦٩ ، فصيح ثعلب / ٨٥ ، أدب الكاتب / ٣١٧ ، والأمالي الشجرية ١ /٢٠ تهميشة – ٢ ، وشرح جمل الزجاجي لابن عصفور ١ / ١٤٠ .

ألفه ياء أو واوا ، فما كان من الواو نحو : مغزى ومغزيان وملهى وملهيان من الغزو واللهو . وماكان من الياء فنحو : مرمى ومجرى تقول فيها مرميان ومجريان من رميت وجريت . وماكان ألفا فى الألف نحو : حبلى وذكرى وما أشبه ذلك يقال فيها : حبليان وذكريان . . . : : . وندر فى هـذا الباب قولهم : مذروان لطرفى الأليين ورأيت المذروين ، وكان القياس مذريان ومذريين ؛ لأن تقدير الواحد مذرى ، غير أنهم لم يستعملوا الواحد مفردا ، فيجب قلب آخره ياء . . . قال الشاعر :

أحولى تنفض استك مذرويها
لتقتلنى فها أنا ذا عمارا

. . . . . وقال الكوفيون : بعض العرب تسقط الألف المقصورة فيما كثرت حروفه إذا ثنوا ، فيقولون فى خوزلى وقهقرى خوزلان وقهقران ، ولم يفرق البصريون بين ماقلت حروفه أو كثرت ، وقدورد فى شعر الفصحاء إثبات الألف ببدلها فى نحو : جماديان ؛ قال لبيد :

آويته حتى تكفت حامدا
وأُهِلَّ بعد جُمادين حرامُها

وأنشد أبو بكر بن دريد :

أصبح زيد خَتَفيشَ العينين
علّته لا تنقض شهرين
شهرى ربيع وجمادين (١)

الثانى : المنقوص الآخر :

المنقوص الآخر على ضربين :

الأول مايرد محذوفه حال النصب : وهو كل اسم معرب آخره ياء لازمة قبلها كسرة نحو قاض وغاز وداع، فإن الياء ترد إليه عند تثنيته وتلحقه ألف ونون فى الرفع ، وياء ونون فى النصب والجر ، نحو : هذان داعيان إلى الله ورأيت داعيين وسررت بداعيين .

الثانى منقوص على غير قياس وهو ما عدا ذلك نحو أب وأخ وحم وهن ، وفى تثنية هذا النوع لغتان :

الأولى : وهى اللغة العالية أن يرد المحذوف ، ثم يزاد عليه علامة التثنية الألف والنون رفعا ، والياء والنون نصبا وجرا ، نحو قوله « فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه » (النساء ١١) وقوله : «يابنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة »

---

(١) انظر المخصص لابن سيده ١٠٢/١٥ ، ١١١ وما بعدها ، والتصريح بحاشية يس ٤٨/١ وانظر التاج ٥١٣/٣

(الأعراف ٢٧) . وقوله : « ولأبويه لكل واحد منها السدس مما ترك إن كان له ولد » (النساء) ١١ .

وكذلك يقال في أخ وحم وهن .(١)

الثانية : وهي قليلة عدم الرد وإيراد التثنية على اللفظ نحو : هما أبان ورأيت أبين ومررت بأبين ، قال الشاعر :

تزهى على تلك الظبا
ء فليت شعرى من أياها
وقف الهوى بي عندها
وسرت بقلبي مقلتاها

قال ابن الشجرى يحتمل قوله (من أباها) ثلاثة أوجه تكتفى بالأول منها وهو أن يكون بمعنى قولك (أبواها) فهو تثنية أب على لغة من قال :

هذان أبان ، ورأيت أبين ، ومررت بأبين فلم يرد له في التثنية كما لم يرد اللام من قال يدان ودمان ، وأنشدوا على هذه اللغة قول الفرزدق :

يا خليلى اسقيانى
أربعا بعد اثنتين
واصرفا الكأس عن الجا
هل يحيي بن حصين
لايذوق اليوم كأسا
أو يغوى بالأبين

وعلى هذا المذهب ثناه المتنبي في قوله :

تسل بفكر في أبَيْكَ فإنما
بكيت فكان الضحك بعد قريب

فوزن (أباها وأبيك) فعاها وفعيك ، وحذفا منها النونين للإضافة (٢) هـذا ولا ترد اللام في التثنية في نحو يد ودم إلا في ضرورة الشعر نحو قوله :

فلو أنا على حجر ذُبحنا
جرى الدميان بالخبر اليقين

وقول الآخر :

يديان بيضاوان عند محلّم
قد تمنعانك أن تضام وتضهدا

والأفصح فيهما دمان ويدان قال تعالى : « يوم ينظر المرء ماقدمت يداه » (النبأ/٤٠) وقوله جل وعلا : « تبت يدا أبي لهب وتب » (المسد/١) ، وقال : « ويوم يعض الظالم على يديه » (الفرقان — ٢٧) .

---

(١) انظر المقرب لابن عصفور ٢/٢٣ — ٢٤ ، والتصريح بحاشية يس ١/٤٨

(٢) الأمالي الشجرية ١/٣٠ — ٣١

ولم يقل : يدياه ولايديبه [1] .

* * *

الثالث : الاسم الممدود : وهو كل اسم آخره همزة قبلها ألف زائدة نحو : سماء وصحراء وهو أربعة أضرب :

الأول : ماكانت همزته أصلية نحو : قُراء ووُضاء من قرأت ووضوئت والوضاء : الجميل من قولهم : وضؤ وجه الرجل إذا حسن وأشرق .

الثانى : ماكانت همزته منقلبة من حرف كقولهم : كساء ورداء . وأصله : كساو وردای .

الثالث : ماكانت الهمزة فيه منقلبة من ياء زائدة كقولهم : حرباء وعلباء وفرشاء . . . وكان الأصل : علبای ، والياء زائدة ؛ لأنك تقول : سيف معلوب ومُعاتب : إذا كان مشدود المقبض بالعلباء.

الرابع : ماكانت همزته منقلبة من ألف تأنيث كقولك : حمراء وخنفساء .

فأما الوجوه الثلاثة الأول : فالباب فى تثنيتها الهمزة كقولك : قراءان ووضاءان وكساءان وعلباءان وحرباءان ، ويجوز فيهن الواو ، وإنما كان الهمز الوجه لأنها الظاهرة فى الكلام ، وهى أكثر فى كلام العرب .

وأما من جعلها بالواو فلا ستثقال الهمز بين الألفين ؛ لأن الهمزة من مخرج الألف فتصير كأنها ثلاث ألفات . وبعض هذه الثلاثة أقوى من بعض فى القلب : فأضعفها فى قلب الهمزة واوا ماكانت الهمزة فيه أصلية كقراء ووضاء . وبعده ماكانت الهمزة فيه منقلبة من حرف أصلى كرداء وكساء لمشاركته الأول فى أن الهمزة غير زائدة ولامنقلبة من زائد . وأما علباء فإن قلب الواو فيه أحسن وأكثر من الأولين ؛ لأن الهمزة فيه منقلبة من حرف زائد . فأشبهت ألف التأنيث فى حمراء وعُشراء .

والذى عند البصريين فى تثنية الممدود المؤنث قلبها واوا ، ولم يحكوا غير ذلك كقولك : حمراوان وعُشراوان .

وذكر المبرد أنهم إنما قلبوها واوا ؛ لأن الهمزة لما ثقل وقوعها بين ألفين فى كلمة ثقيلة بالتأنيث ؛ وأرادوا قلبها كان الواو أولى بها من الياء لأن الهمزة فى الواحد منقلبة عن ألف التأنيث ؛ وليست الهمزة من علامة التأنيث ، وهى بمنزلة الألف فى غضبى وسكرى ، والألف فى غضبى ليس قبلها ساكن ؛ فلم يحتج إلى تغييرها

---

(1) انظر المقرب لابن عصفور ٢/٤٤ ، التبصرة والتذكرة للصيمرى ج٢/ ٧٨٣

فإذا قالوا : حمراء ، أتوا فيها بألف المد لا للتأنيث ، وجعلوا بعدها ألف التأنيث ، ولا يمكن اللفظ بألفين ، ولا يجوز إسقاط إحداهما المقصور ، فقلبوا الألف الثانية إلى الهمزة لأنها من جنسها ، فصارت الهمزة في الواحد ، وليست من علامات التأنيث ، فلما ثنوا جعلوا مكانها حرفا ليس من علامات التأنيث وهو الواو . . . . أو أنهم اختاروا الواو دون الياء التي هي من علامات التأنيث لأن الواو أبين في الصوت من الياء . . .

وقد حكى الكسائي : أن من العرب من يقول : ردايان وكسايان ، فيجتمع فيه على قول الكسائي ثلاث لغات :

١ - رداءان وكساءان بإبقاء الهمزة وزيادة علامة التثنية .

٢ - رداوان وكساوان بإبدال الهمزة واوا مطلقا .

٣ - راديان وكسايان بإبدال الهمزة ياء مطلقا .

ويجيز الكسائي التثنية بالهمز في حمراءان وبابه ، وأجاز أيضا حمل باب حمراء على جميع مايجوز في باب رداء فيقال : حمراءان وحمراوان ، وحمرايان باللغات الثلاث .

وحكى الكوفيون أشياء لم يذكرها البصريون فقالوا : يجوز فيما طال من هذا الممدود حذف الحرفين الأخيرين ، فأجازوا في قاصعاء وخنفساء وحاثياء ونحو ذلك أن يقال : قاصعان وحاثيان ، وقاصعاوان ، وحاثياوان ، واستحسنوا في الممدود إذا كان قبل الألف واو أن يثنوا بالهمزة وبالواو فقالوا في لأواء وخلواء : لأواءان ولأواوان وأجازوا في سوءاء (المرأة القبيحة) : سوءاآن ، وسوءاوان[1] .

نون المثنى

هذه النون عوض عن التنوين ، لذلك حذفت للإضافة مثله ، وعن الإعراب بالحركات فلذا ثبتت مع ال مثلها ، وقيل هي لدفع توهم الإضافة نحو : جاءني خليلان : موسى وعيسى ، ومررت ببنين كرام . ولدفع توهم الإفراد في نحو : جاءني هذان ، ومررت بالمهتدين : أو أنها زيدت للدلالة على تمام الاسم[2]

حذفها :

تحذف نون المثنى للإضافة نحو : هذان غلاما زيد ، وكتابا محمد قال ابن مالك :

---

(١) انظر المخصص لابن سيده ١١٤/١٥ وما بعدها .

(٢) حاشية الخضرى ٤٥/١ ، وحاشية عبادة على للشذور ٦٩/١

نونا تلى الإعراب أو تنوينا

مما تضيف احذف كطور سينا[1]

هذا — وقد جاء حذفها لغير الإضافة لغة بنى الحارث بن كعب وبعض بنى ربيعة كقول الأخطل

أبنى كليب إن عمىّ اللذا

قتلا الملوك وفككا الأغلالا

يريد : اللذان ، ولعل ذلك مختص بصيغة التثنية من المبهات كما حذفت نون الذين فى لغة هذيل فى قوله «وخضتم كالذى خاضوا»[2] أى كالذين ، وقوله جل وعلا « والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون »[3] فقد أفرد فى (جاء وصدق) حملا على اللفظ ، وجمع فى (أولئك) حملا على المعنى .

ومن حذف نون المثنى على لغة بنى الحارث ابن كعب وبعض بنى ربيعة قول الأخطل أيضا

هما اللتا لو ولدت تميم

لقيل فخر لهم صميم

أراد : اللتان . فحذف النون ، ومنه قول الراجز يصف أفعى :

قد سالم الحيات منه القدما

الأفعوان والشجاع الشجعما

أصله القدمان ، فحذف النون ضرورة ، وفى هذا البيت شاهد رفع الفاعل والمفعول لأمن اللبس[4] .

تشديدها :

تشدد نون المثنى من المبهات خاصة نحو : هذانّ وهاتانّ واللذانّ ، واللتانّ عوضا عن الألف المحذوفة من (ذا وتا) والياء المحذوفة من (الذى والتى) عند إرادة تثنيتها ، والتعويض بتضعيف نون المثنى عن المحذوف من المفرد هنا لغة تميم وقيس ؛ وقيل إن تضعيف نون المثنى هنا تأكيد للفرق بين تثنية المبنى والمعرب الحاصل

---

(1) ابن عقيل بحاشية الخضرى ٢ / ٢

(2) التوبة ٦٩

(3) الزمر ٣٣

(4) القرطبى ٢١٢/١ ، وضرائر الشعر للقزاز القيروانى / ١٥٨ ، وتاج العروس ٣٢٥/١٠ وما بعدها والخزانة ٥٠٧/٢ ، والدرر ١/ ٢٢ وما بعدها والخصائص ٢ / ٤٣٠ ، وابن يعيش ٣ / ١٥٤ وما بعدها الأمالى الشجرية ٢ / ٣٠٦ : ٣٠٨ ، وشرح بانت سعاد لابن هشام / ٨٦ ؛ والصحاح (التى والذى) والخزانة ٣٩/٣

بحذف الألف والياء ، وإلى التشديد للعوض أشار ابن مالك بقوله :

* والنون إن تشدد فلا ملامه *

والنون من ذين وتين شددا

أيضا وتعويض بذاك قصدا

ولا يختص ذلك التشديد بحالة الرفع عند الكوفيين ، بل يكون فيها وفي حالتي النصب والجر خلافا للبصريين في زعمهم أن التشديد مختص بحالة الرفع ، حيث قرئ به في السبع قوله « ربنا أرنا اللذينّ » — «إحدى ابنتيّ هاتينّ » وذلك بنصب (اللذين) وجر (هاتين) كما قرىء في حال الرفع به قوله : «واللذانّ يأتيانها منكم — فذانّك برهانان) . . . وتشديد النون حال الرفع قراءة ابن كثير وهي لغة قريش[1] .

حركة النون :

حركة نون المثنى الكسر ؛ لأنها في الأصل تنوين ساكن ، والأصل في تحريك الساكن إذا اضطر إليه أن يكسر قاله الرضى ، وإنما حركت خوف التقاء الساكنين ، وكانت كسرة لأنها الأصل في التخلص من الساكنين ، ولخفة المثنى[2] . وربما ضمت بعد هذه الألف نحو قوله :

يا أبتى أرقنى القِذّانُ

فالنوم لاتألفه العينانُ

بضم النون مثنىً (عين) التى هي الباصرة ، والقِذّان بكسر القاف تثنية (قذّ) وهو البرغوث ، وقيل جمع (قذّ) وهو الزنبور[3] .

وعلى القول بالجمع فلا شاهد ، وحينئذ تكون ضمة نون (العينان) لمشاكلة نون الجمع .

وحكى الشيباني : هما خليلانُ برفع النون ، ومنه قول فاطمة الزهراء — رضى الله عنها — ياحسنانُ ، ياحسينانُ برفع النون والتغليب[4] .

هذا — وقد جاء فتحها لغة ، زعم الكسائي أن فتح نون المثنى مع الياء لغة لبني زياد بن فقعس ، وكان لا أحد يزيد عليهم فصاحة .

---

(١) انظر التصريح ١/ ١٣٢ ، والأشموني ١/ ١٤٧ — ١٤٨ ، كتاب ليس في كلام العرب / ٣٣٦ والأمالي الشجرية ٢/٣٠٦ . والصحاح للجوهري (لي —لذى)

(٢) انظر شرح المقتصد ١/ ١٩٢

(٣) عيادة على الشذور ١/٦٩

(٤) الدرر ١/ ٢٢ ، التاج ٩/١٧٧ ، والخزانة ٣ /٣٣٧ ، ٣٣٨

وقال الفراء : هى لغة لبعض بنى أسد أنشدنى بعضهم .

على أحوذيينَ استقلت عشية

فما هى إلا لمحة وتغيب

وشاهد فتحها مع الألف قول الشاعر :

أعرف منها الجيد والعينانا

ومنخرين أشبها ظبيانا[1]

وذلك بفتح النون لغة بنى أسد فى الأحوال الثلاث كما ذكره فى الدرر ، ولزوم المثنى الألف على لغة بنى الحارث بن كعب .

الغرض من ألف المثنى ويائه :

زادت العرب على المفرد عند إرادة تثنيته ألفا حال الرفع ؛ وياء حال النصب والجر عوضا عن العاطف والمعطوف فنحو الزيدان الألف فيه عوض عن حرف العطف والمعطوف فى أصله المرفوض وهو : زيد وزيد

وكذلك الياء حال النصب [2] . كما أن دخول ال على المثنى عوض عن سلب العلمية من مفرده ؛ إذ العلم لايثنى إلا إذا سلب علميته فيصير نكرة ثم يثنى ، وبعد التثنية تدخل (ال) عوضا عنها .

الفرق بين نون المثنى ونون الجمع والتنوين :

يقول ابن الشجرى : إن النون التى تزاد فى التثنية والجمع — وإن كانت توافق التنوين فى أنها تحذف فى الإضافة ، فإنها تخالفه بثبوتها فى مواضع لايثبت فيها التنوين ؛ فمن ذلك ثبوتها مع الألف واللام فى نحو : الزيدان والزيدون وفى النداء فى قولهم : يازيدان : ويازيدون ؛ وفى باب التبرئة (لا النافية للجنس) فى نحو لا زيدين عندى ؛ ولازيدين . وإذا كانت النون مخالفة للتنوين فى هذه الأماكن فليس بمستنكر أن يجوز ثباتها مع الضمير فى نحو هذان مكرماك ، وهؤلاء مكرموك . . إلخ وإن لم يجز ثبات التنوين[3] .

مذاهب العرب فى اعراب المثنى :

تعددت مذاهب العرب فى إعراب المثنى إلى اللغات التالية :

الأولى : إعرابه بالحروف ؛ بالألف رفعا : والياء نصبا وجرا نحو قوله تعالى : «قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما»[4] ، وقال : واضرب لهم مثلا رجلين...»[5] ،

---

(١) الدرر ١/٢١ ، المساعد على تسهيل الفوائد ١/ ٣٩ . والخضرى على ابن عقيل ١ / ٤٥–٤٦ .

(٢) انظر شرح المقتضب ١/١٨٣

(٣) الأمالى الشجرية ١/ ١٩٧ — ١٩٨

(٤) المائدة / ٢٣

(٥) الكهف / ٣٢

وقولنا : سلمت على الرجلين ، فانظر كيف رفع فى الآية الأولى بالألف ، وفى الثانية نصب وعلامته الياء ، وفى المثال جر والياء دليل عليه .

فهذى اللغة أشهر لغات المثنى وأعلاها ، وأكثرها دورانا على ألسنة الفصحاء ، ذلك لأن تغير الإعراب يستلزم تغير المعانى ، ويرفع اللبس بينها ، حيث تدل الألف فى المثنى على أحد أحواله الإعرابية وهو الرفع والرفع فى اللغة علم الإسناد ، وتدل الياء حال النصب على الفضلة والياء حال الجر على معنى الإضافة ، وعلى هذه اللغة لا نحتاج فى إبراز المعانى إلى كثير من القرائن التى يستعان بها فى رفع اللبس فى الكلام وإيضاح معانيه ، وعليه تكون الألف قامت مقام الضمة فى الرفع والياء مقام الكسرة فى الجر ثم حمل النصب عليه[1].

الثانية : إلزامه الألف فى جميع أحواله ، وحينئذ يعرب إعراب المقصور بالحركات المقدرة على الألف فى جميع أحواله ، وهذه اللغة عزاها الإمام الكسائى إلى بنى الحرث ابن كعب وزبيد وختعم وهمدان ، ونسبها أبو الخطاب عبد الحميد ابن عبد المجيد الأخفش الأكبر إلى كنانة . ونسبها بعضهم إلى بنى العنبر وبكر بن وائل ، وبنى الهجيم وبطون من ربيعة . وزاد السيوطى قبيلتى : مزدادة وعذرة ، فهذه الأحياء من العرب قد عزى إليها هذه اللغة الخفيفة اللطيفة ، ورواها عنهم أئمة اللغة ، ومع ذلك أنكرها أبو العباس المبرد ، لكن إنكاره ليس بشىء ؛ حيث رواها الثقات مثل أبى زيد الأنصارى ، وأبى الخطاب الأخفش الأكبر ، والكسائى[2] ورواية الجمع آكد من رواية الآحاد ، ومن حفظ على من لم يحفظ ، ومن أثبت يقدم على النافى .

---

(١) انظر شرح المقتصد ١ / ١٨٥ وما بعدها ، وبدائع الفوائد لابن قيم الجوزية ١ / ١١١ ، ١١٢ .

(٢) انظر فى ذلك المصادر الآتية : شواهد العينى على الخزانة ١٣٨/١ ، الخزانة ٣/ ٣٣٦ ، ٣٣٧ النوادر لأبى زيد ٥٨، ١٦٤ ، شرح كافية ابن الحاجب للجاربردى بحاشية ابن جماعة / ٢٧٧ ، وشرحها للرضى ١ / ٣٢ ، وشواهد الشافية – ٣٥٥ / ٣٥٦ ، المغنى ١/ ٣٧ ، الهمع للسيوطى ١/ ٤٠ ، التصريح بحاشية يس ٦٥/١، ٦٧ ، ٧٨، ١٢٣ ، ١٢٧ /٣٩٩/٢ ، شرح المفصل لابن يعيش ٣/ ١٢٨ ، حاشية الخضرى ٤١/١ ، شذور الذهب بحاشية عبادة ١ / ٧٢ وما بعدها . الدرر ١ / ١٤ ، الضرائر للقيروانى ٢٣٧، القرطبى ٢١٦/١١ – ٢١٨ ، ١١٨/١٦ ، البحر ٢٥٥/٦ ، مشكل إعراب القرآن لمكى ٤٥٨/٢ ، المصباح (إلى وعلى ولدى) ، الجمهرة ٣٢٣/٢ ، الصحاح (هـ ا) ، تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة / ٥٠

وشواهد هذه اللغة كثيرة فى كلامهم شعرا ونثرا ؛ قال أبو النجم العجلى أو رؤبة :

إن أباها وأبا أباها

قد بلغا فى المجد غايتاها

فقال : غايتاها ، وهو مفعول (بلغا) وقياسة على اللغة المشهورة غايتيها .

فقلب الياء ألفا بفتح ماقبلها .

وقال الآخر :

تزود منا بين أذناه طعنة

دعته إلى هابى التراب عقيم

أراد : أذنيه ، فقلب الياء ألفا[1]

وقال آخر :

أفد حبيبا منذ واجهته

عن وجه بدر التم أغنانى

فى خده خالان لولا هما

ماكنت مفتونا بعينانِ

أراد : عينين ؛ فألزم المثنى الألف على هذه اللغة[2] .

وأنشد رجل من الأسد عن بنى الحرث :

فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى

مساغا لناباه الشجاع لصمما

وحكى عنهم أيضا : هذا خط يدا أخى بعينه . قال الفراء : وذلك — وإن كان قليلا — أقيس ؛ لأن العرب قالوا : مسلمون ، فجعلوا الواو تابعة للضمة ؛ لأن الواو لاتعرب ، ثم قالوا : رأيت المسلمين ، فجعلوا الياء تابعة لكسرة الميم ، فلما رأوا أن الياء من الاثنين لايمكنهم كسر ماقبلها وثبت مفتوحا ، تركوا الألف تتبعه ، فقالوا : رجلان فى كل حال[3] .

وشواهدها من الحديث قول النبى — صلى الله عليه وسلم — « لاوتران فى ليلة » وقياسه لاوترين فى اللغة الجمهورية ؛ وقوله : « إياكم وهاتان الكعبتان الموسومتان . . . » الحديث : أى وهاتين عطفا على إياكم كما تقول : إياك والشر[4] .

---

(١) انظر الأشمونى بتحقيق محيى الدين عبد الحميد ١ / ٣٦ ؛ والدرر ١٤/١ ، إعراب الحديث للعكبرى / ١٢٥ ، وتأويل مشكل القرآن / ٥٠

(٢) يس على التصريح ٦٧/١

(٣) معانى القرآن للفراء ١٤٨/٢

(٤) إعراب الحديث للعكبرى / ١٢٤ — ١٢٥ ، وكتاب ليس فى كلام العرب / ٣٣٣ وما بعدها وحاشية يس على التصريح ١ / ٦٧

وقال الخليل : مررت بأخواك ، وضربت أخواك ، بإلزام المثنى الألف[1].

ومن القرآن قوله : إنّ هذان لساحران»[2]

قرأ أبو عمرو « إنّ هذين » بتشديد النون من (إن) وبالياء فى (هذين) لأن تثنية المنصوب والمجرور بالياء فى لغة فصحاء العرب . . . .

وقرأ الباقون « إنّ هذان لساحران » بتشديد نون (إن) وبالألف فى (هذان) وحجتهم أنها مكتوبة هكذا فى (الإمام) مصحف عثمان : وهذا الحرف فى كتاب الله مشكل على أهل هذه اللغة ، وقد كثر اختلافهم فى تفسيره إلى الآتى :

(أ) حكى أبو عبيدة عن أبى الخطاب وهو رأس رؤساء الرواة أنها لغة كنانة : يجعلون ألف الاثنين فى الرفع والنصب والخفض على لفظ واحد ، يقولون : أتانى الزيدان ، ورأيت الزيدان ، ومررت بالزيدان .

(ب) قال الزجاج : وقال النحويون القدماء : هاهنا هاء مضمرة ، والمعنى : إنه هذان لساحران ، كما تقول : إنه زيد منطلق ، ثم تقول : إن زيدٌ منطلق .

(ج) وقال المبرد : أحسن ماقيل فى هذا أن يجعل (إنّ) بمعنى نعم ، والمعنى : (نعم هذان لساحران) فيكون ابتداء وخبرا . واستعمال (إن) بمعنى (نعم) لغة لكنانة ومن جاورهم فى مكة ونواحيها .

وعليها جاء قول عبيد الله بن قيس الرقيات :

بكر العواذل فى الصبو
ح يلمـننى وألومهنّه
ويقلن شيب قـد علا
ك وقد كبرت فقلت إنّه

أى نعم .

فإن قيل : اللام لاتدخل بين المبتدأ وخبره ، لايقال : زيد لقائم فما وجه : (هذان لساحران) .

الجواب فى ذلك : أن من العرب من يدخل لام التوكيد فى خبر المبتدأ ، فيقول : زيد لأخوك . قال الشاعر :

خالى لأنت ومن جرير خاله
ينل العـلاء ويكرم الأخوالا

---

(١) المنصف ٢٠٣/١ ، والخصائص ١٤/٢
(٢) طه / ٦٣

(د) وقال الفراء فى (هذان) إنهم زادوا فيها النون فى التثنية، وتركوها على حالها فى الرفع والنصب والجر. كما فعلوا فى (الذى) فقالوا: (الذين) فى الرفع والنصب والجر. يريد: أن الألف الموجودة فى المثنى هى ألف البناء فى المفرد.

وسمع أبو زيد أعرابيا فصيحا من بلحارث يقول: ضربت يداه، ووضعته علاه يريد: يديه وعليه، ومثله أخذت الدرهمان: واشتريت ثوبان، والسلام علاكم وقال رؤبة أو بعض اليمن:

طاروا علاهن فشل علاها

واشدد بمثنى حقب حقواها

ناجيـة وناجيا أباهـا[1]

من هنا يبدو جليا أن القبائل التى تلزم المثنى الألف يقلبون كل ياء مفتوح ماقبلها فى اسم كان أو حرف نحو: إلاك وعلاك فى إليك وعليك، أو ظرف نحو: لداك فى لديك[2].

وقد بين ابن قيم الجوزية وجه إلزام المثنى الألف على هذه اللغة فقال: فحق علامة فى التثنية أن يكون على حدها فى علامة الإضمار (يعنى ضمير المثنى فى الفعل) — وأن تكون ألفا فى كل الأحوال. وكذلك فعلت طوائف من العرب وهم: خثعم وطيىء وبنو الحرث ابن كعب: وعليه جاءت فى قول محققى النحاة «إن هذان لساحران» وأما أكثر العرب فإنهم كرهـوا أن يجعلوه كالاسم المبنى والمقصور من حيث كان الإعراب قد ثبت فى الواحد: والتثنية طارئة على الإفراد وكرهوا زوال الألف لاستحقاق التثنية لها فتمسكوا بالأمرين فجعلوا الياء علامة الجر: وشركوا النصب معه . . . فكان الرفع أجدر بالألف لأنها وهى فى الأصل علامة إضمار الفاعل: وهى فى الأسماء علامة رفع الفاعل أو ما قام مقامه[3].

اللغة الثالثة: إعرابه بالحركات على النون إعراب ما لاينصرف، فيرفع بالضمة كما فى حديث أبى هريرة — رضى الله عنه — قال: «كنا عند النبى ﷺ فى ليـلة

(١) انظر حجة القراءات لابى زرعة / ٤٥٤ وما بعدها. وحجة القراءات لابن خالوية / ٢٤٢ وما بعدها، وكتاب ليس فى كلام العرب لابن خالوية / ٣٣٣ وما بعدها. والمقرب لابن عصفور ٢ / ٤٦ وما بعدهـا، الخصائص ٣/٦٥، ٧٣، معانى القرآن للأخفش / ١١٣. والنوادر / ٥٨، ١٦٤ وابن يعيش ٣ / ٣٤، ١٢٩، والخزانة ٣ / ١٩٩، شذور الذهب بتحقيق محى الدين عبد الحميد / ٤٦ — ٤٧ والتاج ٩ / ١٢٨

(٢) انظر المصباح وغيره من معاجم اللغة فى (إلى — على — لدى) وشرح الكافية ٢/١٢

(٣) انظر بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية ١/٨٢ : ١١١ — ١١٢

ظلماء حندس ، وعنده الحسن والحسين ، فسمع تَوَلْوُلَ فاطمة — رضى الله عنها — وهى تناديهما : ياحسنانُ — ياحسينانُ (برفعهما بالضمة) فقال : الحقا بأمكما ، . . . قال الأزهرى : هكذا روى سلمة عن الفراء بضم النون فيهما جميعا ، كأنه جعل الاسمين اسما واحدا ، فأعطاهما حظ الاسم الواحد من الإعراب[1] ومن ذلك قولهم : الحكمانُ والعلمانُ ، أعربوا النون كأنه اسم لشئ واحد تشبيها للتثنية بباب (فعلان) فقالوا اشترك باب فعلان كغضبان وسكران ، وباب التثنية . . .[2]

وقال أبو عمر الزاهد :

يا أبتا أرقــنى القذّانُ

فالنــوم لا تطعمه العينانُ

قال ابن جنى : هو من الشذوذ بحيث لايقاس عليه ، وقال الشيبانى : هذه لغــة وحكى : هما خليلانُ ، وقيد بعضهم إعرابه بالحركات الظاهرة على النون بكون النون بعد الألف خاصة .

وشاهد فتح النون حال النصب قول رجل من ضبة

أعرف منها الجيــد والعينانا

ومنخـــران أشبها ظبيـــانا

هذا — وقد قدمت أن فتح نون المثنى فى كل حال لغة لبنى أسد ، وعلى لغتهم هذى جاء قول حميد بن ثور الهلالى الصحابى :

على أحوذيين استقلت عشية

فما هى إلا لمحــة وتغيب

بفتح النون مع الياء ، وفى حاشية عبادة على الشذور : فى المثنى وما ألحق به لغة تعربه اعراب المقصور[3]

ما يحمل على المثنى فى أعرابه :

يحمل على المثنى فى إعرابه كل ما لم يستوف الشروط الثمانية ، وقد جاءت صورتة على التثنية ويتلخص فى الأنواع التالية :

الأول : اثنان واثنتان فى لغة أهل الحجاز وثنتان فى لغة التميميين ،طلقا سواء أفردا

(١) التاج ١٧٧/٩ ، والتصريح بحاشية يس ٦٧/١ ، وعبادة على الشذور ٧٧/١

(٢) بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية ٢٤/١ ، وهمع الهوامع للسيوطى ٥٠/١

(٣) الدرر ١ / ٢١ ، الهمع ١ / ٤٩ ، ٥٠ النوادر لأبى زيد / ١٥ ، ابن عقيل ١ / ٦٩ — ٧١ شرح الفاكهى بحاشـــية يس ١ / ٧٦ — ٧٧ ، التصريح ١ / ٦٨ ، اللغة والنحو لحسن عون / ٨٢ ، حاشية الخضرى ١ / ٤١ ، كتاب ليس فى كلام العرب لابن خالوية / ٣٣٣ وما بعدها ، المقرب لابن عصفور ٢ / ٤٦ — ٤٧

نحو : هذان اثنان ، وهاتان اثنتان ، أو ركبا مع العشرة نحو قوله تعالى : «إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا»[1] برفع اثنا بالألف خبرا لإن ، وقوله « فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا »[2] برفع (اثنتا) على الفاعلية بالألف ، أو أضيفا إلى ظاهر أو مضمر وليس ضمير تثنية لئلا يكون من إضافة الشيء إلى نفسه ، يقال : هما اثنا محمد ، واثناهم[3] .

الثانى : كلا وكلتا ، بشرط أن يكونا مضافين إلى مضمر عند جمهور النحاة نحو قوله تعالى : «إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما»[4] برفع كلا بالألف عطفا على (أحدهما) الواقع فاعل (يبلغن) . . ويقال : جاء الرجلان كلاهما والمرأتان كلتاهما ورأيت الرجلين كليهما والمرأتين كلتيهما . . الخ .

فإذا أضيفا إلى الظاهر لزمهما الألف فى اللغة العربية فى الأحوال الثلاثة رفعا ونصبا وجرا ، نحو قوله تعالى : « كلتا الجنتين آتت أكلها[5] . . » (فكلتا) مبتدأ مرفوع بالضمة المقدرة على الألف : ويقال : جاءنى كلا الطالبين ، وكلتا الطالبتين ورأيت كلا الطالبين ، وكلتا الطالبتين ، ومررت بكلا الطالبين ، وكلتا الطالبتين والتفرقة بين الإضافة إلى المضمر بإعرابهما بالحروف والإضافة إلى الظاهر بإعرابهما إعراب المقصور هى اللغة المشهورة ، وهناك لغتان أخريان :

الأولى : إعرابهما بالحركات المقدرة مطلقا أضيفتا إلى مضمر أو ظاهر فى لغة بلحارث حكاها الفراء

يقال : رأيت الرجلين كلاهما ، ورأيت كلا الرجلين سواء ، ومررت بالرجلين كلاهما .

الثانية : إعرابهما بالحروف مطلقا أضيفتا إلى مضمر أو ظاهر وهى لغة كنانة ، يقال جاء الرجلان كلاهما ، وجاء كلا الرجلين فكلا فى المثالين مرفوع بالألف ، ويقال رأيت كليهما ، وكلى الرجلين ، ومررت بكليهما وكلى الرجلين[6] .

(١) التوبة ٣٦

(٢) البقرة ٦٠

(٣) ينظر المخصص لابن سيده ١٤ / ٩٤ ، ٩٥

(٤) الإسراء ٢٣

(٥) الكهف ٣٣

(٦) انظر التصريح بحاشية يس ١ / ٦٨ ، والشذور بحاشية عبادة ١ / ٧٦ – ٧٨ ، والمساعد على تسهيل الفوائد ١ / ٤٢ ، ومعانى القرآن للفراء ٢ / ١٨٤

وكلا وكلتا : لفظهما مفرد ، ومعناهما مثنى عند البصريين . ومن هنا يراعى لفظهما فيعود الضمير عليهما مفردا كما فى قوله تعالى : « كلتا الجنتين آتت أُكلها » فقال آتت مراعاة للفظ ، ولم يقل آتتا . وكذلك يخبر عنهما بالمفرد نحو كلاهما قائم ، وكلتاهما قائمة ويراعى المعنى فيعود الضمير مثنى وهو قليل : وقد اجتمعت اللغتان فى قوله الشاعر :

كلاهما حين جد الجرى بينهما
قد أقلعا ، وكلا أنفيهما رابى

قال ابن هشام فى نحو : كلاهما قائم أو كلاهما قائمان : إن قدر كلاهما توكيدا قيل : قائمان ؛ لأنه خبر عن زيد وعمرو . وإن قدر مبتدأ فالوجهان والمختار الإفراد .

وعلى هذا . فإن قيل : إن زيد وعمرا فإن قيل كليهما ، قيل قائمان ، أو كلاهما ، فالوجهان . ويتعين مراعاة اللفظ فى قول الشاعر :

كلانا غنى عن أخيه حياته
ونحن إذا متنا أشد تغانيا[1]

حيث راعى اللفظ فأخبر بالمفرد (غنىٌّ) عن كلا وهو مبتدأ .

* * *

اعراب ما سمى به من المثنى :

ما سمى به من المثنى ورد فى إعرابه لغتان :

الأولى : إعرابه إعراب المثنى قبل التسمية فيرفع بالألف وينصب ويجر بالياء يقال فمن سمى بالزيدان : جاء الزيدان ورأيت الزيدين ومررت بالزيدين .

الثانية : إعرابه إعراب مالا ينصرف فيرفع بالضمة وينصب ويجر بالفتحة فيقال جاء الزيدان برفع النون ، ورأيت الزيدان ومررت بالزيدان بفتح النون فيهما مالم يضف ، أو يقترن بالألف واللام . وذلك إجراء له مجرى (سلمان) فيمنع من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون ، فإذا أضيف أو دخلت عليه ال جُرَّ بالكسرة نحو قوله :

« ألا يا ديار الحى بالسبعان[2] »

---

(١) المغنى ١/٢٠٣ — ٢٠٤ بتحقيق محيى الدين عبد الحميد ، الخصائص ٣/٣٣٥ وحاشية الخضرى ١/٤٠ — ٤١ ، والتصريح بحاشية يس ٢/٤٣

(٢) انظر التصريح بحاشية يس ١ / ٦٧ — ٦٨ ، وحاشية اسماعيل الحامدى على الكفراوى / ٢٥

مذاهب العرب في عود الضمير على المثنى :

لقد اختلفت مذاهب العرب في عود الضمير على المثنى إلى طرائق أربع :

الأولى : عود الضمير عليهما مثنى نحو قوله تعالى : « قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما »[1] فالضمير في عليهما راجع إلى (رجلان) وهذا كثير في اللغة .

الثانية عود الضمير على الأهم فقط نحو قوله تعالى : « وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها »[2] فالضمير في (إليها) راجع إلى التجارة لأنها كانت أحب شيء إليهم . وعليه فالضمير راجع إلى المتقدم من المتعاطفين .

الثالثة عودة على الأقرب نحو قوله تعالى « واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين »[3] فالضمير في (إنها) عائد على الصلاة وهي أقرب مذكور . وقوله « ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا »[4] ولم يقل بهما .

الرابعة : عوده على الأشرف قرب أم بعد نحو قوله تعالى : « والله ورسوله أحق أن يرضوه »[5] فالهاء في (يرضوه) عائد على الله جل ثناؤه[6].

مذاهب العرب في تثنية آحاد ما في الجسد مضافا الى مثنى :

إذا أريد تثنية أحد أعضاء الجسم المفردة مثل الوجه والبطن والظهر والرأس . الخ ثم أضيف إلى مثنى ففيه اللغات التالية :

الأولى : اللغة العالية وهي لغة القرآن الكريم جمعه مع إرادة التثنية نحو قوله تعالى : « فقد صغت قلوبكما »[7] وكان من حق العربية أن يقول : قلبا كما . إلا أنه عدل عنه إلى الجمع لوجود ما يدل على المراد وهو إضافته إلى المثنى .

الثانية : من العرب من يعطى هذا حقه من التثنية فيقولون : ضربت رأسيهما وشققت بطنيهما . . وقد ورد على هذه اللغة قول الفرزدق :

* بما في فؤادينا من الشوق والهوى *

(١) المائدة ٢٣

(٢) الجمعة ١١

(٣) البقرة ٤٥

(٤) النساء ١١٢

(٥) التوبة ٦٢

(٦) انظر كتاب ليس في كلام العرب لابن خالويه / ٣٤٣ . معاني القرآن للفراء ١٥٧/٣

(٧) التحريم ٤

وقال أبو ذؤيب الهذلي :

فتخالسا نفسيهما بنوافــذ

كنوافذ العبط التي لا ترقع

والوجه في هذا ونحوه هو الجمع كما جاء في التنزيل نحو قوله تعالى « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا »[1] ولم يقل (نفسينا) .

هذا — وقد جاءت اللغتان : الجمع والتثنية في قول هميان بن قحافة :

ومهمهين قـذفين مرتين

ظهراهما مثل ظهور الترسين

فقد ثنى في (ظهراهما) وجمع في (ظهور الترسين) .

الثالثة : إفراده مع إرادة التثنية ، وفي هذه الحالة ينوب المفرد عن المثنى ، كما ناب الجمع في اللغة الأولى عنه ، وذلك لأن إضافة العضوين إلى اثنين تنبيء عن المراد كقولك: ضربت رأس الرجلين وشققت بطن الجملين ؛ ولا يكادون يستعملون هذه اللغة إلا في الشعر فهي لغة الشعراء مثل قوله :

كأنه وجه تركيين قد غضبا

مستهدفين لطعن غــير تذبيب

وعلى هذه اللغة يكون المضاف قد اكتسب التثنية من المضاف إليه .

ومنه قولهم : سمع صوت إنسانين وأكلت رأس شاتين ، قال ابن مالك : وجمعه أجود (يعني جمع المضاف كما في اللغة الأولى) ويجوز التثنية (كما في اللغة الثانية) وكانت التثنية أقل من الإفراد والجمع ؛ لأن التثنية مع أصالتها قليلة الاستعمال[2].

مذاهب العرب في التعبير عن العضــوين المزدوجين في الجسد :

للعرب في استعمال المثنى الذي يطلق على المتماثلين من الأعضاء لغتان :

الأولى : التعبير عن العضوين بالتثنية نحو العينان تنظران ، والأذنان تسمعان ، واليدان تبطشان ، والرجلان تتحركان . . الخ

قال المتنبي :

حشاي على جمر ذكي من الهوى

وعيناي في روض من الحسن ترتع

---

(١) الأعراف ٢٣

(٢) انظر الأمالي الشجرية ١/١١ وما بعدها ، وإعراب القرآن المنسوب إلى الزجاج ٣/ ٧٨٧ وما بعدها ، وشرح شواهد الشافية / ٩٤ ، والدرر ١ / ٢٦ — ٢٧ والبحر ٨ / ٢٩٠ — ٢٩١ ، وشواهد التوضيح لابن مالك / ٦٠ وما بعدها .

الثانية : التعبير عن العضوين بالمفرد منهما فيقال : عيني رأته والمقصود عيناى ؛ ومنه قول الشاعر :

أيهـا المبتغى فناء قريش
بيد الله عمـرها والفنـاء

قال الفراء : والواحد من هذا يكفى من الاثنين ، وكذلك العينان والرجلان واليدان تكتفى إحداهما من الأخرى ، لأن معناهما واحد وللعرب فى الإخبار عن المثنى من هذا النوع أربع لغات .

الأولى : استعمال الحقيقة فى الخبر فيتطابق المبتدأ والخبر نحو : عيناى رأتاه وأذناى سمعتاه ، وقدماى سعتا فيه .

الثانية : أن تثنى العضو وتفرد الخبر ؛ لأن حكم العينين أو الأذنين أو القدمين حكم واحدة لاشتراكهما فى الفعل فتقول : أذناى سمعته ، وعيناى رأته وقدماى سعت فيه كما قال المتنبى :

. . . وعيناى فى روض من الحسن ترتع

وقول سلمى بن ربيعة السيدى :

فكأن فى العينين حب قرنفـل
أو سنبلا كحلت به فانهلت

ومثله قول امرئ القيس :

لمـن زحلوفـة زل
بهـا العينـان تنهـل

وقال الفرزدق :

ولو بخلت يداى بها وضنت
لكان على للقـدر الخيـار

الثالثة : أن تعبر عن العضوين بواحد وتفرد الخبر حملا على اللفظ ، تقول : عيني رأته ، وأذنى سمعته ؛ وقدمى سعت فيه ؛ وإنما استعملوا الإفراد فى هذا تخفيفا ، وللعلم بما يريدون ، فاللفظ على الإفراد ؛ والمعنى على التثنية ، ومن ذلك أيضا قول أبى ذؤيب الهذلى .

فالعيـن بعدهم كأن حداقها
سُمِلت بشوك فهى عور تدمع

أراد : العينين جميعا ، واستغنى عن تثنيتهما لتلازمهما ، تقول : كحلت عينى ، وعين مكحولة ؛ تريد : هما معا ، ومثل العينين المنخران والرجلان والخفان والنعلان.

الرابعة : أن تعبر عن العضوين بواحد وتثنى الخبر حملا على المعنى كقولك : أذنى سمعتاه ، وعينى رأتاه ؛ وهذا قليل؛ ومنه قول امرئ القيس:

وعينى لهـا حـدرة بدرة
شـقت مآقيهما من أخـر

وقول الآخر :

إذا ذكرت عيني الزمان الذي مضى
بصحراء فلج ظلتا تكفان (١)

دلالات المثنى في استعمالاته :

تتنوع دلالات المثنى في العربية بتنوع الأساليب وإيماءات سياقات الكلام ، ويمكن لنا إيجازها في الآتي :

(أ) الدلالة على التثنية حقيقة : وهذا النوع جـد كثير ومعرفته تغني عن القول فيه .

(ب) الدلالة على الإفراد : وذلك كأن يذكر في الكلام علم التثنية ويراد به خلافها كقصد المفرد في قوله تعالى : «ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة» (الشورى ٢٩)

أراد : وما بث في الأرض دون السماء ، قال الفراء : بذلك جاء التفسير ومثله مما ثنى ومعناه واحد قوله تعالى «يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان» (الرحمن ٢٢) وإنما يخرج من الملح دون العذب »(٢).

ومنه قولهم : ياغلام اضربا زيدا . ويازيد اسفعا بيده ، وياحرسى اضربا عنقه(٣).

فقد خاطب المفرد بلفظ الاثنين : ويحتمل عندى أن تكون الألف في كل من (اضربا — اسفعا) عوضاً من نون التوكيد الخفيفة على أن يكون وصلى بنية الوقف . ومنه قوله تعالى « ألقيا في جهنم كل كفار عنيد» ق— ٢٤ . قال الخليل والأخفش هذا كلام العرب الفصيح أن تخاطب الواحد بلفظ الاثنين : فتقول : ويلك ارحلاها وازجراها وخذاه وأطلقاه ، قال الفراء : تقول للواحد قوما عنا . وأصل ذلك أن أدنى أعوان الرجل في إبله وغنمه ورفقته في سفره اثنان فجرى كلام الرجل على صاحبيه : ومنه قولهم للواحد في الشعر : خليلي ، ثم يقول : ياصاح ، قال امرؤ القيس :

خليليّ مرا بي على أم جندب
نُقَضِّ لبانات الفؤاد المعذب

وقال أيضا :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

---

(١) انظر في ذلك الأمالي الشجرية ١ / ١٢٠ وما بعدها ، ٣٠٩ ، ومعاني القرآن للفراء ٢ / ٤١٢ ـ والدرر للشنقيطي ١/٢٤ وما بعدها .

(٢) معاني القرآن للفراء ٣ / ٢٤

(٣) كتاب لحن في كلام العرب .

وقال آخر :

فإن تزجراني يابن عفان أنزجر
وإن تدعاني أحم عرضا ممنعا

وقيل : جاء كذلك ؛ لأن القرين يقع للجماعة والاثنين ، وقال المازني : «ألقيا» يدل على ألق ألق ، وقال أبو البقاء بقول المازني إلا أن الألف في (ألقيا) عوض من تكرار الفعل عنده : ومثلهما المبرد حيث قال : هي تثنية على التوكيد : المعنى ألق ألق : فناب (ألقيا) مناب التكرار[1].

ومنه أيضا قوله جل ثناؤه : « ولمن خاف مقام ربه جنتان » الرحمن ٤٦ فقال : (جنتان) ولم يقل (جنة) فقد ثنى مع قصد الإفراد وذلك لمشاكلة رؤوس الآيات :

قال الفراء : ذكر المفسرون : أنهما بستانان من بساتين الجنة ، ثم قال : وقد يكون في العربية جنة تثنيها العرب في أشعارها أنشدني بعضهم :

ومهمهين قذفين مرتين
قطعته بالأم لا بالسمتين

يريد : مهما وسمتا واحدا . وأنشدني آخر :

يسعى بكيداء وخذمين
قد جعل الأرطاة جنتين

أراد : جعل الأرطاة جنة .

قال الفراء : وذلك أن الشعر له قواف تقيمها الزيادة والنقصان فيحتمل مالا يحتمله الكلام[2] .

قال ابن قتيبة : ومنه أن يجتمع شيئان ولأحدهما فعل ؛ فيجعل الفعل لهما : كقوله سبحانه : «فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما»[3] روى في التفسير أن الناسي كان يوشع بن نون . وبذلك قوله لموسى عليه السلام «إني نسيت الحوت» . ومنه قوله «أنؤمن لبشرين مثلنا» المؤمنون ٤٧ . فقد ثنى مع إرادة الإفراد .

وقوله « مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان » ثم قال « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان[4] » واللؤلؤ والمرجان إنما يخرجان من الماء الملح لا من العذب[5] .

(١) انظر القرطبي ١٧ / ١٦ ، والتبيان لأبي البقاء ٢ / ١١٧٥ ، ومشكل إعراب القرآن لمكي القيسي ٦٨٤ . والبحر ٨ / ١١٦ . وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة / ٢٩١

(٢) انظر معاني القرآن للفراء ٣ / ١١٨ ، ١٥٧ ، والكتاب ١ / ٢٤١ ، والخزانة ١ / ٣٧٦ وشرح شواهد الشافية / ٦٠ ، ٩٤ ، القرطبي ١٧ / ١٧٧ .

(٣) الكهف / ٦١

(٤) الرحمن ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢

(٥) انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة — ٢٨٦ — ٢٨٨ ، والتاج (بشر) .

(ج) دلالة المثنى على الجمع :

كأن يكون اللفظ مثنى والمراد به جمع نحو قوله تعالى : « ثم ارجع البصر كرتين » (الملك ٤) فقد ذكر (كرتين) وأراد كرات ؛ بدليل قوله بعد « ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير » وذلك أن إعياء البصر وخسوئه لا يتأتى من مرتين بل من مرات [1] .

ومنه قوله « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » (الحجرات ٩)

فانظر كيف عاد الضمير جمعا فى (اقتتلوا) على (طائفتان) وذلك حملا على المعنى ؛ حيث تصلح الطائفة للمفرد والمثنى والجمع فمن مجئ الطائفة بمعنى المفرد قوله تعالى: « إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة» (التوبة ٦٦) قال قتادة : كان رجل من القوم لا يمالئهم على أقاويلهم فى النبى ﷺ ويسير مجانبا لهم : فسماه الله طائفة وهو واحد[2] ومثال مجئ طائفة جمعا قوله : «ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ؛ وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون» (آل عمران ٦٩)

لهذا لما كانت بمعنى الجمع صلح عود الضمير جمعا فى قوله: « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » ، ولما كانت بمعنى المفرد صلح عود الضمير مثنى على (طائفتان) فى قوله (بينهما) ؛ وذلك حملا على اللفظ

من هنا يظهر أن (طائفتين) مثنى يراد بهما الجمع مرة والتثنية أخرى ، فيعود الضمير مراعاة للفظ مثنى ، وجمعا مراعاة للمعنى ومثل طائفتان (خصمان) فى قوله : « هذان خصمان اختصموا » (الحج ١٩) (خصمان) مثنى قصد به الجميع بدليل عود الضمير جمعا فى قوله «اختصموا» وذلك لأن الخصم يصلح للمفرد فيقال : هذا خصمى ، وللمثنى فيقال : هما خصمى وللجمع نحو : هؤلاء خصمى مثل (هؤلاء ضيفى) ومنه قوله تعالى « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب » (ص ٢١) فأعاد الضمير على الخصم جمعا مما يؤكد صلاحيته للمفرد وغيره[3]

ومنه قوله « ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحا أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون»[4]

، المعنى يتضح مما سبق .

---

(١) انظر القرطبى ١٨/٢١٠ ، البحر ٨/٢٩٩ ، والتاج (مر) .

(٢) تأويل مشكل القرآن / ٢٨٣

(٣) انظر معانى القرآن للفراء ٢/٢١٩ — ٢٢٠ ، والقرطبى ١٨/٢٦ ، والبحر ٦/ ٣٦٠ والأمالى الشجرية ١ / ٣١٢ ، والتبيان لأبى البقاء العكبرى / ٩٣٧ ، ١١٧١

(٤) النمل / ٤٥

(د) دلالته على المبالغة :

الأصل أن يستعمل المثنى فى مقام التثنية لا يزيد عليه ولا ينقص نحو : جاء الزيدان ورأيت الزيدين ومررت بالزيدين وهكذا دواليك .

وقد يخرج عن حقيقته من خلال سياقات الكلام فيؤدى به غيرما يقتضيه ظاهر اللفظ من إفادته المبالغة والتعظيم .

وذلك نحو : لبيك وسعديك وحنانيك ودواليك ، وهذاذيك وحجازيك وخياليك وحواليك .

يقول ابن سيده : يجوز فى المصدر المثنى المحمول على الفعل المتروك (المحذوف) إظهاره إذا كانت الحال حال تعظيم فى خطاب رئيس ، وكان اللفظ ينبئ عن جنس الفعل . حمل المصدر على الفعل المتروك لإظهاره للمبالغة فى التعظيم إلى أعلى منزلة على طريق المعنى النادر . فأجرى اللفظ على ما يقتضيه ذلك المعنى من ترك التصرف . والتثنية لتضعيف فعل التعظيم حالا بعد حال . كقولهم : لبيك وسعديك فغيه مبالغة تعظيم مما عومل به مما يقتضى ذلك . .

وإنما جازت التثنية للمبالغة ولم يجز الجمع لأن التثنية أولى بالتفضيل شيئا بعد شئ من الجمع ، إذا كانت التثنية لا تكون إلا على الواحد . والجمع قد يكون على غير الواحد ، نحو نفر ورهط . فهذه تقتضى تضعيف المعنى كما قال سيبويه فى (حنانيك) كأنه قال : تحننا بعد تحنن ، وحنانا بعد حنان ، والتثنية أدل على هذا التفضيل من الجمع . . . ، فكلما قل النظير فى معنى التعظيم كان أشد مبالغة . لأنه إذا قل النظير قل من يستغنى عنه : أى من يحتاج إليه ولا يستغنى بغيره عنه فهو أجل فى التعظيم مما ليس فوق تعظيمه تعظيم : وهذه الصفة لا تكون إلا لله تعالى . . . ولا تجوز هذه المبالغة إلا بالإضافة لأمرين :

أحدهما : طلب الأعرف فى هذا المعنى النادر فيصير كالمثل .

والآخر : أن الإضافة إلى المعظم أخص بمعنى التعظيم من الانفصال ، فلهذا لم يجز حنانيك ولبيك وسعديك وما جرى مجراه إلا بالإضافة ، وعلة الإضافة فيه كعلة لزوم الإضافة فى (سبحان الله ومعاذ الله) . قال طرفة :

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا
حنانيك بعض الشر أهون من بعض

كأنه قال : تحننا بعد تحنن ، ووضع حنانيك موضع تحنن ، وتقول : سبحان الله وحنانيه كأنك قلت : ورحمته ، على المبالغة فى طلب

الرحمة منه بعد الرحمة على ما تقتضيه التثنية . . وقول عبد بني الحسحاس :

إذا شُقَّ بردٌ شُقَّ بالبرد مثله
دواليك حتى ليس للبرد لابس

فقال : دواليك ، لأن المداولة على معنى المداومة موضع مبالغة وتعظيم : كأنه قال : مداولتك مداولتك وجعل (دواليك) في موضعه . . وقال آخر :

* ضرباً هذاذَيْك وطعناً وخضا *

أي هذا بعد هذا ، فبالغ في الكثرة ..[1]

وبعد :

فهذه ظاهرة التثنية بكل ما يحيط بها وهذا هو المنهج الوظيفي الذي أراه جديرا بالتناول في مجال تعليم الناشئة ، وقد استوفيت كثيرا من جوانبه ولا أدعى الإتيان عليها كما قصدت فيه بيان ألوان التوسع في الاستعمال العربي الذي هو بمنأى عن قواعد النحويين التي لم يك للمجاز أو التوسع خضوع لها ، أو بعبارة أخرى لم يعد لها سلطان عليه ، كما يتضح ذلك من هاته الدراسة ، ومهما يكن من عملي هذا فإني أضرع به إلى إلهي صاحب العزة والجلال أن يتقبله خالصا لوجهه الكريم ، كما أرجوه في كل مسعاي حسن الثواب وهو المرتجى وعليه التكلان ، وصلى الله وسلم على البشير النذير وعلى آله وصحبه وسلم .

عبد الرحمن محمد اسماعيل
جامعة ام القـرى
معهد اللغة العربية



(١) انظر المخصص ٢٣١/١٣ وما بعدها .

الفهـــرس

شخصيات مجمعية

في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الاربعاء ٢٥ من رمضان سنة ١٤٠٨ هـ الموافق ١١ من مايو سنة ١٩٨٨ م ، أقام المجمع حفلا لاستقبال عضو المجمع الدكتور عبد الرازق عبد الفتاح ابراهيم .

وها هي ذي نص الكلمات التي ألقيت في هذا الحفل :

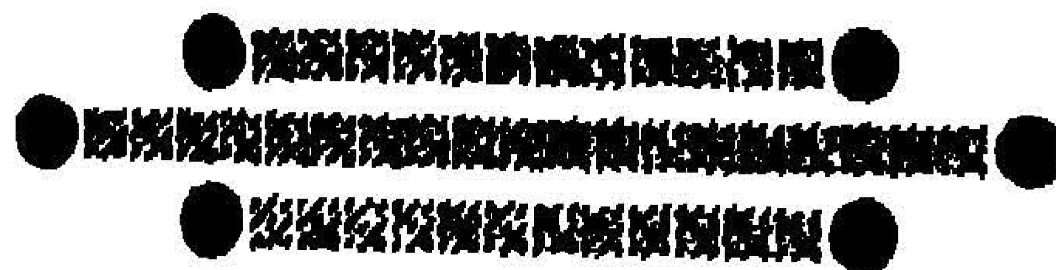
كلمة الافتتاح للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع

أيها السادة يسعدني حقا أن نستقبل اليوم أستاذاً جليلاً ومهندساً عظيماً هو الدكتور عبد الرازق عبد الفتاح إبراهيم .

ومن حسن حظ هذه الدار أن انعمت بصحبة فريق من شيوخ المهندسين جيلاً بعد جيل . بدأنا مع الأستاذ الجليل الشرباصي ، ولا أظن أحداً من المهندسين لا يعرف من هو الشرباصي في صلاته وخلقه ، وفي علمه وأدبه ، وفي مجالسه الدائمة في بيته ، وفي عطائه الشامل في المجمع .

ثم تلاه أستاذ آخر لم يكن أقل حظاً في العلم والأدب واللغة وهو الدكتور الدمرداش . وكل من عاش في هذه الدار أدرك ما قدم الدكتور الدمرداش من علم وأدب ولغة وقد ضم إلى جانب علمه وتفوقه إلمامه بلغات أخرى غير لغته فضلا عن قدرته الشعرية ، ومن حسن حظنا أن الزميل الذي نستقبله اليوم خير خلف لخير سلف .

وسيتولى كلمة المجمع في استقبال الزميل الدكتور محمود حافظ .



كلمة الدكتور محمود حافظ

فى استقبال الدكتور



سيدى العالم الجليل رئيس مجمع اللغة العربية وشيخ المجمعيين .

سادتى العلماء الأجلاء سيداتى وسادتى .

نستقبل اليوم فى هذا المحراب عالما جليلا من خيرة علمائنا ومهندسينا البارزين أسهم فى بناء النهضة العلمية والتعليمية فى مصر وله فى حياتنا الجامعية انجازات يعتد بها ستظل شاخصة تشهد بعلمه وخبرته الواسعة ذلكم هو الأستاذ الدكتور عبد الرازق عبد الفتاح الرئيس الأسبق لجامعة حلوان نستقبله اليوم عضواً جديداً بمجمع الخالدين .

ولا أحسبك أيها الزميل العزيز إلا سعيداً حقا بهذه الثقة الغالية التى منحك إياها زملاء لك يقدرون علمك ومكانتك هذه الثقة أفسحت لك مكانا عزيزا فى هذا المجمع العظيم كعبة العربية وحصنها الحصين الذى حمل لواءها أكثر من نصف قرن حتى اليوم عاليا خفاقا نحو السماكين ورفع علمها شامخا سامقا فى الخافقين .

ولست فى حاجة إلى القول إن هذا الشرف الذى تنعم به اليوم وأنت به جدير لشرف عظيم حقا طالما هفت إليه قلوب وتطلعت إليه آمال فتهنئة خالصة لك بهذا الوسام الرفيع الذى أهداه إليك مجمع الخالدين وقد جاء مواكبا لوسامك العلمى الذى تحقق لك فى مجال العلم والبحث العلمى وصعدت به فى مدارج الرقى إلى أعلا المراتب والدرجات .

ولد زميلنا فى العشرين من شهر يونيه عام ١٩١٩ فى مدينة بنها وتعلم فى مدارسها فى مراحل حياته المبكرة وبعد ذلك تبينت فى مراحل تالية اتجاهاته الفنية والهندسية فتابع دراسته فى هذا المجال

وحصل على دبلوم فى الهندسة الميكانيكية عام ١٩٤٠ ثم على البكالوريوس فى الهندسة عام ١٩٥٤ من جامعة عين شمس وبعد ذلك سافر فى إجازة دراسية إلى الولايات المتحدة الأمريكية على نفقته الخاصة ليتابع دراسته العالية لمدة أربع سنوات حصل خلالها على درجة الماجستير فى الهندسة الميكانيكية من جامعة وين بادترويت ثم على درجة الدكتوراه فى هذا التخصص من جامعة متشيجان آن أربر عام ١٩٦٠ وقد حصل على هذه الدرجة فى سنتين وثلاثة شهور وهو زمن قياسى للحصول على درجة الدكتوراه لم يحدث فى تاريخ هذه الجامعة حتى الآن .

وكان إبان دراسته قد لفت إليه أنظار أساتذته لنبوغه وتفوقه وتجدر الإشارة إلى أنه بعد مناقشته فى رسالته للدكتوراه اتصل به معهد العلوم والتكنولوجيا بالجامعة وعهد إليه بالاسهام فى إنتاج وحدة تسخين بالقوس الكهربائى لدرجات حرارة تزيد على أربعة آلاف (٤٠٠٠ م) درجة مئوية وكان هذا انجازا علميا كبيرا له قيمته التطبيقية فى الصناعة شأنه فى ذلك شأن الاختراع الذى توصل إليه زميلنا ببحوثه الرائدة لتحسين محركات الديزل وقد سجل الاختراع باسمه وبرقم معين بواشنجطن فى السادس عشر من فبراير عام ١٩٦٢ وبعد ذلك تابع بحوثه فى أثناء مهمة علمية أوفد فيها إلى كلية الطيرانيات بكرانفيلد بانجلترا عام ١٩٦٣ .

وبعد عودته من دراساته بالخارج ونخبرته السابقة فى التعليم الفنى بوزارة التعليم عين عميدا لكلية التكنولوجيا والتربية ثم وكيلا للبعثة التعليمية فى بون بألمانيا الغربية فعميدا لكلية التكنولوجيا مرة ثانية فوكيلا لوزارة التعليم العالى فرئيسا لجامعة حلوان فى عام ١٩٧٥ حتى ١٩٧٩ وهى الجامعة التى أنشأها ورعاها وثبت أقدامها وهو يعمل الآن أستاذا متفرغا بكلية الهندسة والتكنولوجيا بهذه الجامعة وهو اليوم على مشارف السبعين من عمره .

وقد حفلت حياته بالكثير من الانجازات العلمية والهندسية والثقافية ففى مجال البحث العلمى له بحوث رائدة فى موضوع الاحتراق ومحركات الديزل وتصميم غرف الاحتراق وتأثير الأجسام غير الانسيابية على دوران الهواء وغير ذلك من بحوث فى الهندسة الميكانيكية ومن بين دراساته الهامة دراسة عن « استراتيجية التعليم الفنى فى العالم العربى (١٩٧٢) » دراسة عن الجامعة التكنولوجية (١٩٧٥) ويراها ضرورة لتطور المجتمعات : دراسة عن التطور الاقتصادى وعلاقته بالتعليم الفنى والهندسى نظرة حديثة (مؤتمر المعلمين العرب الأول : بغداد (١٩٧٥) ؛

دراسة عن العلاقة بين التنمية الصناعية والتعليم الهندسي والفني (دمشق ١٩٧٨) دراسة عن السياسة التكنولوجية وقضية الاختيار (١٩٨٤) وغير ذلك من الدراسات الهادفة .

وللدكتور عبد الرازق مدرسة علمية رائدة في مجال تخصصه أشرف فيها ولا يزال يشرف على عدد من طلاب الدراسات العليا في جامعات القاهرة وعين شمس وحلوان وقد حصل بعض هؤلاء على درجتي الماجستير والدكتوراه وقد كان للبحوث التي أجريت نتائج علمية وتطبيقية على جانب كبير من الأهمية الاقتصادية والهندسية مثل رفع كفاءة المحركات وازدياد سرعتها وكذلك خفض درجة حرارة العادم ونسبة غاز أول أكسيد الكربون السام من المحركات وغير ذلك من النتائج الهامة .

وقد امتد النشاط العلمي والفكري للدكتور عبد الرازق إلى ساحة المجالس القومية المتخصصة وغيرها من الهيئات العلمية والثقافية التي يشرف بعضويتها وتشرف به فقد أعد للمجلس القومي للتعليم والبحث العلمي في شعبه عن التعليم الجامعي والبحث العلمي والتعليم العام عدة موضوعات كانت قمة في الأداء والاستقصاء من بينها « دور العلم والعلماء في صنع القرار » (يناير ١٩٨٥) ؛ « دور البحث العلمي في إنتاج الطاقة واستخدامها » (مايو ١٩٨٥) « الارتقاء التكنولوجي وإدارة الموارد » ؛ « نحو سياسة مستقبلية للتعليم » وذلك بالإضافة إلى مشاركته الفعالة بالرأي الحر المستنير والبصيرة النافذة في كل ما تصدى له المجلس القومي للتعليم والبحث العلمي من مشكلات علمية وتعليمية وقضايا قومية على مدى سنوات طوال .

ونشاط الزميل في مجال التأليف والترجمة والمراجعة نشاط مقدور فقد نقل إلى اللغة العربية كتابا عن الديناميكا الحرارية (١٩٦٨) وله مؤلف قيم عن ترشيد الطاقة (١٩٨٥) وراجع عددا من الكتب المترجمة إلى العربية منها التفاضل والتكامل : الحرارة والديناميكا الحرارية الكلاسيكية . تحليل المتجهات : طرق الحسابات للمشتغلين بالصناعة وغيرها كما قام بالإشراف العلمي والمراجعة على المعجم الموحد الشامل للمصطلحات الفنية للهندسة والتكنولوجيا والعلوم والذي أصدرته مؤسسة الكويت للتقدم العلمي عام ١٩٨٦ وأشرف كذلك إشرافا علميا على قاموس مصطلحات الكومبيوتر والذي أصدرته مؤسسة الأهرام للترجمة العلمية والنشر عام ١٩٨٧ كما أسهم في هذا المجال إبان عضويته خبيرا في لجنة مصطلحات العلوم الهندسية بمجمع اللغة العربية مع المغفور له إمام العلماء والمهندسين الأستاذ الدكتور إبراهيم أدهم الدمرداش طيب الله ثراه وسيواصل زميلنا عطاءه السخي في هذه اللجنة وغيرها إن شاء الله عضوا بمجمع الخالدين .

ومنذ الستينيات شارك الدكتور عبد الرازق فى الكثير من المؤتمرات والاجتماعات العلمية العربية والدولية فمنها فى بغداد مؤتمر المهندسين العرب (١٩٦٤) ومؤتمر التربيون العرب (١٩٧٥) وفى الكويت مؤتمر هجرة العلماء العرب (١٩٧٥) وفى الجزائر مؤتمر استراتيجيات التكنولوجيا (١٩٧٩) كما شارك فى مؤتمرات اتحاد الجامعات العربية (١٩٧٦ — ١٩٧٩) وكذلك فى مؤتمر للتخطيط بتشيكوسلوفاكيا. ومؤتمر تدريس العلوم الإنسانية للمشتغلين بالعلوم الهندسية برومانيا (١٩٧٢) ، ومؤتمر التكنولوجيا المناسبة فى سان سلفادور (١٩٧٨ ، ١٩٨٠) ومؤتمر رؤساء الجامعات بكوستاريكا (١٩٨٠) ومؤتمر تحسين التعليم الجامعى بدبلن — إيرلندا (١٩٨٣) كما حضر اجتماعات خبراء اليونسكو فى باريس لدراسة التعليم الفنى العالى (١٩٧٧) ولإعداد المهندسين (١٩٧٨) وذلك بالإضافة إلى مؤتمرات أخرى عقدت بمصر والخارج فى مجال الهندسة الميكانيكية — كما قام بزيارات علمية إلى الاتحاد السوفيتى واستراليا ومعظم البلاد الأوربية والأمريكية والعربية لدراسة نظم التعليم الفنى أو لعقد اتفاقيات ثقافية أو أستاذا زائرا فى بعض الجامعات .

وزميلنا عضو بعدة جمعيات وهيئات علمية وثقافية فى الداخل والخارج منها عضويته فى نقابة المهندسين منذ عام ١٩٦٤ وفى مجلسها الأعلى وكان أمينا عاما ووكيلا لها لبضع سنوات وهو عضو بالأكاديمية المصرية للعلوم وبالمجمع العلمى المصرى وبجمعية المهندسين المصرية منذ عام ١٩٦١ وجمعية المهندسين الميكانيكيين الأمريكية وبالجمعية الدولية للاحتراق وبمجالس أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا كما أنه عضو بالمجلس القومى للتعليم والبحث العلمى وبشعبة الصناعة بالمجلس القومى للإنتاج وله فى كل هذه الجمعيات والهيئات نشاط كبير يتسم بسداد الرأى وسعة الأفق .

ونظرا لمكانته العلمية المرموقة وانجازاته الكبيرة فى مجال العلوم الهندسية على الصعيدين القومى والدولى ولجهوده المتصلة التى استمرت أكثر من ثلاثين عاما فى الارتقاء بالتعليم الفنى وتطويره فى مصر ولأعماله الإنشائية التى توجها بإنشاء جامعة حلوان التى شرفت برئاسته بضع سنوات أرسى خلالها قواعدها ونهض بها نهضة كبيرة فقد نال جائزة الدولة التقديرية فى العلوم عام ١٩٨٤ ومنحته الدولة وسام الجمهورية من الطبقة الأولى عام ١٩٧٩ ووسام الاستحقاق من الطبقة الأولى عام ١٩٨٥ .

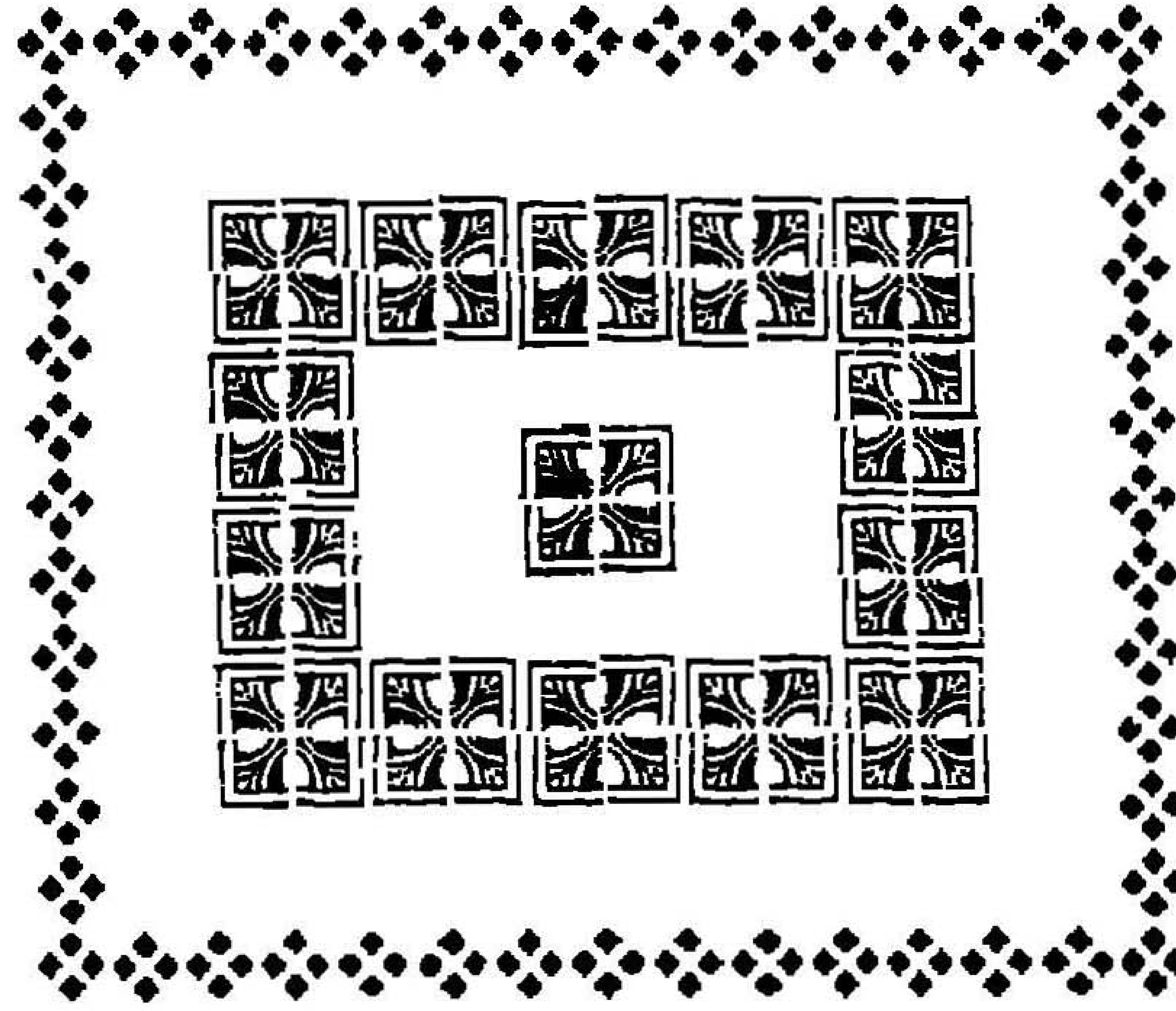
سيدى الرئيس – سادتى الزملاء .

هذه لمحة عن حياة هذا العالم الجليل الذى نستقبله اليوم فى هذا المحراب زميلا وعضوا بمجمع اللغة العربية مجمع الخالدين وهى حياة حافلة بالعطاء والعمل المثمر البناء ولا شك أنه بعلمه وخبرته سيكون خير عون للمجمع يمضى بقيادته الرشيدة وعلمائه الأعلام فى تأدية رسالته السامية اللغوية والعلمية والثقافية .

وفقنا الله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

محمود حافظ

عضو المجمع



٣ ـ كلمة الدكتور عبد الرازق عبد الفتاح ابراهيم

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد الأستاذ الدكتور رئيس مجمع اللغة العربية

الإخوة الأفاضل الخالدون أعضاء المجمع

سيداتي وسادتي

لم أكن لأصدق نفسي حينما بلغت بهذا النبأ العظيم ، نبأ تشريفي بعضوية هذا المجمع العريق صيته الشامخ علمه الذي ترنو إليه وتطمح عيون العلماء : فالحمد لله تعالى على هذا الشرف الذي أوليتموني إياه ، جزاكم الله خيرا وجعلني عند حسن ظنكم بي . وإن كنت مع قصوري وعجزي بينكم ـ أعاهدكم بأن أعمل بكل ما أملك من طاقات حتى أكون جديراً بهذا الكرسي العظيم الذي شرفتموني بالجلوس عليه .

وإني لأنتهز هذه الفرصة الطيبة فأتقدم بالشكر إلى الأستاذ الدكتور رئيس المجمع وإلى الأخ العزيز الأستاذ الدكتور محمود حافظ على ما أسبغاه على من تقريظ أراهما أجدر به مني وأولى : فبكرمهما صعدت وبكرم صفوة العلماء الخالدين اعتليت هذا المكان .

أما بعد .

فلقد حظيت بشرف كان بعيد المنال ، ولكن الله يعطي من يشاء بغير حساب ، فلقد حباني بمكان كان يشغله علم من أعلام القانون والاقتصاد في مصر وفي العالم العربي هو المغفور له الأستاذ الدكتور حسين خلاف .

وإن كان الحظ لم يسعدني بمعرفته معرفة كافية عن كثب . فإنني حظيت بلقائه مرات قليلة . فحينما كان يشرف على الحوار العربي الأوربي في الجامعة العربية اخترت لأرأس اللجنة الفرعية للوفد العربي في الحوار الخاص بالتعليم التقني في أواخر السبعينيات ، فوجدت فيه هدوءا تعجب به النفس فــلا تستثيره كلمة ولا يحرك انفعالاته حدث . كما وجدت فيه خفوت الصوت ورقة العبارة وسعة الأفق وشدة الغيرة على مصالح وطنه العربي .

وعلى كل فهو ملء السمع والبصر إذ يخفو إذا ما خفي الناس : فلا تجد قارئاً أو باحثاً يجهله ، فبعلمه الغزير ومعدنه الأصيل عرفه الناس ، وعرفته كما عرفوه وتوطدت معرفتي به من خلال مؤلفاته

العديدة ، ومن خلال إسهاماته العلمية والعملية . فقد كانت له إسهامات فى شتى المسائل التى تناولها دارسا ومنفذا ؛ ولم تكن اهتماماته بمنأى عن الأحداث الاجتماعية والسياسية فى مصر والعالم العربى إذ كان مواكباً التطورات الاقتصادية ولم يتخلف مرة واحدة عن إبداء رأيه إما فى بحوثه القيمة ومؤلفاته العديدة التى ألقت الضوء وأنارت الطريق لمسيرة الوطن ؛ وإما فى مشاركته الفعالة فيما يدور حوله من أحداث ، فلقد عين رئيسا لبعثة مصر إلى مقر الأمم المتحدة فى جنيف ، وشارك فى وفد الأمانة العامة للجامعة العربية واختير عضواً فى مجلس إتحاد الدول العربية المتحدة سنة ألف وتسعمئة وثمان وخمسين ثم عين وزيرا مشرفا على العلاقات الاقتصادية والفنية مع اليمن والجزائر ؛ ثم مستشاراً اقتصادياً لمجلس الوحدة الاقتصادية العربية ؛ ثم مشرفاً على الحوار العربى الأوربى فى الجامعة العربية ، ثم تولى وزارة العلاقات الثقافية الخارجية سنة ألف وتسعمئة وأربع وستين وظل -رحمه الله- على هذه المشاركة الجادة منذ أن تخرج فى كلية الحقوق جامعة فؤاد الأول سنة ألف وتسعمئة وأربع وثلاثين إلى أن استأثرت به رحمة الله فى إبريل سنة ألف وتسعمئة وخمس وثمانين .

ولم يكن الأستاذ الدكتور حسين خلاف ليترك هذا العمر يضيع منه سدى ؛ وهو المؤمن الذى نشأ نشأة إسلامية سليمة ؛ وتربى على حب وحفظ القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ؛ فعمل بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (خيركم من تعلم العلم وعلمه) فطفق يأخذ العلم عن كبار الأساتذة والعلماء حتى حصل على الدكتوراه فى القانون والاقتصاد من جامعة باريس بعد حصوله على الليسانس بخمس سنوات فقط .

ثم شرع فى تحقيق الجزء الثانى من الحديث الشريف فجاب العالم العربى يثرى بفكره النابه وعلمه الغزير فكر طلابه . حيث عين مدرساً بكلية الحقوق ؛ ثم تدرج فى وظائف الجامعة من مدرس إلى أستاذ مساعد فأستاذ للمالية العامة والاقتصاد السياسى ثم عين عميدا لكلية التجارة فى بغداد سنة ألف وتسعمئة وتسع وأربعين ، ثم عين فى أوائل الخمسينات أستاذا للاقتصاد السياسى ؛ فرئيسا لقسم الاقتصاد فى معهد الدراسات العربية العالية واستمر فى هذا المنصب حتى أوائل الستينات ؛ ثم عاد إلى جامعة القاهرة فعين أستاذا غير متفرغ للمالية العامة فى قسم الدراسات العليا ، فتخرج على يديه العشرات من أساتذة الاقتصاد حتى سنة ألف وتسعمئة وخمس وثمانين .

ولم يكتف -رحمه الله- بتلك الجولة الواسعة التى أفاد بها الكثير من الدارسين والباحثين فحرص على أن يخلف وراءه تراثا يفيد منه طلاب العلم الذين حرمهم القدر من الأخذ عنه فى حلقة العلم ولم يكن هذا التراث آنذاك بعيدا عن المتغيرات المالية والاقتصادية والسياسية فى مصر إذا جاءت رسائله ومؤلفاته موا كبة تلك المتغيرات ، فكانت رسالته الأولى عن «ضريبة التركات فى مصر من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية».

وكانت رسالته الثانية عن « ضريبة التركات فى مصر من الناحية التشريعية » .

ثم بعد ذلك فى الثلاثينيات -حينما تحررت مصر من ربقة الامتيازات الأجنبية- ساهم فى إصلاح النظام الجمركى وتعديل النظم المالية بمؤلفية « ضريبة الأرباح التجارية والصناعية » ؛ و « مالية بلدية الإسكندرية » .

ثم ألف -بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور عبد الحكيم الرفاعى رحمه الله- كتابا بعنوان « لجان التقدير فى الضرائب التجارية والصناعية ومبادىء المالية العامة » ؛ كما ألف خلال الخمسينيات والستينيات كتابا بعنوان « الأحكام العامة فى قانون الضريبة » ويعد هذا الكتاب دراسة رائدة فى مجال القوانين الضريبية .

وفى سنة ألف وتسعمئة وست وستين أصدر كتابه عن « الإيرادات العامة فى مصر الحديثة » وإلى جانب هذه الكتب والبحوث التى شارك بها فى الحياة السياسية والمالية والاقتصادية بمصر قام بتأليف كتب وبحوث أخر فى مسائل اقتصادية وطنية وعربية ودولية منها ما يلى :

١ - نقابات العمال فى مصر عام ألف وتسعمئة وخمس وأربعين .

٢ - التعاون التقنى بين البلدان النامية فى منطقة غرب آسيا عام ألف وتسعمئة وسبع وسبعين ؛ وقد أعد هذا البحث تلبية لطلب برنامج الأمم المتحدة .

٣ - الآثار الاقتصادية الناجمة عن غلق قناة السويس وقد قدم هذا البحث إلى مؤتمر التجارة والتنمية فى سانتياجو بشيلى .

ولم ينسه كل ذلك أن يشارك فى إثراء اللغة العربية ، فقام بتوحيد المصطلحات الاقتصادية بوصفه مقرراً للمؤتمر الأول للاقتصاديين العرب الذى عقد بالقاهرة عام ألف وتسعمئة وستين ، كما قام بوضع معجم اقتصادى باللغة العربية بوصفه رئيساً للجنة الاقتصادية فى المجلس الأعلى للفنون والآداب .

وازداد إثراؤه اللغوى حينما انضم إلى الخالدين العاكفين على شئون اللغة العربية فى سنة ألف وتسعمئة وتسع وسبعين ؛ فعمل مقرراً للجنة الاقتصاد التى قدمت لمجلس

المجمع ومؤتمره فى ثلاث دورات مائتين وخمسة وثلاثين مصطلحاً بعد أن قامت بترجمتها وتعريفها . كما عمل عضواً بلجنة الجوائز التى تتوج جهود الخالدين بترشيحهم للجوائز التقديرية الكبرى سواء فى مصر أو فى البلاد العربية .

حقا أيها السادة الزملاء لقد كانت سيرة الدكتور خلاف سيرة طيبة مملوءة بالعمل والكفاح معبأة بالإخلاص والوفاء لقطره الحبيب مصر ووطنه العربى الغالى . وإنى لأعترف أمام حضراتكم بأنى لم أوفه حقه ؛ فقد أوجزت الحديث عنه وإنما يشفع لى فى ذلك أنكم تعرفونه أكثر منى فقد جمعته وإياكم زمالة هذا المجمع العريق فسمعتم منه مالم أسمع وعرفتم عنه مالم أعرف رحمه الله ورضى عنه وأرضاه .

السيد الأستاذ الدكتور رئيس المجمع .

السادة الأساتذة الزملاء أعضاء المجمع

إن تذاكرنا لسيرة السلف الصالح من العلماء الأفذاذ الذين ضمتهم رحاب هذا المجمع الخالد تقفنا على مدى ضخامة الأمانة التى حملها هذا المجمع على كاهله ؛ أمانة الحفاظ على اللغة العربية ورقيها ورفعة شأنها ؛ وإنا معشر العلميين ننظر إلى اللغة لاباعتبارها وسيلة التفاهم والتواصل بين أبناء الأمة الواحدة فحسب بل باعتبارها وعاء فكرياً يضم تراث الأمة وثقافتها ويدل على رقيها وحضارتها فبقدر رقى اللغة وتطورها وقدرتها على العطاء والوفاء بمستحدثات العصر يكون رقى الأمة وتطورها ونهضتها . وإن هذا لعمرى هو بغية الوعاة من العلماء والدعاة وفى طليعتهم أعضاء هذا المجمع الموقر الذين لايألون جهداً فى سبيل إثراء اللغة العربية وتوسيع أقيستها عن طريق التوليد والاشتقاق حتى تكون دائماً وأبداً لغة معطاءة مواكبة لكل تطور علمى حديث ولعل فيما أصدره المجمع من معجمات علمية متخصصة فى عدد من فروع العلم المختلفة كالجيولوجيا والفيزيقا والطب ، والتربية وعلم النفس ، والجغرافيا ، والفنون ونحوها هو خير دليل على مدى الجهد الذى يبذله مجمع الخالدين من أجل الحفاظ على اللغة العربية وإثرائها وجعلها وافية بمستحدثات العلم الحديث . ولاعجب فى ذلك فاللغة العربية لغة معطاءة دائما ، متطورة أبداً قادرة على الدوام على أن تؤدى رسالتها أدق أداء وصدق الشاعر إذ يقول :

أنا البحر فى أحشائه الدر كامن

فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى ؟

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

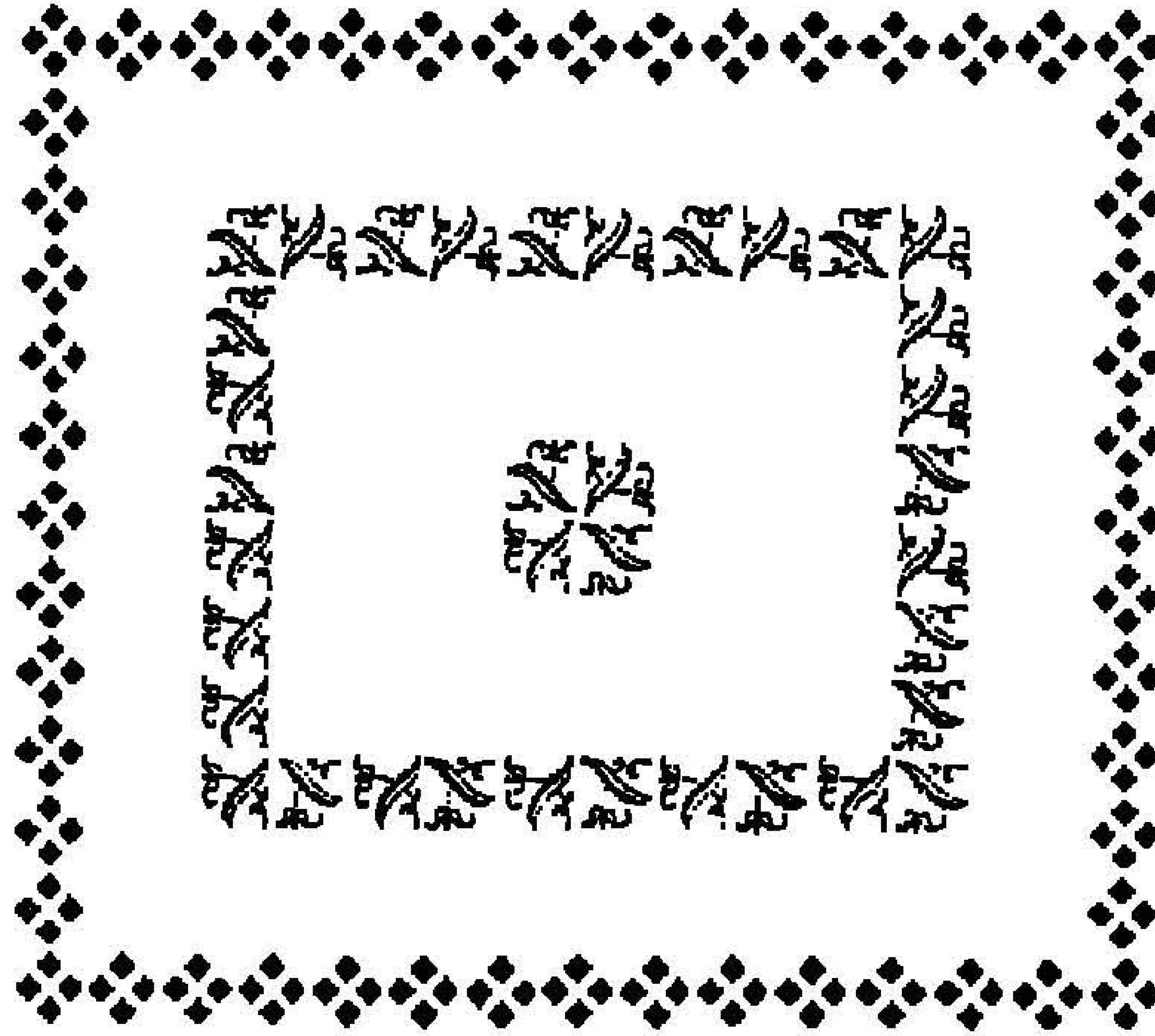
عبد الرازق عبد الفتاح ابراهيم
عضو المجمع

كلمـة الختـام

الدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع

انشكر الجزيل للزميلين الكريمين على ماقدماه لنا من بيانات ومعلومات فهذه بيـانات للتاريـخ .

وشكراً لكم جميعاً على إسهامكم معنا فى هذا الاستقبال لمن هو جدير به ونعول عليه كل التعويل فى أداء رسالة سبق له أن اضطلع . بها . ورفعت الجلسة .



في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الأربعاء ٥ من ربيــع الأول سنة ١٤٠٨ هـ الموافق ٢٨ من أكتوبر سنة ١٩٨٧ م ، أقام المجمع حفلا لتأبين عضو المجمع المرحوم الأستاذ الدكتور ابراهيم ادهم الدمرداش وهاهي ذي نص الكلمات التي ألقيت في هذا الحفل :

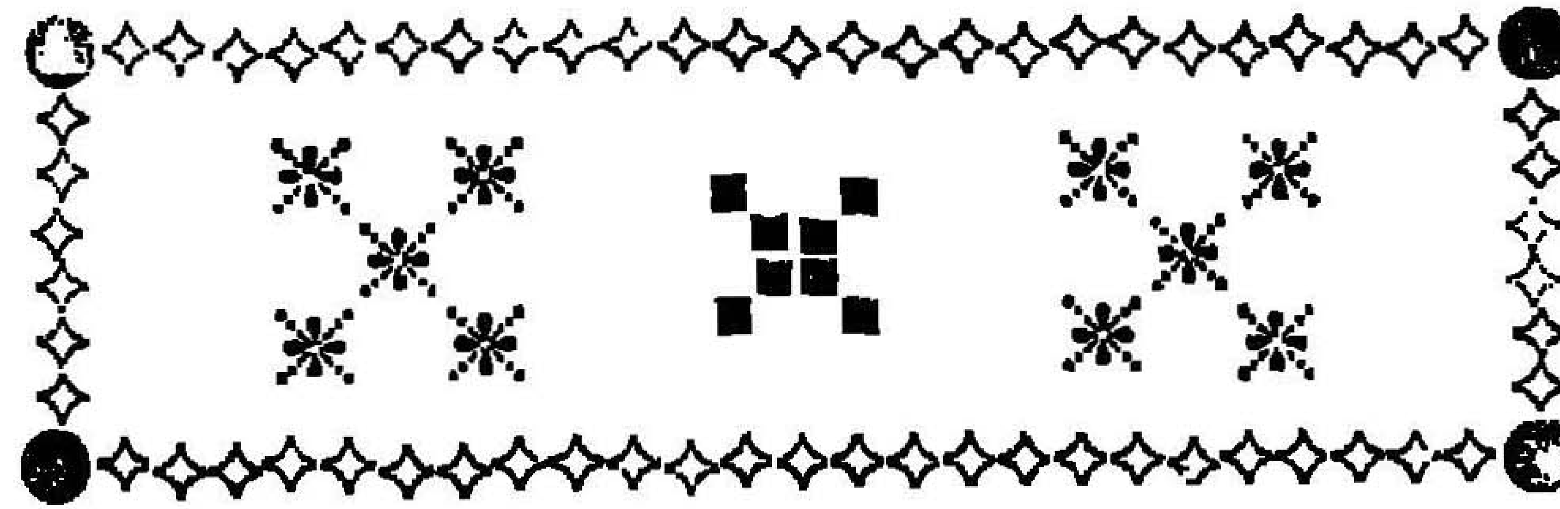
١ - كلمة الدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع

سيداتي . . سادتي ، نودّع اليوم أخا عزيزا وزميلا كريما عرفته منذ شبابه الباكر عن طريق صلات أسرية بآل الدمرداش ، ثم تابعت خطوه بعد ذلك في كلية الهندسة أستاذا وعميدا ، وجاوز نشاطه هذه الناحية إلى نواحٍ أخرى خارجية وداخلية : فكان اسمه بين الموفدين إلى المؤتمرات الدولية وكل الهيئات العلميه الكبرى .

وفي عام ثلاثة وسبعين سعدنا بصحبته في هذه الدار ؛ فأشهدكم على أنه أحبّها حبا جما ؛ وتعلق بها كل التعلّق ؛ وأعطاها كل مايستطيع عطاءه دون تردّد سواء أكان في جلسات المجمع العلمية أو في لجانه المختلفة : غذّاها بغذاء نذكره له دائما . .

تغمده الله برحمته ؛ وجزاه خير الجزاء. عما قدّم لأمته ووطنه : في خدمة لغة العلم ولغتنا لغة القرآن الكريم .

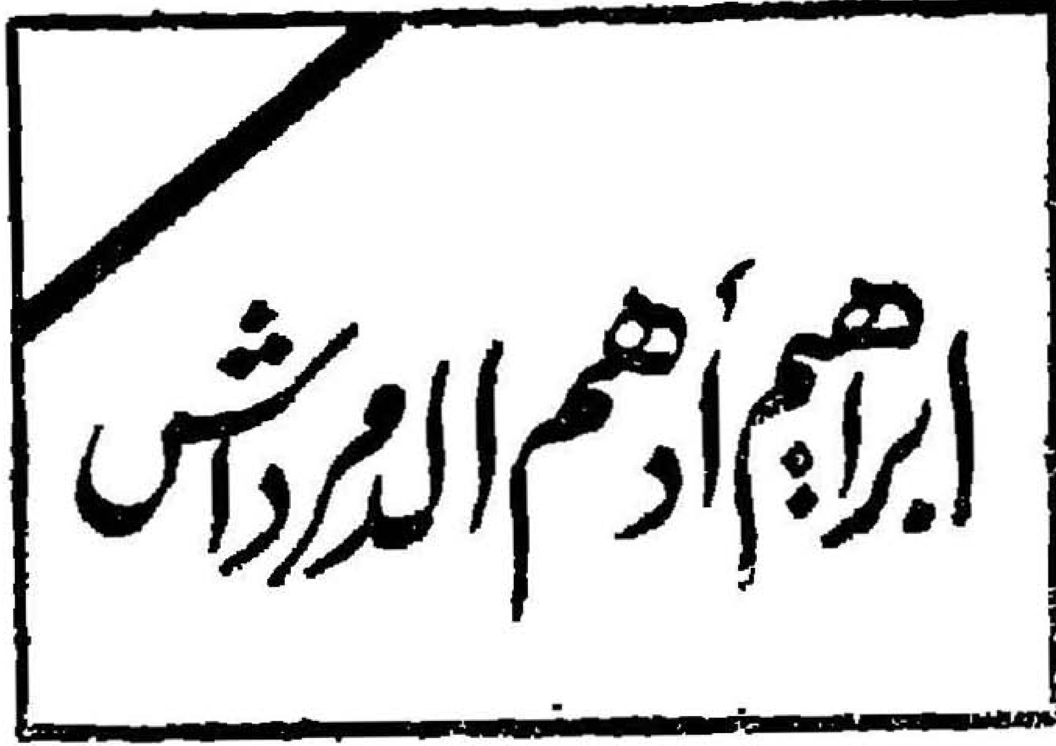
* * *



٢ ـ كلمة المجمع

للدكتور عبد الحليم منتصر

فى تأبين الفقيد الدكتور



بسم الله الرحمن الرحيم

« يا أيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ».

صدق الله العظيم .

وها هو الأستاذ الدكتور إبراهيم أدهم الدمرداش الذى ولد فى أكتوبر سنة ١٩٠٦ ، وكان مثال النفس المطمئنة الراضية المرضية يعود إلى ربه ليؤبن فى أكتوبر سنة ١٩٨٧ . بعد أن نهل من موارد العلم ومصادره وأعطى الكثير إلى أجيال متتابعة من تلاميذه . فقد كان مثالا يحتذى فى تحصيل العلم وفى عطائه لطلابه ومريديه وهم كثير . وقد حصل على دبلوم الهندسة ثم تابع دراسته الهندسية فى سويسرا بجامعة زيوريخ ، لم يكتف بالتحصيل فى العلوم الهندسية بالدراسة الجامعية ؛ ولكنه مارس المهنة فى عدة مصانع حيث اكتسب خبرة ومهارة فنية ؛ قل أن تتوافر لدى الكثيرين من ريجى الكليات العلمية ، كما تدرب فى شركات هندسية عالمية . مما أتاح له الإلمام بدقائق العمل الهندسى ، مما هيأ له شغل مناصب هندسية قيادية عندما عاد للعمل فى مصر .

لقد شغل المرحوم الأستاذ الدكتور إبراهيم أدهم الدمرداش الوظائف الجامعية المختلفة فى كلية الهندسة بجامعة القاهرة ؛ فتدرج من مدرس إلى أستاذ مساعد ثم أستاذ لكرسى حساب الإنشاءات . ثم لكرسى الكبارى والإنشاءات المعدنية ؛ ثم كرسى هندسة الطيران وتولى عمادة كلية الهندسة عدة مرات فى ١٩٥٢ ؛ ١٩٥٤ ؛ ثم ١٩٦٢ ؛ وكان عضوا فى اللجنة الدائمة للجمعية الدولية للكبارى والإنشاءات ، كما كان نقيبا للمهندسين سنة ١٩٥٥ . وقد شارك المرحوم فى عدة مؤتمرات دولية علمية فى باريس وبرلين وزيورخ وكمبردج واستكهلم وبودابست بالمجر ؛ فهو عالم عالمى بكل ما تحمل الكلمة من معنى وقد حصل على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم .

وله فى مجال الخدمة الوطنية والقومية

شأن أى شأن،فهو عضو فى مجلس إدارة معهد أبحاث البناء وعضو بمجلس إدارة المؤسسة العامة للطيران ، وعضو اللجنة العليا لأبحاث الفضاء ، وله مقترحاته القيمة فى تطوير التعليم الجامعى .

وقد استقبل عضوا بمجمع اللغة العربية فى مايو سنة ١٩٧٣ ، فعايشنا هنا نحو خمسة عشر عاما سعدنا بمناقشاته وبحوثه وآرائه وأفاد المجمع بمقترحاته فى مجالات علمية ولغوية مختلفة وهو الذى يقول فى حفل استقباله « إنما وقفت ببابكم طالبا ومريدا ، ودلفت إلى محرابكم عضوا جديدا » . — وهكذا كان أبدا يتحلى بتواضع العلماء : ذاكرا الحديث الشريف : « مايزال طالب العلم عالما ، حتى إذا ظن أنه علم فقد جهل » ومرددا الآية الكريمة « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » (صدق الله العظيم) — مع أن شهرته العلمية قد تخطت حدود بلاده : لانتشار بحوثه العلمية بلغات أجنبية يجيدها كالألمانية والإنجليزية والفرنسية : مما طبقت شهرته هذه الآفاق العلمية العالمية فى الشرق والغرب على السواء. ولعل من أهم ميزات المرحوم الدكتور الدمرداش : حفاظه على دينه ولغته ، رغم اغترابه عدة سنين فى الدول الأوربية ، فلم تغره ظواهر المدنية الحديثة ، بل ظل محافظا بل ومفاخراً بدينه ومشاعره محافظا على شعائره مع اطلاع واسع فى أصوله وفروعه.

وينبغى ألا ننسى أنه إلى جانب ذلك : شاعر ، وميزة الشاعر العلمى ، أو الشاعر العالم أن أحاسيسه وتخيلاته وصوره الشعرية مدعومة على أسس من الخيال العلمى رفيع المستوى : ويقول فقيدنا العظيم فى هذا المجال : « إن الفكرة والوحى والخيال : هى مصدر الرسم والكتابة والكلام ، إلا أن طريقها إلى الرسم أقصر وإلى الكلام أطول وأطول ، ذلك أن اللفظ ترجمة المشاهدة ، حسية كانت أو معنوية والكتابة ترجمة لهذه الترجمة » .

وكان يدعو إلى الحفاظ على العربية الفصحى ، وأنه ينبغى أن نرتفع إلى الفصحى وألا نتدنّى إلى العامية الدارجة التى تختلف زمانا ومكانا ، والتى من شأنها أن تباعد بين الشقيقين العربيين ، فوق أنها لاتكتب ، ولاتكفى لدقة التعبير والأحرى بنا أن نصوب هاتيك شيئا فشيئا ، حتى نرتفع إلى الفصحى فنجمع بذلك الشمل على السواء . وهو يقول إنه لاينادى بلزوم مالا يلزم ولكننا نقول بوجوب الاهتمام بتعليم الفصحى ، والعمل على استخدامها ، فوحدة اللسان هى السبيل إلى وحدة القلب ، وإذا جمع القرآن الكريم بين أفئدتنا ، فلتجمع الفصحى بين ألسنتنا ، والمرء بأصغريه قلبه ولسانه ، وبعد : ففقيدنا أيها السادة علم من نحو مائة وخمسين علما وفدوا على هذا المجمع منذ إنشائه ، إنهم جميعا : رغم تخصصاتهم المختلفة فى العلم والأدب ، سدنة للغة العربية .

لقد ساهم فقيدنا فى نشاط المجمع لمعرفته الوثيقة باللغة العربية إلى جانب تخصصه العلمى والهندسى فقد عمل فى لجنة الرياضة ولجنة الفيزيقا ولجنة العلوم الهندسية ، وقد ألقى عددا وافرا من البحوث والدراسات العلمية واللغوية إلى جانب قصائده فى رثاء عدد كبير من أعضاء المجمع .

نعم أيها السادة ، لقد وفد على هذا المجمع منذ إنشائه ، نحو مائة وخمسين من أساتذة اللغة والعلم والدين ، لم يبق منهم إلا هذا العدد القليل الذى لا يتجاوز بضعة وثلاثين عضوا ، أما الباقون فقد انتقلوا إلى رحمة الله بعد أن أدوا واجبهم نحو العلم والوطن واللغة وكانوا مُثُلاً تحتذى فى خدمة اللغة العربية ، ولكنها سنة الحياة ، أو كما يقول علماء الحياة والأحياء : دورة الحياة ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

لقد سعدت قاعات مجمعنا اللغوى بنخبة ممتازة من العلماء والمحققين مصريين وعرب وأجانب ، جمعوا بين العلم والتجربة ، هدفهم الأول خدمة اللغة لكى تفى بمتطلبات العصر وتسد حاجات العلم والتقنية ، وكان فقيدنا المرحوم الدكتور الدمرداش واحدا من هؤلاء الأعلام أعطوا بسخاء وآثروا اللغة العربية بمصطلحات عربية أو معربة فى فروع العلم المختلفة من طب وكيمياء وهندسة وجيولوجيا ورياضيات وفيزيقا إلى جانب البحوث اللغوية وألفاظ الحضارة الحديثة وكذلك أصدر المجمع عشرات المعاجم فيها مئات الألوف من المصطلحات ، أسهم فقيدنا فى كثير منها .

ولقد كان من حظى أن عايشت نفرا كريما من هؤلاء العظماء منذ نحو أربعين عاما أى منذ الأربعينيات حين كان المجمع فى مبناه بميدان التحرير ، ثم فى الجيزة ثم هنا فى الزمالك ، فتعلمت على أيديهم الكثير ، عملت معهم خبيرا ثم عضوا منتخبا مما زاد فى تقديرى لهذه الصفوة الممتازة علما وأدبا وخلقا .

واليوم نؤبن زميلا كريما لحق بهم إلى رحمة الله ذلك العالم الجليل والمهندس القدير والشاعر الكبير الأستاذ الدكتور إبراهيم أدهم الدمرداش تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته ، ونسأل الله لكم جميعا الصحة والسعادة والتوفيق ، إنه على كل شىء قدير والسلام عليكم ورحمة الله .

عبد الحليم منتصر

عضو المجمع

٢ ـ كلمة الشعر فى تأبين الفقيد

للدكتور محمد يوسف حسن

وما العلماء ان قبضوا بموتى

« إلى روح أستاذى وزميلى وصديقى العظيم .
المهندس : المعلم . المجمعى . الشاعر .
الدكتور إبراهيم أدهم الدمرداش ، تغمده
الله بواسع رحمته . وأسكنه فسيح جناته »

قرأت النّعىَ . فانهمرتْ دُمُوعى ... وبتُّ قَعيدَ حُزْنىَ والسُّهادِ
أحقاً مات أدهمُ ، وافترقنا ؟ ... ويُوحشُنى إلى يوم المَعَادِ ؟ !
ولست أراه بعد اليوم ، إلاّ ... برؤيا ، أو كطيفٍ فى رقاد ؟
فيانفسى . أتنفعك التعازى ؟ ... وهل يجديكَ صبرٌ يا فؤادى ؟

* * *

ويا لعذاب نفسى بالفِراقِ ... ويالحنين قَلبى للتّلاقى

* * *

أأدهمُ كنتَ فى العلماء بحراً ... وفى الأُدبَاء مرتفعَ العمادِ
وللعربيةِ الفصحى نصيراً ... وحارسَ ربعِها من كلِّ عادِ
وبالخُلقِ الكريمِ طُبعتَ طبعاً ... وزادُ الدينِ عِنْدك خيرُ زادِ
عففتَ عن الصغائر والدَّنَايا ... وكم لكَ بالمكارم من أيادِ

* * *

عظيماً كنت فى خلقٍ وعلمٍ   وفى الإيمانِ كم لك من خلاقِ

* * *

عرفتُك فى الصداقة خِدنَ صدقٍ   شفيفَ الروح : فيَّاضَ الودادِ

وصاحبَ هِمَّةٍ إنْ جَدَّ جِدٌّ   وفى الآراء : كنتَ أخا سَدادِ

وفى حقٍّ . تصول ولا تبالى   ولكنْ دون عُنْفٍ أوْ عِنادِ

تقارعُ حُجةً : بسديدِ رأيٍ   وتُفْحِمُ :لا تُسِفُّ .ولا تُعادِى

* * *

أبيًّا كُنتَ . لكنْ دون عسفٍ   رقيقاً : فى الطباعِ بلاانِفَاقِ

* * *

بحوثُك يا مُهَنْدِسُ .فى مبانى الصُّلبِ : إنجازٌ : وفخرٌ للبلادِ

عليها اليوم قد قامت صروحٌ   يُضارع سَمْتُها ذاتَ العمادِ

وفى علم الحديد فتحتَ فتحاً   بمدرسةٍ عُلاها فى ازديادِ

تركتَ بها تلاميذاً ثقاتٍ   لِنَهضتِنا هُمُ خيرُ العَتادِ

* * *

وما العلماءُ إنْ قُبِضوا بموتَى   فَذِكرُهُمُ عَلَى الأيامِ باقِ

* * *

وكَمْ لكَ يا مُهنْدِسُ من قريضٍ   طَلِيٍّ اللفظِ والمعنى المُرادِ

عَرُوضٌ سالمٌ : وكذا القوافى   بَرِئْنَ من الإجازةِ والسِنادِ

معانيه تبلَّج كالضِّياء   تنوِّر كلَّ مجتمعٍ وناد

تُهذِّبُهُ روائع كالدرارى   تُزَيِّنُ جِيدَ نَاطقةٍ بضاد

* * *

أأدهمُ : فى رحاب الخلد تَثْوِى   مَقَامُكَ سامقٌ فيها وَرَاقِ

محمد يوسف حسن

عضو المجمع

٤ – كلمة أسرة الفقيد

للدكتور مصطفى ابراهيم أدهم الدمرداش

سيدى كبير الخالدين

سادتى أيها الخالدون

سيداتى ، آنساتى ، سادتى

لقد كان تكريمكم لا تأبينكم اليوم لعميد أسرتنا زميلكم ووالدى المرحوم الأستاذ الدكتور إبراهيم أدهم الدمرداش خير شاهد على جليل وفائكم ، وأقوى دليل على نبيل مشاعركم وفيض أحاسيسكم التى عبر عنها زميلا الفقيد الأستاذ الدكتور عبد الحليم منتصر والأستاذ الدكتور محمد يوسف حسن .

وإن ذلك التكريم العلمى من عمالقة لغة القرآن وسَدَنَة الأدب هو خيرُ ما يواسى الأسرة ويخفف عنها مصابها الفادح .

وسيظل فقيدنا خالدا بسجاياه وبآثاره اللغوية والعلمية والهندسية ؛ وسيبقى حيا بهذا التكريم من رجال يعرفون الفضل لذويه ولا غرو فى ذلك فأنتم صفوة رجال الفكر وقادة الرأى وأساتذة الجيل والمدافعون عن حياض اللغة العربية وآدابها وعلومها .

إن روح فقيدنا الغالى لترفرف عليكم من علياء السماء لتهبكم عالى الرضى والعرفان ولتلهمنا جميعا الصبر والسلوان .

وإن لم يكن بد من أن تكون للأسرة كلمة فكلمتنا هى تحية إكبار وإجلال واحترام لهذا الوفاء الرائع الذى ضربتم له المثل الأعلى فى حفلكم هذا الجامع الشامل .

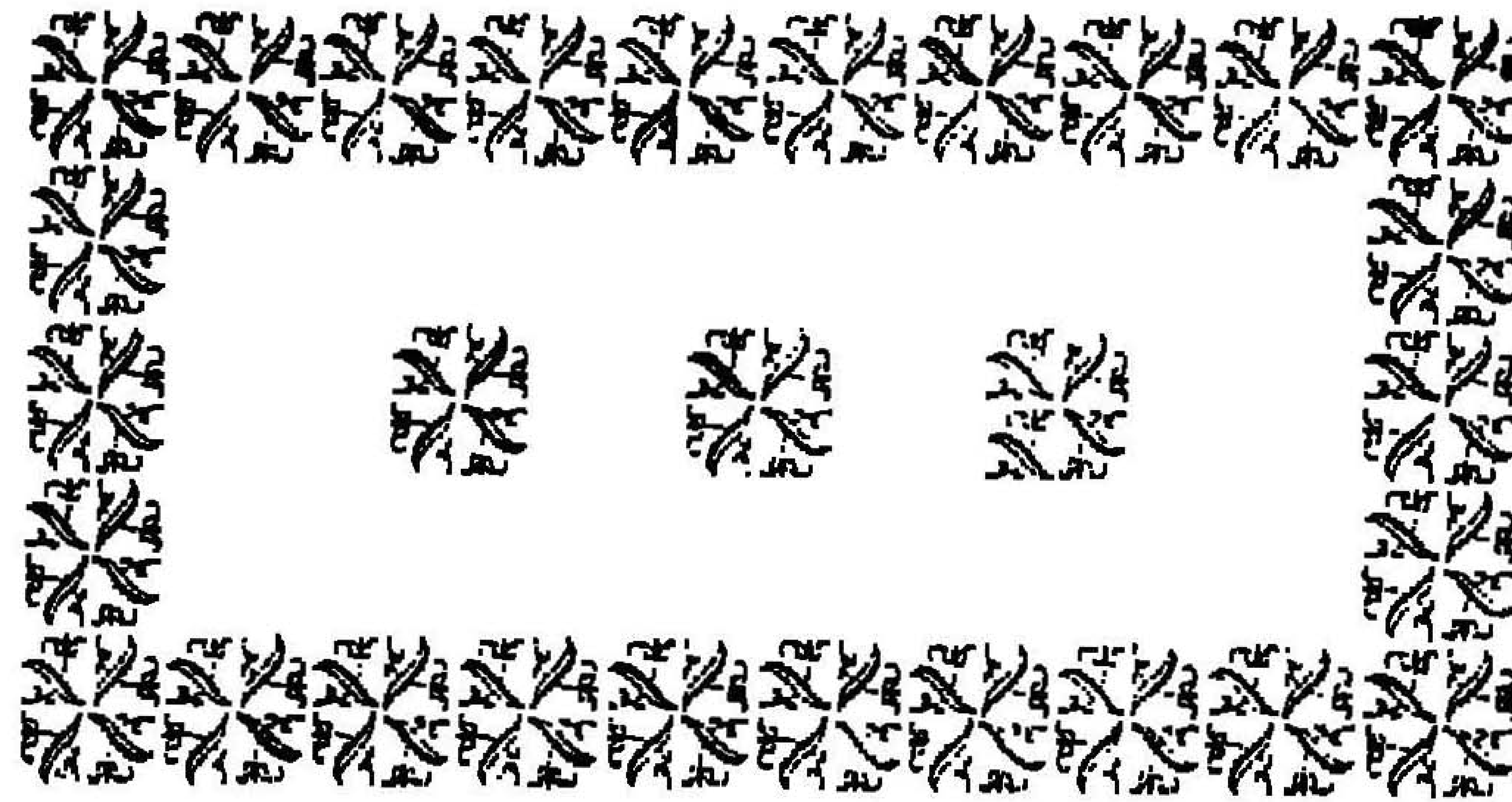
وإنى باسم جميع أفراد أسرة الفقيد أتقدم إلى السادة الأساتذة رئيس المجمع وأعضائه السادة الحاضرين بأسمى آيات الشكر والتقدير على ما حَبَوْا به عميد أسرتنا من تكريم . نسأل المولى جل جلاله أن يثيبكم عنه وأن يجزيكم بما أنتم أهل له .

والسلام عليكم ورحمة الله .

٥ ـ كلمة الختام

للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع

سيداتى : سادتى ، شكر الله لكم الكريمة ، ومامات رجل خلّف ما خلفه جميعا ، وعزاؤنا جميعا للأسرة الدمرداش ورفعت الجلسة .



في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم الاثنين ٢٩ من ربيع الآخر سنة ١٤٠٨ هـ الموافق ٢١ من ديسمبر سنة ١٩٨٧ م ، أقام المجمع حفلا لتأبين عضو المجمع المرحوم الأستاذ مصطفى مرعى وهاهى ذى نص الكلمات التى ألقيت فى هذا الحفل :

كلمة المجمع
للأستاذ عبد العزيز محمد

فى تأبين المرحوم الأستاذ :



سادتى

منذ سنوات مضت وقفت موقفى هذا علواً فى الزهو وأنا أقدم الأخ العزيز مصطفى مرعى بمناسبة انتخابه عضواً فى المجمع. واليوم أقف فى نفس الموقف يغمرنى عميق الأسى لأودع هذا الأخ العزيز وعبارات التأبين مهما أفاضت لا تستطيع أن تفى بحق شخصية فذة كان صاحبها من كبار رجال الفكر المعاصرين — جاب صاحبها ما يربو على الستين عاما شتى ميادين الحياة وهو فى أى ميدان قمة من القمم ... فهو فى المحاماة شيخ المحامين بلا منازع وهو فى القضاء يتسم بتولى أعلا المناصب مستشاراً فى محكمة النقض . وهو يقوم فى مجال علم القانون بإلقاء المحاضرات فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة . ويساهم فى وضع المراجع الفقهية بمؤلفه القيم « المسئولية المدنية » وهو يلى الوزارة أكثر من مرة . . وهو بعد هذا من كبار المجاهدين الأحرار الذين جاهدوا جهاد الأبطال فى سبيل الصالح العام مما يخلده له التاريخ بكل إكبار وإجلال .

وفى كل الميادين التى سعى فيها سعيه حريص الحرص كله على أن تصاحبه مثل عليا نادرة تلازمه ما لا يلزم ولا يعبأ معها بما تجره عليه من عنت وإرهاق . ومن فقد الأصدقاء وغضب أصحاب السلطان . .

جدير بمثل هذا الرجل الفذ أن تحصى أمجاده فى سجل حافل يكون جزءاً من التاريخ الحديث . : وها هم الرواة يطالعوننا بين الحين والحين بما شاهدوا أو عرفوا من مآثر الفقيد وأمجاده ويقينى أنه قد يمضى زمن طويل قبل أن يبلغوا فى ذلك النهاية .

سادتى

فى سنة ١٩٧٣ انتخب الفقيد عضوا بمجمع اللغة وكان الفقيد — وهو من رجال القانون — موسوعى المعارف فلما باشر نشاطه فى المجمع أخذ يناقش ويراجع كافة ما يعرض فيه من مفردات مختلف أنواع العلوم لتعريبها . ولعله فى صدر شبابه وعى رأى من قال « إن أردت أن تجيد فهم القانون فاقرأ فى غير القانون » فقرأ وقرأ فحظى بالأمرين معا . . القانون وغير القانون . . . وكانت له هذه الذخيرة من العلوم والمعارف .

وقد انتخبه المجمع عضواً فى لجنة القانون ولكن ما لبث أن طالبت بضمه إليها لجنة الألفاظ والأساليب فكان عطاؤه فى اللجنتين جزيلا مما يذكر له دواماً بالحمد والثناء المستطاب وقد ساهم فى وضع مشروع قانون المجمع ولائحته .

وقد رشحه مجلس المجمع لجائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية لكنه اعتذر فى نفس الجلسة عن عدم قبوله هذا الترشيح . .

أنهى الفقيد بنجاح باهر دراسة القانون فى سنة ١٩٢٣

شق طريقه فى الحياة بممارسة المحاماه التى هيأتها له ما وهبه الله من فصاحة لا تدانى وما أوتى من سلامة فى المنطق وبراعة فى التأويل والاستدلال مع صدق فى القول — كل هذا يؤدى بأسلوب جزل أخاذ ينساب كأنه موسيقى عذبة يشتهى سامعها أن تطول وتطول .

وقد كان له فى المحاماة مذهب فريد فهو يحرص كل الحرص على انتقاء اللفظ واختيار العبارة حتى يبدو كأنه فنان يصور لوحة من اللوحات فيقدر لها حجمها وأبعادها ويؤلف بين ألوانها شأن أى فنان قدير بارع حتى إذا أتمها بدت كأنها تتعلق بحكم القاضى تسبقه أسبابه .

وهو فى ممارسة المحاماة لا ينسى مثله العليا . . فهو يقول إن المحاماة مروءة ونجدة وهو حريص على هذه المثالية فى كل صورها ويكفى أن نذكر أنه وكل فى إحدى القضايا وجاءه الموكل بعد حين وأسر إليه مغتبطا أنه استطاع أن يتصل بالقاضى . . فنظر إليه الفقيد غاضباً وقال « إليك عنى . . إختر لك محاميا آخر . . فأنا لا أدخل المحكمة من بابها الخلفى . » . .

وقد مارس الفقيد أعمالا مختلفة كان موفقاً

فيها كل التوفيق بل كان علماً من أعلامها ولكن كان هواه دائماً مع المحاماة كأنه لم يخلق إلا لها . فقد كلف بها إلى غير حد . . مهما ولى من عمل عاد مشوقاً إليها — وليس أدل على مكانة المحاماة من قلبه من تصدير مؤلفه القيم «فى المسئولية المدنية» بهذه العبارة : إلى المحاماة مهنة الكرامة والكفاح . . . » بل لعل ما ينبئ عن عمق هذه العبارة فى نفسه وصدق مشاعره بشأنها من أنها صدرت عنه بعد أن تولى القضاء أشرف المهن وأكرمها .

سادساً :

فى سنة ١٩٣٢ وقع عليه الاختيار قاضياً فى أول درجات القضاء وجعلت ولايته فى الإسكندرية حيث كان يمارس المحاماة وهو أمر لم يعهد من قبل . . ولكن سوغه لأولى الأمر ما عرف عن نزاهته التى تعلو على كل شك ومثاليته وخلقه القويم — ومما يذكر أنه حينما تولى القضاء تلقى خطاباً من أب المحامين جميعاً ورائدهم الأول إبراهيم الهلباوى ختمه بقوله :

« وأعتقد أن المحاماة مهما كثر عددها سيبقى مكانك الذى كنت تشغله فيها خالياً إلى زمن طويل . . . » وهذا أكبر دليل على نبوغ الفقيد المبكر فى المحاماة

وما كاد يتولى القضاء حتى أحس مايشكو منه القضاة . . فدعا لعقد مؤتمر لتأييد مطالبهم وكان أهمها وجوب استقلال القضاء ومد الحصانة المقصورة على المستشارين إلى القضاة بجميع درجاتهم . . . ونشرت الصحف أمر المؤتمر فدعى وزير العدل وكان إذ ذاك أمين باشا أنيس — دعا الفقيد ولفيفاً ممن أيدوه — وكنت أنا واحداً منهم ولما قابلنا الوزير واجهنا بأنه لا داعى لعقد المؤتمر قائلا أن الحكومة ليست مستعدة بتاتاً لمناقشة من خصم مصاف المستشارين للقضاة فناقشه الفقيد دونه جدوى .

وعلى ذلك رؤى العدول عن عقد المؤتمر وانتهى الأمر ولكن رغماً عن ذلك فقد قررت وزارة العدل نقل الفقيد من الإسكندرية إلى الفيوم وندبه للعمل فى محكمة جزئية صغيرة مما عده القضاة إذ ذاك إجراءاً تأديبياً مقنعاً — ولكن لم ينل ذلك منه شيئاً فقد قالوا قديماً أن العظيم كالشعلة لقز بها فتزداد اشتعالا — وظل الفقيد حيث نقل إلى أن وليت وزارة جديدة فقررت رد اعتباره ونقله محكمة القاهرة وندبه مفتشاً فى التفتيش القضائى يراجع أهداف القضاة ويقدر لكفايتهم وذلك رغماً عن حديث عهده بالقضاء تقدير عظيم لاشك فيه . . . ولكن رغماً عن هذا التقدير العظيم فقد آثر أن يستقيل فى سنة ١٩٣٦ ويعود للمحاماة فى القاهرة « والمحاماة» بالنسبة إليه هى المنزل الأول الذى تهوى إليه النفس دائماً .

وفى سنة ١٩٣٩ عينى محامياً عاماً وبدأ أول الدرجات العالية فى القضاء وفى سنة ١٩٤١ عين مستشاراً بمحكمة استئناف القاهرة .

وأخيراً عين فى سنة ١٩٤٦ مستشاراً بمحكمة النقض وبذلك علا أعلا مناصب القضاء .

وفى سنة ١٩٤٥ زاملته فى العمل فى دائرة واحدة بمحكمة استئناف القاهرة وأشهد أنه كان مثال القاضى الذى يؤدى الأمانة حق الأداء فلا يترك صغيرة فى الدعوة إلا ألم بها وقدرها .

فإذا كانت المداولة فهو لا ينفك يناقش ويجادل حتى يقنع أو يقتنع ولا يكف إلا إذا تجلى وجه الحق باعثاً فى النفس كمال الطمأنينة . . مثال رائع من التفانى فى أداء الواجب . . — ومن محكمة النقض دعى لرياسة هيئة قضاء الدولة . . . فأرسى فيها تقليداً جديداً هو أن العضو فيها مهما كان مركزه فمكانه ساحة المحكمة لا مكاتب الهيئة . . وضرب المثل بنفسه فكان يترافع فى القضايا الهامة ولا يرى غضاضة أن يقف فى ساحة المحكمة ملتمساً الحكم لصالحه بعد أن كان يقضى — وهو جالس على المنصة — قضاء لا معقب عليه . .

ثم بعد ذلك ولى الوزارة مرتين الأولى فى وزارة إبراهيم عبد الهادى . والأخرى فى وزارة حسين سرى . التى استقال منها تلك الاستقالة التى نشرت واستفاض أمرها . . والتى تندد فيها صراحة وبعنف بسلوك رئيسها فى سياسته سلوكا عده إذ ذاك غير قديم وروى أصدقاء الفقيد أنهم حاولوا إقناعه بالتمهل فى تقديم الإستقالة بعض الوقت حتى يتم المدة التى تؤهله لنوال معاش من الدولة .

وهو أكبر معاش يقرره القانون — معاش وزير — ولكنهم تناسوا أنهم يحاورون مصطفى مرعى الذى لاوزن عنده للماديات أمام المثل العليا التى لايحيد ولايتوانى عنها... فقد فقد المعاش الكبير ولكنه كسب تلبية نداء الضمير . . . وهذه عنده صفقة رابحة كل الربح .

وتصدى بعد ذلك لشؤون العامة مستقلا عن الأحزاب التى كانت تتداول الحكم فى تلك الأيام فلم يغره بريقها ولم تجرفه تياراتها بل ظل حياته لا تحركه إلا مثله العليا التى لا زمته دواماً وكانت له وحدها نبراسا وهاديا .

وكثيرون يرون أن أجرأ وجوه كفاحه كان الاستجواب الذى قدمه فى مجلس الشيوخ عن الأسلحة الفاسدة . . الذى أدى لإسقاط عضويته هو ومن أيده من الأعضاء — أطاح برئيس المجلس نفسه

ولكن قد يكون الأشد منه جرأة هو تلك المقالات اللازعة التى نشرها فى الصحف مهاجما السلطات العليا مستهينا بما يعرضه ذلك للمسئولية الجنائية مثل مقال

« اليخت فحر البحار . . — ومقال «مواطنون لارعايا» ومقال « ولاء الأحرار وولاء العبيد» ومقال « الدائرة تدور . . » ومقال « مأساة الرتب والنياشين » وغير ذلك من المقالات التى ينبئ عنوانها بما تحويه من نقد لاذع للسلطات العليا . . ولاجدوى من بسط وقائع هذه المقالات فقد انقضى عهدها إلى غير رجعة وعفت آثارها . . ولم يبق منها إلا ما حــواه التاريخ من جهــاد مكافح لم يرهبه السلطات العليا وهم يفقده حب السلامة عن الجهر عاليا بما أوحى به ضميره .

هذه لمحة وجيزة عن أمجاد حياة حافلة بالمثل العليا ما ذكر من أمجادها أقل مما أغفل.

قد نكون مقصرين فى حق الفقيد أيها السادة أكثر مما قصرنا إذا قصرنا الحديث على تلك المبادئ التى أشرنا إليها دون أن نشير إلى كفايته النادرة فى ميدان الاقتصاد

فقد عهد إليه بإدارة كبرى الشركات المساهمة مثل شركة النحاس وشركة الأراضى وشركة كوم أمبو — فأدارها وأشرف عليها بكفاية ممتازة لفتت إليه الأنظار خارج البلاد فدعى لإدارة إحدى الشركات الكبيرة فى الكويت وظل هناك سنوات عديدة حتى إذا أتم رسالته عاد لوطنه مخلفا هناك أطيب الذكريات .

سادتى :

هذه كلمه عن هذا الرجل العظيم الذى بلغ به الزهد اخيرا فى شؤن الدنيا وإنكار الذات أن أوصى ألا ينشر له نعى ولا تشييع له جنازة ولا يقام له مأتم وأن لا يقام له حتى هذا الحفل الذى جرى به تقليد المجمع وكأنه أراد الخروج من هــذه الدنيــا كما دخلها . . وكأنه شيئا لم يكن — يأبى التاريخ إلا أن يشيعه بكل اكبار — وإجلال حيث يخلد ما كان من عبقريته الفذة وأن يسجل له مآثره وأمجاده وكفاحــه ومثله العليا التى سيظل يتناقلها جيل عن جيل بكل فخر وإكبار رحم الله الفقيد الذى كان مثلا أعلا حيا وميتا واسكنه فسيح جناته .

« وإنا لله وإنا إليه راجعون » والسلام عليكم ورحمة الله .

كلمة الأسرة

السيد الرئيس أيها السادة

سيداتي سادتي

هذه الكلمات الطيبة الكريمة التي أفاضت في تأبين مصطفى مرعى وأحسنت في بث مناقبه ومآثره .

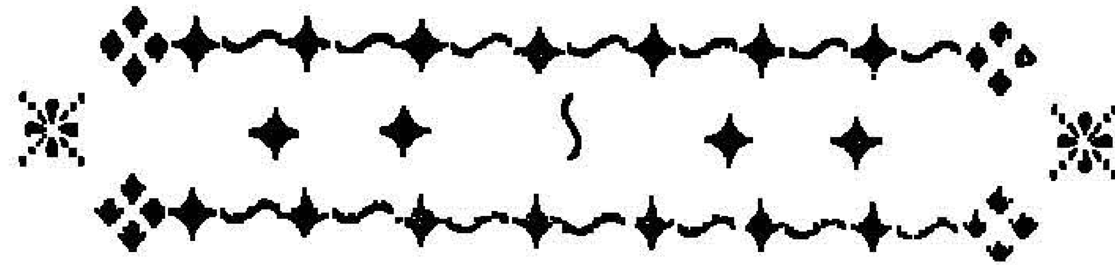
هذه الكلمات النابضة التي حملت أزكى نفحات البرّ والوفاء لا أجد في وسعي مددا يعينني على أن أقابلها بما يوافيها من الشكر والعرفان . . . وما حصر لساني وعي بأمره وعجزه إلا غلبة الانفعال وغمرة العاطفة . . ولعل في ذلك دلالة أقوى من دلالة الكلام .

وبعد فحسبي أن أقول « إذا كان مصطفى مرعى قد اغترب عنا بجسده فهو لن يغترب أبداً بروحه طالما كان القوم في وطنه عارفين حق قدره حافظين له ما هو حقيق به من رفعة المنزلة ومن فائق الحب والتقدير .

فلتنعم روحه ولتهنأ بما ترك من حسن الذكر وطيب القالة وحميد المأثرة .

وختاما . . فالشكر لكم . .

والسلام عليكم . . ورحمة الله .



كلمة الختام

للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع

سيداتى سادتى :

شكرا خالصا للسادة الزملاء المتكلمين ، وعزاءا حارا للأسرة الكريمة . وشكرا لكم جميعا على تفضلكم بالاشتراك معنا فى توديع راحل عزيز لن ننساه أبدا رحمه الله رحمة واسعة ورفعت الجلسة .

